وزارة التعليم العالـــــــــي و البحث العـــــــــلـــــــــمي

جامعة الجزائر 2 - أبو القاسم يعد الله-

كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية

قسم التاريخ

العلاقات الإسبانية بالقوى المحلية في الغرب الجزائري في القرن العاشر الهجري / السادس عشر ميلادي .

مذكرة مقدمة لنيل شهادة الماجستير في التاريخ الحديث

إعداد الطالبة :

فطيمة الزهراء عكوش

إشراف الدكتور:

إبراهيم سعيود

السنة الجامعية 2014 -2015

وزارة التعليم العالــــــــي و البحث العـــــلـــــــمي

جامعة الجزائر 2 - أبو القاسم سعد الله -

كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية

قسم التاريخ

العلاقات الإسبانية بالقوى المحلية في الغرب الجزائري في القرن العاشر الهجري / السادس عشر

مذكرة مقدمة لنيل شهادة الماجستير في التاريخ الحديث

إعداد الطالبة :

فطيمة الزهراء عكوش

إشراف الدكتور:

إبراهيم سعيود

أعضاء اللجنة المناقشة :

أ.د/ أرزقي شويتام رئيسا .

د / إبراهيم سعيود مشرفا ومقررا .

د / ليلى خيراني عضوا

د / نجوى طوبال عضوا

السنة الجامعية 2014 -2015

بسم الله الرحمان

الرحيم

شكر وتقدير

الحمد لله الواحد الأحد الفرد الصمد على توفيقه لي لإتمام هذا العمل ، فيارب لك الحمد حتى الرضا ، ولك الحمد حتى ترضى ، ولك الحمد إذا رضيت .

لا يسعني في هذا المقام إلا أن أتقدم بالشكر الجزيل ، وخالص العرفان والتقدير إلى من كان لي خير دليل ، ومن شرفني بإشرافه على هذه الدراسة ، الأستاذ **إبراهيم سعيود** ، الذي تولى متابعة بحثي هذا من الناحية العلمية منذ أن كان مشروعا .

ولا يفوتني أن أتقدم أيضا بالشكر الجزيل إلى الأستاذ الدكتور **أرزقي شويتام** ، الذي لم يبخل علي بتوجيهاته ونصائحه ، فجزاه الله عني خيرا .

كما أتقدم بخالص الشكر والتقدير إلى الذين قدموا لي المساعدة أثناء انجازي لهذه المذكرة .

الإهداء

الحمد لله حمدا كثيرا ، سبحانه الذي أعانني على إتمام هذا العمل ، ووفقني على انجازه .

أهدي ثمرة جهدي إلى اللّذين أوصانا بهما الله خيرا بقوله تعالى : " **ووصينا الانسان بوالديه حملته أمه وهنا على وهن وفصاله في عامين أن اشكر لي ولوالديك إليّ المصير** "

الآية 14 من سورة لقمان .

والداي العزيزان .

إلى كل أفراد عائلتي الكريمة كبيرا وصغيرا ، الذين أعانوني على تجاوز الصعوبات التي واجهتني أثناء انجازي لهذه الدراسة .

إلى كل من ساعدني على إنجاز هذا العمل المتواضع من قريب أو بعيد ، ولو بنصيحة أو كلمة طيبة . وإلى كل طلبة قسم التاريخ في جامعة سطيف والجزائر .

فطيمة الزهراء

قائمة المختصرات

1 – بالغة العربية :

د.ت : دون تاريخ .

د.م.ج : ديوان المطبوعات الجامعية .

س.ط.ش.ج : سحب الطباعة الشعبية الجزائرية .

ش.ص.ن.ت : شركة الأصالة للنشر والتوزيع .

ش.و.ن.ت : الشركة الوطنية للنشر والتوزيع .

م.إ.ع : مؤسسة الانتشار العربي .

م.أ.م : مكتبة الأنجلو المصرية .

م.ث.د : مكتبة الثقافة الدينية .

م.د.م.ج : مطبعة دار المعارف الجديدة .

م.ل.ت : مطبعة لجنة التأليف .

م.م.إ : منشورات مكتبة اقرأ .

م.و.د.ن : المؤسسة الوطنية للدراسات والنشر .

م.و.ف.م.ج : المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية الجامعية .

2 – بالغة الأجنبية :

A.J.L.é : Adolphe Jourdan Libraire éditeur .
C.N.E.H : Centre National d’Etudes Historique .
E.L.é : Ernest Leroux éditeur .
R.A : Revue Africaine .
T.A.F.é : Typographie Adolphe Ferrier éditeur .

المقـــــدمة :

عرف المغرب الإسلامي في النصف الثاني من القرن الخامس عشر حالة من التدهور السياسي بسبب الانحطاط والتفكك والتناحر الذي عرفته البلاد أواخر العهد الحفصي ، الزياني ، والمريني ، وهذا ما أدى إلى عدم الاستقرار لفترة طويلة من الزمن غلب عليها الصراع والتزاع على السلطة ، وأصبح المغرب الأوسط كغيره من الدول المجاورة يعيش حالة من الفوضى بسبب ضعف السلطة الحاكمة ، مما أدى إلى ظهور تمردات قادها شيوخ القبائل الكبرى في المنطقة ، ما جعلها تنقسم إلى مجموعة من الإمارات الصغيرة الخاضعة لسلطة الشيوخ ، وأصبحت كل إمارة تسعى إلى حماية حدودها فقط .

وفي الوقت نفسه كانت قوة الأوروبيين تنمو في الضفة الأخرى من البحر المتوسط بعد ظهور النهضة والكشوفات الجغرافية . وكان الاسبان من بين الناشطين في المتوسط في تلك الفترة ، خاصة بعد احتلال الأندلس وسقوط غرناطة 1492م . ولقد حفّزت الأوضاع السائدة آنذاك في المغرب الأوسط وغيره من بلدان المغرب الإسلامي هؤلاء ، على الإقدام على خطوة هامة في تاريخ البلدين متمثلة في شن حملات عسكرية اسبانية على سواحل المغرب الأوسط ، متقدمة من الجهة الغربية لهذا الأخير والمعروفة حاليا بالغرب الجزائري . وبعد احتلال أول مدن المنطقة مباشرة عام 1505م، بدأ الاسبان في إقامة علاقات مع القوى المحلية لتعزيز نفوذهم وضمان استمرارية وجودهم في البلاد .

الإشكالية:

في الوقت الذي كان فيه الاسبان يوسعون نفوذهم في الجزائر ، ظهر الأتراك المتنافسين معهم والذين بدؤوا في التوغل إلى الداخل بطلب من أهالي المنطقة لنجدهم من السيطرة المسيحية الاسبانية . وقد اتخذت قبائل الغرب الجزائري مواقف متباينة من الاسبان والعثمانيين ، فتميزت علاقاقم بالقويتين بالتعاون والمعارضة ، والخضوع ، وذلك حسب ظروف كل قبيلة وموقعها

وسنسعى في هذه الدراسة إلى تحديد طبيعة تلك العلاقات والعوامل المؤثرة فيها ، وذلك من خلال محاولة الإجابة عن الأسئلة التالية:

1 – فيما تتمثل دوافع الاسبان لغزو الغرب الجزائري .وكيف تمكن الاسبان من الوصول إلى الغرب الجزائري ؟ .

2 – هل اكتفى الاسبان باحتلال السواحل أم أنهم حاولوا التوغل إلى الداخل ، وما هي أهم الحملات الداخلية إن وجدت ؟.

3 – ما كان موقف السلطة المركزية والمتمثلة في أمراء بني زيان من الاحتلال الاسباني ؟.

4 – كيف كانت طبيعة العلاقات بين القوى المحلية في الغرب الجزائري والاسبان ، وهل استسلم الكل للاحتلال أم أن هناك من عارضه ورفض الخضوع للتبعية الاسبانية وفضّل الإسلام الذي مثله العثمانيون على المسيحية ؟ .

دوافع اختيار الموضوع :

كان اختيارنا لموضوع العلاقات بين القوى المحلية والاسبان في الغرب الجزائري لأنه من المواضيع الهامة المتعلقة بتاريخ بلادنا ، خاصة وأن منطقة الغرب الجزائري كانت مركز السلطة الحاكمة المتمثلة في الدولة الزيانية ، والتي كان لها موقف من الاحتلال الاسباني هذا من جهة ، ومن جهة أخرى فإن الاحتلال الإسباني لمنطقة الغرب الجزائري يعتبر من المواضيع الهامة التي تحتاج الدراسة خاصة الجانب المتعلق بدور القوى المحليةسواء في مواجهة الاستعمار أو تعزيز وجوده في البلاد.

الدراسات السابقة للموضوع:

إن الجدير بالذكر هو وجود العديد من الأطروحات والرسائل الجامعية المتعلقة بدراسة تاريخ الاحتلال الاسباني للجزائر في بداية القرن السادس عشر ، ومن بينها :

مذكرة ماجستير للباحث كليل صالح في جامعة باتنة بعنوان "سياسة خير الدين في مواجهة المشروع الاسباني لغزو المغرب الأوسط" لعام 2007 . وقد تطرق فيها إلى الغزو الاسباني لوهران والمرسى الكبير ، وأشار إلى السياسة التي اتبعها الأتراك في محاربة الاحتلال الاسباني ، بالإضافة إلى دراسة أخرى للباحث صالح حيمر بعنوان " التحالف الأوروبي ضد الجزائر عام 1541م ، وتأثيراته الإقليمية والدولية " ، وقد ناقشها هو الآخر في جامعة باتنة في عام 2007 ، وركز بدوره على ذكر الحملات العسكرية التي قادها الاسبان لغزو الجزائر ، و لم يتطرق إلى العلاقات الداخلية . وكذا مذكرة الماجستير في التاريخ الحديث للباحث بوبكر محمد السعيد بعنوان ، العلاقات السياسية الجزائرية الاسبانية خلال القرن الثاني عشر الهجري / الثامن عشر ميلادي ، والتي ناقشها في قسم التاريخ لجامعة غرداية ، وقد تطرق إلى طبيعة العلاقات بين الجزائر والاسبان وركز على الجانب السياسي دون الإشارة إلى جوانب أخرى . وهناك العديد من الأطروحات والرسائل في مختلف الجامعات الجزائرية مثل : وهران وباتنة والجزائر ...

المنهج المتبع في الدراسة :

أما عن المنهج المتبع في هذه الدراسة ، فهو المنهج التاريخي الوصفي الذي يعتمد على وصف الأحداث التاريخية وتحليلها تحليلا علميا تاريخيا ،كالمعارك التي خاضها كل من الاسبان أو القوى المحلية في الغرب الجزائري حسبما ورد في المصادر المتحدثة عن الفترة . والتحليلي القائم على تحليل الأحداث التاريخية مثل التي جرت بين الاسبان والقوى المحلية سواء الخاضعة أو المناوئة ، وذلك لمعرفة الأسباب والنتائج ، وكذلك تحليل بعض الرسائل التي كان يبعثها رؤساء القبائل إلى الاسبان في مدينة وهران .

خطة العمل:

وللإجابة على الأسئلة المطروحة ارتأينا وضع خطة عمل تتضمن أربعة فصول بعد المقدمة وقد قسمناها كما يلي:

المدخل:

هو بمثابة تمهيد للموضوع ، خصصناه للحديث عن أوضاع المغرب الأوسط بعد سقوط دولة الموحدين في عام 1269م إلى نهاية القرن الخامس عشر . وقد حاولنا أن نبين فيه حالة الانقسام والصراع الذي عرفته الدولة الزيانية مع الدول المجاورة لها من الحفصيين في المغرب الأدنى والمرينيين في الأقصى ، واستمرار الصراع إلى غاية النصف الثاني من القرن 9ه / 15م .

الفصل الأول : عنوانه : التوسع الاسباني في المغرب الأوسط نهاية القرن الخامس عشر وبداية القرن السادس عشر (الظروف والدوافع) . وقد حاولنا في هذا الفصل إبراز الظروف والدوافع التي جعلت الاسبان يقدمون على مثل هذه الخطوة التي تمثل منعرجا حاسما في تاريخ البلدين اسبانيا والمغرب الأوسط .

الفصل الثاني:

وعنوانه : الحملات الاسبانية على الجزائر، وتدخل العثمانيين لحماية المنطقة منذ النصف الأول من القرن السادس عشر ميلادي . وقد خصصناه للحديث عن أهم الحملات التي شنّها الاستعمار الاسباني على مختلف أنحاء الغرب الجزائري ، وعن أسلوب المستعمر في الاستيلاء على المناطق الرئيسية للبلاد.

الفصل الثالث:

خصصناه لإبراز سياسة الاسبان الداخلية في الغرب الجزائري ، ودرسنا فيه ردود الأفعال التي أبدتها القوى المحلية من الاحتلال الاسباني للغرب الجزائري . وقد فصلنا في العلاقات بين القوى المتحالفة مع الإحتلال والتي فضلت التعاون معه فقط أو التي رفضت الإنصياع للسيطرة الإسبانية

وفضلت محاربة الإحتلال وطرده من البلاد . كما درسنا ردود الأفعال التي بدرت عن السلطة المحلية والمتمثلة في أمراء العرش الزياني .

الفصل الرابع:

عنوانه : موقف العثمانيين من الوجود الاسباني في الغرب الجزائري ، حاولنا فيه إبراز دور العثمانيين في مواجهة السيطرة الاسبانية على الغرب الجزائري ، خاصة بعد أن أصبح لكل طرف أعوانه في المنطقة .

أما عن الخاتمة:

فهي عبارة عن أهم النتائج التي توصلنا إليها من خلال هذا العمل ، وإجابة عن الإشكالية والأسئلة المطروحة في بداية العمل ، حتى وإن كانت الإجابة غير كاملة لأن الحقيقة العلمية دائما تكون نسبية . ولذلك ، فإن المجال يبقى مفتوحا لمعرفة أشياء أخرى لم نتوصل إليها . كما استعملنا بعض الملاحق من وثائق منشورة وخريطة لإثراء الموضوع أكثر .

أهم المصادر والمراجع :

ولإثراء هذا العمل جمعنا بعض المصادر والمراجع التي أفادتنا في دراسة موضوع بحثنا ومنها : المصادر العربية التي درست فترة الاحتلال الاسباني للجزائر ، مثل كتاب الزياني محمد : **دليل الحيران** وكتاب المزاري بن عودة : **طلوع سعد السعود** . وقد كانت استفادتنا من هذه المصادر في مختلف عناصر البحث ، وذلك باعتبارها مؤلفات محلية بالرغم من تركيزها على الجانب السياسي والعسكري المتمثل على الخصوص في العدوان الاسباني . وأن العديد منها لا تشمل جوانب مختلفة من الحياة السائدة في الجزائر خلال الفترة المدروسة . كما أنها لم تشر إلى السياسة التي انتهجها الاسبان خلال فترة وجودهم في المناطق التي تمكنوا من احتلالها ، إلا أن هذا لا

ينقص من أهميتها وقيمتها التاريخية .

وكتاب **مذكرات خير الدين بربروس** ، **وغزوات عروج وخير الدين** لمؤلف مجهول ، وقد كانت استفادتنا من هذه المصادر خاصة في المبحث الأخير من الفصل الثاني ، بحيث يتعرض الكتاب الأخير إلى بداية التواجد العثماني في الجزائر، كما يتضمن في ثناياه إشارات إلى بداية الصراع الإسباني في الجزائر، وهو من المصادر المهمة التي تقدم العديد من الأحداث التاريخية في النصف الأول من القرن السادس عشر ميلادي وهو فترة الدراسة . بالإضافة إلى كتاب المشرفي عبد القادر : **بهجة الناظر في أخبار الداخليين تحت ولاية الاسبان بوهران من الأعراب كبني عامر** ، ويعتبر هذا الكتاب أهم مصدر اعتمدنا عليه في المبحث الأول من الفصل الثالث ، لأنه تناول قضية القبائل العربية التي تعاونت مع الاسبان .كما استفدنا منه في المبحث الثالث من نفس الفصل ، حيث أشار إلى بعض القبائل المعارضة للاسبان .

أما المصادر الاسبانية المعربة أو المترجمة إلى الفرنسية ، فهي عديدة منها مقال دييغو سواريز (Diego Suarez Montanes) الذي عاش بين القرنين السادس عشر والسابع عشر. **بعنوان " المرسى الكبير"** وكتاب دييغو دي هايدو (Diego de Haedo) والمتمثل في **تاريخ ملوك الجزائر** وكان قد زار الجزائر في بداية القرن السادس عشر ، وترك وصفا لكثير من الأوضاع في العديد من المناطق تعكس الوضع السائد في بداية الوجود الاسباني في بعض السواحل الجزائرية . ودراسة ساندوفال (Sandoval **)** المتعلقة بوهران والمرسى الكبير. ومارمول كاربخال (Marmol Carvajal) صاحب كتاب **إفريقيا** ، الذي تناول فيه أحداث الوجود الاسباني بالجزائر في بدايته .

وقد كانت استفادتنا من هذه الدراسات في مختلف مراحل البحث خاصة في تتبع مسار الحملات الاسبانية في الفصل الثاني من هذه الدراسة . وبالإضافة إلى هذا ، فقد اعتمدنا على بعض الوثائق المنشورة في المجلة الإفريقية مثل التي نشرها دولبريمودي (Elie de la Primaudaie) من أرشيف سيمانكاس بعنوان ، مستندات حول تاريخ الاحتلال الاسباني في إفريقيا **,** التي

تناولت كثيرا من الأحداث التي تعرضت لها المدن الساحلية الجزائرية أثناء الاحتلال الاسباني . والوثاق التي نشرها شارل فيرو (Feraud) بعنوان : " رسائل عربية ، في عهد الاحتلال الاسباني للجزائر " ، والتي تناولت بعض الرسائل التي كان عملاء الاسبان من رؤساء القبائل العربية في الغرب الجزائري يرسلونها إلى حكام الاسبان في مدينة وهران ، وذلك في بداية القرن السادس عشر . وقد استفدنا من هذه الوثائق في إثبات ولاء بعض القبائل ، وكانت هذه الرسائل بمثابة دليل على ذلك .

أما عن المراجع المتخصصة والعامة والمقالات فهي عديدة . سواء منها الأجنبية أو المحلية ، وبالتالي يطول المقام لذكرها في هذه المقدمة ، وهي واردة في قائمة البيبليوغرافيا . وبالرغم من أن بعضها يدرس فترة معينة ، والآخر يركز على مدينة أو إقليم معين ، إلا أنها أفادتنا في تحليل مباحث الفصول ، ونذكر منها كتاب أحمد توفيق المدني : **حرب الثلاثمائة سنة بين اسبانيا والجزائر** . وقد استفدنا منه في مختلف فصول المذكرة ، خاصة الوثائق المنشورة فيه ، وكتاب عبد القادر فكاير : **الغزو الاسباني للسواحل الجزائرية وآثاره** ، وكتاب أرزقي شويتام : **المجتمع الجزائري وفعالياته في العهد العثماني**، الذي أفادنا في الفصل الثالث ، وكتاب محمد دراج : **الدخول العثماني إلى الجزائر** ، وغيرها من المراجع المحلية .

ومن المراجع الأجنبية نذكر : كتاب فاي (Fey) بعنوان **تاريخ مدينة وهران** ، وكذا كتاب مارساي (Mercier) المعروف **بتاريخ إفريقيا** بجزأيه الأول والثاني وغيرها من المراجع الأجنبية . ومن المقالات ما يلي : المقال الذي كتبه مولاي بلحميسي بعنوان **" نهاية دولة بني زيان "** ، وقد أفادنا في الفصل الأول والثالث ، ومقال بوعزيز بعنوان **" الأدوار التاريخية لدولة بني زيان "** ، وقد أفادنا خاصة في المدخل .

الصعوبات :

لا يخلو أي بحث علمي من صعوبات ، قد يواجهها الباحث في انجازه لأي دراسة سواء كانت تاريخية أو غيرها ، ومن أهم الصعوبات التي واجهتنا في هذا العمل ، قلة المادة العلمية التي تدرس تاريخ الجزائر في القرن السادس عشر ، وخاصة التي تتحدث عن العلاقات الاجتماعية ، حيث أن أغلب المصادر سواء المحلية أو الأجنبية ركزت على الحملات الاسبانية ، بالإضافة إلى تشابك الأحداث في بداية القرن السادس عشر ، وهذا ما ولد صعوبة الفصل بين عناصر البحث ، وكذا عائق اللغة بحيث توجد بعض المصادر والرسائل التي أشارت إلى الموضوع باللغة الاسبانية لكننا لم نستفد منها .كما أن موضوع الدراسة متعلق بالقوى المحلية لذلك يتطلب منا التنقل إلى منطقة الدراسة (الغرب الجزائري) وقد وجدنا صعوبة في ذلك واكتفينا فقط بما تمكنا من جمعة من المكتبات القريبة من مقر الإقامة (سطيف) .

ولكن هذه الصعوبات لم تثبط عزيمتنا ، بل اعتبرناها حافزا يدفع بنا إلى العمل أكثر . وقد حاولنا تخطيها لأن أي عمل أكاديمي يتطلب من الباحث جهدا كبيرا لكي يصل إلى نتائج ايجابية تتناسب مع مستوى الدراسة .

وفي ختام هذه المقدمة ، نتقدم بالشكر الجزيل لكل من ساعدنا لتخطي هذه الصعوبات ، فلا يمكن أن ندعي لأنفسنا التوفيق لولا المساعدات التي تلقيناها . ونخص بالذكر الأستاذ المشرف إبراهيم سعيود الذي لم يبخل علينا بتوجيهاته وجديته في متابعة العمل من بدايته إلى نهايته .كما نتوجه بخالص الشكر والتقدير إلى الأساتذة أعضاء اللجنة الذين نتشرف بمناقشتهم لهذه المذكرة . ونسأل الله سبحانه وتعالى أن يجعل هذا العمل خالصا لوجهه الكريم ، وأن يرزقنا السداد والإخلاص والتوفيق والرشاد .

سطيف : 26 جانفي 2015 .

شهد المغرب الأوسط و المغرب الإسلامي بصفة عامة حالة من الاضطراب السياسي بعد سقوط دولة الموحدين ، لعدد من العوامل التي سنحاول إبرازها من خلال تتبعنا لمجرى الأحداث في تلك الفترة . ولذلك ارتأينا أن نوضّح أوضاع المغرب الأوسط بعد سقوط دولة الموحدين إلى غاية نهاية القرن 9ه / 15م ، فقد تعرضت هذه المنطقة إلى بعض الأحداث التي كان من نتائجها التدخل الأجنبي .

عقب انهيار دولة الموحدين ، وانقسام المغرب الإسلامي إلى دويلات صغيرة [1] ، أسس يغمراسن بن زيان [2] سنة 633ه/1235م دولة عرفت بدولة بني زيان أو بني عبد الواد [3] ، اتخذ من تلمسان [4] عاصمة لها .

1- دولة بني حفص بتونس وطرابلس والشرق الجزائري ، وبني زيان بالوسط والغرب من أرض الجزائر ، ودولة بني مرين بالمغرب الأقصى... ينظر: أحمد توفيق المدني : **حرب الثلاثمائة سنة بين اسبانيا والجزائر (1492–1792)** ، ط1 ، دار البعث ، الجزائر 1968.ص64.

2- 634 -682ه/1236-1283م ، اسمه يحيى ولقبه يغمراسن ، ومعناه كثير المرق ، لقب بذلك لكثرة جوده . وكانت بداية حكمه في يوم 4 أكتوبر سنة 1230م . ينظر : الآغا بن عودة المزاري : **طلوع سعد السعود في أخبار وهران والجزائر واسبانيا وفرنسا إلى أواخر القرن التاسع عشر،** تح : يحيى بوعزيز ، دار البصائر ، الجزائر ،2007 ، ص158. لمعرفة كيفية وصول الزيانيين إلى الحكم ينظر : ص163 من نفس المصدر .

3- سمو بني زيان نسبة لجدهم لأبيهم زيان بن ثابت بن محمد ... أما بنو عبد الواد فنسبة لجدهم لامهم عبد الوادي بن بادين بن ... وبنو عبد الواد هم عبارة عن فرع من فروع الطبقة الثانية من قبيلة زناتة الكبيرة استقروا منذ زمن طويل في المنطقة الغربية للجزائر ... ينظر: المزاري : المصدر السابق ، ص155 ، بوعزيز: ***المراحل والأدوار التاريخية لدولة بني عبد الواد الزيانية (1236–1554م)*** ، الأصالة ،ع 26 ، الجزائر ، 1975 ، ص 12- 13.

4- يتألف اسمها من كلمتين بربريتين هما : تلم ومعناها تجمع ، وسان بمعنى اثنان ، أي تجمع بين اثنين وهما : البر والبحر، أي أنها تجمع بين طبيعة البر والبحر ، لوقوعها في مكان ملائم لذلك على حد قول بوعزيز . وقد ناقض نفسه في موضع آخر حيث يقول بأن تلمسان تجمع بين التل والبر، وقد وافقه في ذلك آخرون ، ينظر: بوعزيز : " **المراحل والأدوار**... " ، المرجع السابق ، ص ص3-11 ، وبوعزيز: **تلمسان عاصمة المغرب الأوسط** ، ط1 ، م و ف م ج ، الجزائر ، 1985 ، ص15 . و كذلك : لخضر عبدلي : **تاريخ مملكة تلمسان في عهد بني زيان** ، ط1 ، دار الأوطان ، الجزائر ، د.ت ، ص31 .

إلا أن هذه الدولة لم تعرف الاستقرار إلا في فترات قصيرة من تاريخها ، وذلك بسبب موقعها المحصور بين الحفصيين والمرينيين ، الذين ما فتئوا يتطلعون لتوسيع نفوذهم على حساب تلمسان ، عاصمة المغرب الأوسط ، ومركز حكم الزيانيين [1] .

ولقد أطلق على هذه الدولة في بداية عهدها اسم دولة بني عبد الواد ، وبعد أن وصل السلطان أبو حمو موسى الثاني إلى الحكم عام 761ه / 1359م ، أطلق عليها اسم الدولة الزيانية . وتاريخ هذه الأخيرة مليء بالاضطرابات ، وكان واليها يغمراسن من الشبان الشجعان الذين يتميزون بالبأس والمهابة ، لذلك عهد له الخليفة الموحدي الرشيد [2] بولاية العهد في تلمسان . وكان لايزال شابا عندما بويع له بالإمارة 634ه / 1236م [3] ، وقد عمل على تنظيم الدولة وكوّن لها جيشا يدافع به عنها [4] .

ومن خلال اطلاعنا على الأوضاع التي تميز بها المغرب الأوسط بعد قيام الدولة الزيانية خلال الفترة موضوع الدراسة ، وجدنا بأنها مرت بعدة أدوار ، ولهذا ارتأينا أن نقسمها إلى مجموعة من المراحل ، الأولى هي : مرحلة السيطرة الحفصية على المنطقة ، ثم المرينية ، وعودة الحفصيين بعد ضعف المرينيين ، وبعدها تأتي مرحلة السيطرة الزيانية في أواخر القرن الخامس عشر والتي سنفصل فيها في الفصل الأول من هذا العمل . وقد كان حكام الدولة الزيانية يحاولون أن يستعيدوا استقلالهم في كل مرحلة ، لكن هذا الاستقلال في غالب الأحيان لم يدم طويلا .

1-مرحلة الحكم الحفصي:

[1] - محمد دراج : **الدخول العثماني إلى الجزائر ودور الإخوة بربروس (152-1543)** ، دار الأصالة ، الجزائر ، 2012 ، ص84 .

[2] - هو عبد الواحد بن إدريس المأمون ... ، أحد حكام الدولة الموحدية في المغرب الإسلامي . ينظر : المزاري : المصدر السابق ، ص 158 .

[3] - بوعزيز : " **المراحل والأدوار** ... " ، المرجع السابق ، ص ص12- 14 .

[4] - Amar Amoura : **Résumé de l'histoire de l'Algérie** , Dar Raihana , Alger , 2002 , p .119.

وتبدأ هذه المرحلة بوصول يغمراسن بن زيان إلى الحكم في عام 634ه /1236م ، وتستمر إلى غاية وفاته عام 681ه / 1283م ، بعد تثبيت دعائم الحكم لأبنائه في تلمسان [1] .

ومنذ قيام دولة الزيانيين في المغرب الأوسط وهي محاطة بمخاطر من الجهة الشرقية والغربية، فالحفصيون كانوا يزعمون أنهم ورثة الموحدين وأن لهم الحق في بسط نفوذهم على المغرب الأوسط (الجزائر) [2] ، ولذلك فقد كان هؤلاء أول المخاطر التي واجهها يغمراسن بن زيان حيث عمل الأمير الحفصي أبو زكريا يحيى الأول على مهاجمة تلمسان في عام 640ه/1242 م من أجل تأديب يغمراسن [3] ، الذي حاول أن يوحد قوته مع الموحدين لصد الهجوم الحفصي . وبعد أن توسع أبو زكريا الحفصي على حساب مدينة تلمسان فرّ يغمراسن إلى جبال ورنيد جنوب المدينة [4] .

وقد اضطر أمير الزيانيين أن يوقع هدنة مع السلطان الحفصي واعترف له بالسيادة الحفصيه ، وذلك من أجل تجنب سقوط وانهيار إمارته [5] . بينما أحكم أبو زكريا سيطرته على المدينة وعمل على التوسع فيها ، حيث ضم مدينة سبة عام 646ه / 1248م ، وبقيت تحت سيطرة الحفصيين مدة طويلة من الزمن إلى غاية تحريرها من طرف يغمراسن عام 668ه/1269م ، ومعها وهران وعادت السيطرة الزيانية مرة أخرى [6] .

---

[1]- شوقي ضيف : **عصر الدول والإمارات (الجزائر، المغرب الأقصى ، موريطانيا ، السودان)** ، دار المعارف ، القاهرة ، 1995 ، ص42 .

[2]- نصر الدين سعدون : **تاريخ العرب السياسي في المغرب العربي من الفتح العربي حتى سقوط غرناطة (798ه–1492م)** ، دار النهضة العربية ، بيروت ، 2003 ، ص339 .

[3]- بوعزيز : **تلمسان** ... ، المرجع السابق ، ص19 .

[4]- Amoura (A) : op . cit , p .120 .

[5]- بوعزيز :" ***المراحل والادوار ...*** " ، المرجع السابق ، ص15 .

[6]- يحيى بوعزيز : **وهران** ، ط1 ، س ط ش ج ، الجزائر ،2007 ، ص 46 .

وقبل وفاته أوصى يغمراسن ابنه ووريثه أبو سعيد عثمان [1] ، بأن يتجنب المواجهة مع المرينيين والحفصيين ، وقد حاول هذا الأخير أن يعمل بوصية والده لكن المرينيين ما لبثوا يتقدمون نحو دولته.

2-مرحلة الحكم المريني:

بعد موت سلطان الدولة الزيانية يغمراسن بن زيان توجه المرينيون إلى غزو تلمسان ، وذلك بسبب تدخل أفراد الدولة الزيانية في العرش المريني ودعمهم للطامعين فيه . وعليه فمن الطبيعي أن يعتبر هؤلاء بأن الدولة الزيانية مصدر إزعاج وفتنة بالنسبة لهم ، فقاموا بغزو تلمسان عدة مرات بغية تقويض العرش الزياني [2] .

وكانت معركة مرسى الرؤوس [3] ، أول معركة ليغمراسن مع المرينيين أين تحالف كل من الحفصيين والمرينيين لإسقاط دولة بني عبد الواد ، لكن عثمان بن يغمراسن رد على ذلك بإسقاط الدعوة الحفصية في منابر تلمسان ، وبذلك ينتهي الدور الأول من تاريخ الدولة الزيانية ويتلوه عهد السيطرة المرينية على تلمسان .

وقد حاول أبو سعيد عثمان بن يغمراسن توسيع حدود مملكته إلى غاية وصوله إلى مدينة الجزائر ولكن عهده تميز بالضعف ، وهذا ما تبين من خلال غزو مدينة تلمسان خمس مرات من طرف السلطان المريني يوسف بن يعقوب ، تمكن فيها من حصار المملكة سنة 1298م (698ه)

1- هو أبو سعيد عثمان الأول ، حكم في الفترة الممتدة من 704 إلى 681 ه/ 1282 – 1304م . ينظر : شوقي عطا الله الجمل : **المغرب الكبير في العصر الحديث (ليبيا ، تونس ، الجزائر، المغرب)** ، ط1، م أ م ، مصر ،1977 ، ص33 .

2- دراج : المرجع السابق ، ص85 .

3- سميت كذلك لكثرة ما تساقط خلالها من رؤوس العباد . ينظر : بوعزيز : "***المراحل والأدوار ...***" ، المرجع السابق ، ص42 .

لثماني سنوات وثلاثة أشهر . وقد مات أبو سعيد في ذلك الحصار عام 703ه /1303م [1] ، وخلفه ابنه أبو زيان محمد الأول الذي نجح في مواصلة المقاومة حتى مقتل ملك المرينيين يوسف بن يعقوب في706ه / 1306م . أما هو فتوفي في عام 707ه / 1307م [2] .

ثم جاء أخوه أبو موسى بن عثمان 708-718ه / 1308-1318م لدعم استقلال الدولة الزيانية ، وحاول هذا الأخير إبرام صلح مع بني مرين لحماية ظهره منهم ، والتفرغ لإخضاع بعض المناطق في الشرق . وقد وصل نفوذه إلى غاية دلس ، وفي هذا الوقت كان سلطان المغرب الأقصى عثمان بن يعقوب بن عبد الحق يحاول شن غارة على تلمسان [3] .

وفي عام 718ه /1318م وصل أبو تاشفين الأول إلى الحكم [4] ، وكان حريصا على تعاونه مع المرينيين طيلة فترة حكمه ، لكنه قام ببعض المحاولات لتوسيع حدوده ، مما جعل السلطان المريني أبو الحسن يعمل على مهاجمة تلمسان عام735ه/1335م لتأديب حاكمها ، وضرب عليها حصارا منتصف شهر رمضان 737ه/1337م [5] .

وبذلك تمكن المرينيون من حصار تلمسان مدة طويلة من الزمن ، قدرها البعض بأحد عشر عاما [6] . قام خلالها السلطان أبو الحسن بغزو الموانئ التابعة لتلمسان ووصل إلى ندرومة ، وهنين وتنس... ثم عاد إلى تلمسان واحتلها عام737ه/1337م ، وقتل أميرها أبو تاشفين ، وبذلك

1- ضيف : المرجع السابق ، ص 47 .

2 - Amoura : op . cit .,p.120.

3- بوعزيز : "*المراحل* ... " ، المرجع السابق ، ص ص16- 17 .

4- هو ابن السلطان أبو حمو موسى الأول ، وقد تآمر الابن على والده وقتله في عام 718ه / 1318م لكي يحل مكانه في الحكم . ينظر : Amoura : op . cit , p. 121 .

5- سعدون : المرجع السابق ، ص340 .

6- دراج : المرجع سابق ، ص85 .

بقيت المدينة تحت حكم المرينين إلى أن ظهر السلطان أبو سعيد الثاني [1] ، الذي أعاد إحياء الدولة الزيانية من جديد .

ثم عاد المرينيون للسيطرة على الدولة الزيانية من جديد وذلك بعد مقتل أميرها أبو سعيد عام 753ه / 1352م ، على يد السلطان المريني أبو عنان بن أبي الحسن ، وبقيت تحت حكم هذا الأخير إلى غاية759ه/ 1359م [2] .

وخلال هذه الفترة قام هذا الأخير بمحاصرة تلمسان ، وقتل سلطانها أبا سعيد وخربها ، بعد أن كانت معمورة . وبذلك فقد اندثرت دولة الزيانيين مرة أخرى إلى غاية ظهور أبو حمو موسى بن يوسف الذي أعاد إحياءها من جديد عام 759ه / 1359م [3] . كما قام بطرد المرينيين من تلمسان عام763ه / 1361م ، بعد أن شن حملة قادها بنفسه على مقر تواجد المرينيين ، وبذلك أعاد مجد دولته بعد موت السلطان المريني أبو عنان ، وأطلق عليها اسم الدولة الزيانية كما سبق الذكر. وقد كان السلطان أبو حمو يتميز بالعلم والنباهة وحبه للعلماء ، بالإضافة إلى أنه عرف بكتابته للشعر [4] .

1- هو سادس ملوك الدولة الزيانية بويع له بالملك في ربيع الأول سنة تسع وأربعين من الثامن ، الموافق لماي- جوان1348 م..ينظر: المزاري : المصدر السابق ، ص ص 174- 175 .

2- سعدون : المرجع السابق ، ص340 .

3- هو سابع ملوك الدولة الزيانية حكم في عام 759ه / 1359م ، ينظر : المزاري : المصدر السابق ، ص176 .

4- بوعزيز : **وهران** ... ، المرجع السابق ، ص 20 .

- لقد ورد لدى الزياني صاحب كتاب دليل الحيران بعض قصائد السلطان الزياني المذكور أعلاه ، بالرغم من أننا وجدنا بأن جزءا من الأحداث التي جرت في تلك الفترة غير مذكور في هذا الكتاب بعد اطلاعنا عليه ، وعلى حسب قول محقق الكتاب فإن القسم الأخير من الجزء الأول والقسم الأول من الجزء الثاني تم بترهما و لم يعثر عليهما ، ولذلك فإن سرد الأحداث بدأ من الغارة التي شنها السلطان المريني أبو فارس .

ويقول الزياني بأن السلطان المريني أبو فارس شن غارة على تلمسان في عهد سلطانها أبو حمو ، ودخلها في يوم عاشوراء عام772ه /1372م ، ولما حل السلطان المريني أبو فارس عبد العزيز بقصر تلمسان وجد على حائطه ثلاث أبيات من شعر أبو حمو موسى [1] .

ولقد بقي أبو حمو موسى خارج تلمسان إلى أن توفي السلطان المريني أبو فارس . وبعد عودته إليها لقي معارضة شديدة من طرف أحد ابنائه الطامعين في الوصول إلى عرش تلمسان ، والمعروف بأبي تاشفين الثاني [2] ، الذي قتل والده في عام 789ه / 1389م بسبب ذلك ، لكن حكمه لم يدم طويلا حيث لقي بدوره معارضة من طرف أخيه أبا زيان الثاني [3] الذي انتقم لمقتل والده ، وخلف أخاه ، لكن سيطرة المرينين على تلمسان استمرت إلى غاية 792ه / 1393م ، أين بدأت مرحلة التدخل الحفصي في الشؤون الداخلية للدولة الزيانية من جديد ، وذلك بعد ضعف المرينين بسبب التدخلات الأجنبية [4] .

3-مرحلة التدخل الحفصي الثاني:

بعد أن توفي أبو زيان خلفه أبو عبد الله الأول إلى سنة 1410م (813ه) ، وخلال هذه الفترة بدأت تظهر الاغتيالات في الأسرة الحاكمة ، وبذلك بدأ التدخل الحفصي لنصرة طرف على آخر...[5] . وبعد أن وصل أبو مالك عبد الواحد بن أبي حمو موسى الثاني إلى الحكم في

1- ينظر نص الأبيات في : محمد بن يوسف الزياني : **دليل الحيران وأنيس السهران في أخبار مدينة وهران** ، تح : المهدي البوعبدلي ، دار الثقافة العربية للنشر ، الجزائر ، 2007 ، ص ص 107- 112 .

2- هو أبو تاشفين عبد الرحمان بن أبو حمو موسى الثاني ، ولد بندرومة في شهر ربيع الأول سنة752ه / 1351م وتولى ولاية العهد في آخر شعبان 776ه / 1374م ، وأمضى غالبية أيامه في خدمة بني مرين إلى أن قتل والده في عام 791ه / 1388م أو1389م ، فتولى الحكم مكانه . وقد كان مواليا للمرينيين طيلة فترة حكمه ...ينظر : عبدلي : المرجع السابق ، ص247 .

3- عين واليا على مدينة الجزائر من قبل والده قبل وفاته ، فلما قتل هذا الأخير ، ثأر لوفاته من أخيه ... ينظر: Amoura : op.cit., , p. 124 .

4- بوعزيز : "*المراحل والادوار ...*" ، المرجع السابق ، ص21 .

5- ضيف : المرجع سابق ، ص 43 .

16رجب 814ه / 1411م ، عاد الاستقرار إلى الدولة الزيانية واستعاد من الحفصيين كل المناطق التي استولوا عليها [1] .

بالإضافة إلى أنه قضى على نفوذ المرينين ، وتدخل في عرشهم في فاس ، وقد كان هذا التفوق بمثابة تهديد للحفصيين فاخذ السلطان الحفصي أبو فارس عزوز 794- 834ه / 1394-1434م ، يكون جيشا قويا توجه به إلى تلمسان ، وكان ذلك عام 828ه / 1424م [2] ، وقد حاول عبد الواحد المقاومة لكنه لم يستطع . ولذلك أعلن خضوعه للسلطة الحفصية وفر إلى المغرب الأقصى، وبذلك دخلت الدولة الزيانية في طور السيطرة الحفصية إلى غاية 868ه / 1463م ، مستغليين في ذلك التراع الذي حدث بين أمراء العرش الزياني [3] .

هذه هي الأوضاع بصفة عامة التي تميز بها المغرب الأوسط بعد ظهور الدولة الزيانية ، حيث لم تستقر حدودها السياسية إلا في فترات قصيرة فقط . وبالرغم من هذه الاضطرابات السياسية ، إلا أن سلاطينها لم يهملوا الاهتمام بالجانب الاقتصادي والثقافي للبلاد ، فالسلطان الأول للدولة وهو يغمراسن بن زيان كان من المشجعين للحركة الفكرية والتعليمية في تلمسان ، حيث عمل على مجالسة الصلحاء والإكثار من زياراتهم ، وعقد المجالس العلمية في قصره . وسار على دربه ملوك كثر من بني زيان منهم : عثمان بن يغمراسن ، وأبو حمو موسى ، حيث جعل هذا الأخير تلمسان قبلة للعلم والعلماء ، وكذا أبو تاشفين الثاني ، ثم أبو حمو موسى الثاني الذي كان شاعرا وكاتبا...، وقد ظهرت عدة مدارس مثل : مدرسة أبي حسن المريني ... وغيرها [4] .

1- عبدلي : المرجع السابق ، ص260 .

2 - Amoura :op . cit , p.124 .

3- عبدلي : المرجع السابق ، ص261-262.

4- للمزيد حول الجانب الحضاري للدولة الزيانية ينظر ، مقال الجيلالي شقرون : "***تلمسان مركز إشعاع حضاري في المغرب الأوسط***" ، مجلة الفقه والقانون ، جامعة الجيلالي الياس ، سيدي بلعباس ، د.ت ، ص ص4- 6 .

هكذا انقضى القرن الخامس عشر كله في شقى الرحى ، وكما يقول المدني : " وكأن حالة من الجنون الجماعي قد أصابت القوم من بني حفص وبني مرين وبني زيان . وقد استقلت جهات من المغرب الإسلامي ، مكونة إقطاعيات وملوك طوائف لا حدود لها واضحة ، وذاق الشعب من جراء ذلك أهوالا كثيرة ، وبالرغم من أن المغرب كان عامرا بالرجال ، وفي كل جهاته يوجد علماء وأدباء لكنهم لم يتمكنوا من تحقيق مطمح توحيد المغرب من جديد والعودة إلى دولة الموحدين ... " [1] .

ومن خلال ما تقدم يمكن القول بأن المغرب الأوسط قد عاش حالة من الضعف والتدهور السياسي مدة طويلة من الزمن ، وهذا ما أثّر سلبًا على المنطقة فيما بعد ،حيث تم استغلال الفرصة من طرف الطامعين في البلاد من القوى الخارجية المتربصة كالاسبان وغيرهم.

ويمكن أيضا اعتبار هذه الحالة تمهيدا لظهور مشاكل أخرى أكثر تعقيدا ، وأكثر تأثيرا على البلاد ، والمتمثلة في الضعف الداخلي الذي شهدته المنطقة في أواخر القرن 15 وبداية القرن 16م.

[1]- المدني : **حرب الثلاثمائة سنة** ... ، المرجع السابق ، ص65 .

يعتبر الغزو الاسباني للمغرب الأوسط من أهم المراحل التاريخية التي عاشتها بلادنا في فترة العصور الحديثة ، و لم يكن هذا التوسع وليد الصدفة والحظ وإنما كان وليد مجموعة من الظروف والعوامل التي ساهمت في تعزيز هدف الإسبان الرامي إلى احتلال المغرب الإسلامي بصفة عامـــــــــــــــــــــــــــة والأوسط بصفة خاصة وسنحاول من خلال هذا الفصل أن نوضّح الظروف التي مرت بها المنطقة سواء على الصعيد المحلي أو الدولي والتي كان لها الأثر الكبير فيما بعد ،كما سنحاول إبراز العوامل أو الأهداف التي كان الإسبان يسعون لتحقيقها من وراء إقدامهم على هذه الخطوة الهامة من تاريخ البلدين ، وهذا من خلال :

المبحث الأول:

الظروف الدولية للتوسع الاسباني في المغرب الأوسط.

اجتمعت جملة من الظروف الدولية وساهمت في تطور أحداث المغرب الأوسط في القرنين التاسع والعاشر الهجريين / نهاية القرن الخامس عشر وبداية القرن السادس عشر الميلاديين ، ومنها : ظهور دولة إسبانيا الحديثة ومساهمتها في إسقاط آخر معاقل الإسلام في الأندلس وما ترتب عنها من نتائج سواءً على أهل المنطقة أو البلدان المجاورة لها أو التي كانت لها علاقة معها وقد كان المغرب الأوسط من بين تلك الدول.

أ– سقوط غرناطة وأثره على المغرب الأوسط.

عرف العالم الأوروبي أواخر القرن التاسع الهجري / الخامس عشر ميلادي تحولا جذريا نتيجة للنهضة التي تمخضت عنها الكشوفات الجغرافية ، وقد كان للاسبان والبرتغاليين دورًا هاما فيها [1] .

[1]- أرزقي شويتام : **دراسات ووثائق في تاريخ الجزائر العسكري والسياسي الفترة العثمانية (1519– 1830)** ،ط1 ، دار الكتاب العربي ، الجزائر ، 2010 ، ص 69 – 70 .

ولقد أدى زواج الملكين فردناند ملك أراغون وإيزابيلا ملكة قشتالة في 874 ه / 1469 م إلى توحيد المملكتين وظهور اسبانيا الموحدة بالرغم من الاختلافات في التوجهات السياسية بين مملكتي أراغون وقشتالة ، وكان لهذا الزواج تأثير كبير على عالم الكنيسة والعالم الإسلامي كذلك ،حيث قدّم الملكان وعدا بالقضاء على الإسلام والعروبة وصرفا همتهما في سبيل انجاز هذا الوعد [1] .

وساعدت الظروف السائدة آنذاك والمتمثلة في الصراع بين ملوك بني الأحمر[2] ، في أواخر عهدهم الملكين في تحقيق هدفهما ، فبينما كان حكام النصارى يجمعون قواهم كان حكم بني الأحمر يضعف شيئا فشيئا ، ومن أسباب سقوط غرناطة في يد الملكين إلى سلوك الأندلسيين أنفسهم ، حيث أنهم كانوا يملكون من الإمكانيات ما يتمكنون من خلاله من حماية ليس حدود المملكة فقط . وإنما البلاد بأكملها ، لكن الصراع بين الإخوة حول العرش هو الذي أدى إلى سقوط المملكة [3] .

وبالتالي فان احتلال الإسبان لغرناطة لم يكن وليد الصدفة والحظ وإنما كان نتيجة لتدهور أوضاع المملكة وانشغال ملوكها في تغطية مصالحهم الشخصية على حساب الطبقات الأخرى بالإضافة إلى انشغالهم في الصراع على العرش.

---

[1]- هما الملكان الكاثوليكيان فردناند الخامس (1452-1516) ، وإيزابيلا ملكة قشتالة التي وصلت إلى العرش بعد وفاة أبيها(1451-1504) وهما أول ملوك اسبانيا الحديثة ، وهما اللذان خططا لغزو شمال إفريقيا منذ أن وصلا إلى العرش الاسباني ، واحتلال غرناطة في عام 1492م فتح لهما المجال لذلك ... ينظر: صالح حيمر : " **التحالف الأوروبي ضد الجزائر عام 1541 وتأثيراته الإقليمية والدولية**" ، مذكرة ماجستير في التاريخ الحديث والمعاصر ، جامعة الحاج لخضر ، باتنة ،2007 ، ص27 .

[2]- سمو كذلك لأنهم من حمير من قبيلة الخزرج الشهيرة ، خرجت من اليمن عند انفجار سد مأرب ، واستوطنت يثرب مدينة النبي صلى الله عليه وسلم فيما بعد ... ، ينظر عبد الحميد بن أبي زيان شنهو : ***" أبو عبد الله آخر ملوك غرناطة دفين تلمسان أم فاس؟ "*** ، الأصالة ، ع 26 ، الجزائر ، 1975 ، ص272.

[3]- أحمد توفيق المدني : ***" انهيار الأندلس وموقف دول الإسلام واسطنبول من ذلك"*** ، الأصالة ، ع27 ، الجزائر ، 1975 ، ص179 .

واستمرت المملكة في الانهيار والتدهور إلى أن وصل أبو عبد الله محمد آخر ملوك غرناطة والذي اختلفت الروايات حول وفاته بين فاس وتلمسان ، لكن المؤرخ بن شنهو فصل في القضية عن طريق استناده على مجموعة من الأدلة ونشرها في الأصالة وسنشير إلى ذلك في العنصر الموالي ، وقد قال نفس المؤرخ عن هذا الملك بأن أيامه الأخيرة كانت مليئة بالغدر مما جعله ألعوبة بين أيدي النصارى هذا إن لم يكن له دور في القضاء على مملكة غرناطة [1].

وبعد أن اطلع الملكان إيزابيلا وفردناند على الأوضاع التي عاشتها البلاد في فترتها الأخيرة هاجم فردناند أطراف مملكة غرناطة الشرقية منذ ربيع الأول من سنة893 ه/ 1488م ، وقد سقطت مالقة لمنع الثغور الأندلسية ، ونتيجة لبعد الثغور الشرقية عن مركز المملكة فقد كان من السهل على النصارى الاستيلاء عليها ، ثم سقطت مدينة ألمرية في عام 895ه / 1490م وبذلك فرض الملكان حصارا على غرناطة دام سبعة أشهر بعد أن دام الصراع عشر سنوات قبل أن تستسلم هذه الأخيرة نهائيا في سنة 808ه / 1492م [2] .

واحتفل الملكان بدخولهما إلى غرناطة وكان احتفالا كبيرا حيث قاما بتحويل مسجدها إلى كنيسة وحضر الاحتفال أمراء وكبار ساسة الاسبان [3] ، وبسقوط غرناطة في يدي الملكين سقط آخر معقل وحصن إسلامي في شبه الجزيرة الأندلسية . ويقول عبد الله علي الحجي ما يلي : "كان الاستيلاء على مدينة غرناطة آخر ما بقي من بلاد الأندلس للإسلام في محرم عام 897ه " .

وفي 25 نوفمبر 897ه / 1491م ، تم توقيع وثيقة استسلام غرناطة . وذلك بعد الاتفاق على مجموعة من الشروط التي كانت بمثابة وعود قدمها الملكان الكاثوليكيان فردناند وإيزابيلا إلى

1- ابن شنهو : المرجع السابق ، ص ص 271- 274 .

2- محمد عبد الله عنان : **نهاية الأندلس وتاريخ العرب المتنصرين** ، ط3 ، م ل ت ، مصر ، 1966 ، ص ص223-228 .

3- شكيب أرسلان : **خلاصة تاريخ الأندلس** ، دار مكتبة الحياة ، لبنان ، دت ، ص286 .

آخر ملوك بني الأحمر [1] . وتم توقيع وثيقة الاستسلام بين الملكين السابقين والملك أبو عبد الله ، ويذكر المؤرخ إيرفنغ بأن ببدول [2] هو الذي سلم مفاتيح المدينة بنفحة من الحزن والأسى وقال لفردناند: " هذه المفاتيح هي آخر ما لدى العرب في إمبراطوريتهم الاسبانية ، هي لكم أيها الملك وبها ملكنا وشخصنا وتلك إرادة الله فخذها برأفتك المعهودة والتي نرجوها من يديك العظيمتين " ، فرد له فردناند التعظيم بنوع من الاستعلاء قائلا : " ... إياك أن تشك بوعودنا ولا ما ستناله من صداقتنا من ازدهار حرمتك أيام الحرب " [3].

وقد تناولت معاهدة الاستسلام كما ذكرنا مجموعة من الشروط التي تحدث عنها المؤرخون ، وقد فصّل فيها الزياني في كتابه دليل الحيران وذكر خمسا وثلاثين شرطا بينما تضمنت المعاهدة كما قال معظم المؤرخين سبعة وستين شرطا [4] ، ومنها : تأمين البلاد والأولاد والنساء والصبيان والحفاظ على الدين وإقامة الشريعة وعدم قهر المسلمين ... [5] .

1 – محنة المسلمين بعد توقيع المعاهدة:

لم تمض أعوام قليلة على توقيع معاهدة استسلام غرناطة حتى ظهرت نية الاسبان في نقض الوعود التي قدموها وتحولت هذه الأخيرة إلى مجرد حبر على ورق ، بحيث بدأ الغزاة بتحويل المساجد إلى كنائس عن طريق استعمال العنف ضد المسلمين [6] .

---

[1]- عبد الرحمان علي الحجي : **التاريخ الأندلسي من الفتح الإسلامي حتى سقوط غرناطة 92ه–897ه (711م–1492م)** ، دار القلم ، لبنان ، 1976 م ، ص552 .

[2]- هو أبو الحسن سعد والد أبو عبد الله آخر ملوك بني الأحمر كان الاسبان يسمونه Mulahacen بمعنى مولاي حسن المدعو عند الفرنج بو أبديل Boabdil وكان معروفا باللّهو وملاطفة الجواري ... ، ينظر : بن شنهو : المرجع السابق ، ص 272 .

[3]- واشنطن ايرفنغ : **أخبار سقوط غرناطة** ، تر : هاني يحي نصري ، م إ ع ، الجزائر ، 2000 ، ص 406 .

[4]- الزياني : المصدر السابق ، ص 139 . و المزاري : المصدر السابق ، ص 205 . و عنان : المرجع السابق ، ص251-252 . حيث فصل هذا الأخير في الشروط المطروحة في هذه المعاهدة ...

[5]- مجهول : **نبذة العصر في أخبار ملوك بني نصر (تسليم غرناطة ونزوح الأندلسيين إلى المغرب)** ، تح : الفريد البستاني ، م ث د ، مصر ، 2002 ، ص 41 .

[6]- واشنطن ايرفنغ : **سقوط غرناطة آخر الممالك الإسلامية بالاندلس** ، تر : اسماعيل العربي ، م و ك ، الجزائر ، 1988 ، ص 46 .

وقد أبدى الملكان سوء نيتهما في عدم الالتزام بما تم توقيعه في المعاهدة من خلال إقدامهما على اختيار أحسن البيوت في حي القصبة مباشرة بعد دخولهما إلى غرناطة ، وتحويله إلى مقر للجيش الاسباني ، ولكن المسلمين لم يبدو أي رد فعل لكونهم كانوا يدركون سوء نيتهما وعدم رغبتهما في تنفيذ ما ورد في معاهدة التسليم [1] .

وهكذا سلمت المدينة إلى حكم الرهبان وقد كان الكاردينال خمينيس[2] أحدهم فهو الذي عمل على إقناع الملكين بنقض العهود المقدمة لسكان غرناطة ، وأعلنا انه يجب على المسلمين في غرناطة إما اعتناق المسيحية أو مغادرة البلاد كما أصدرا قانونا ينصّ على أن النساء اللواتي يتحولن من الإسلام إلى المسيحية سيتحصلن على ارض في منطقة البشرات في الأندلس ، إلى أن تحول العديد من الغرناطيين إلى النصرانية من جراء هذه الأعمال ، وبعد أن علم فقهاء وعلماء غرناطة بذلك بدؤوا في شن حملات توعية في أواسط المجتمعات وهذا ما جعله يغيّر من أسلوبه في التعامل مع المسلمين في غرناطة [3] .

2 – رد فعل المسلمين في غرناطة من هذه الأعمال :

لما فحش أمر القمع والاضطهاد ضد المسلمين ثار أهل البيازين في غرناطة على الحكام الظالمين مما جعلهم يصدرون قرارات تنص على أن من خرج من المسلمين عن الحكم لا مخرج له من الموت إلا أن يتنصر ، ولذلك مات كثير من المسلمين اللذين رفضوا التنصير [4] .

وكان حي البيازين هو الحي الذي كثرت فيه عمليات التنصير بعد القساوة التي عامل بها الاحتلال الاسباني الثوار من هذا الحي ، وقد تمكن هؤلاء من قمع ثورتهم في عام 905ه /

1- أسعد حومد : **محنة العرب في الأندلس** ، م و د ن ، لبنان ، 1980، ص 150-151 .

2- تم تعين الكاردينال خمينيس في 905ه / 1499م للاهتمام بأمر المسلمين في غرناطة وما إن تم تعينه حتى بدا في تحديد الأوامر بمنع الزواج بين المسلمين والمسيحيين . وقد كان معروفا ببربريته وهمجيته وتعرض له الكثير من المؤرخين بالنقد منهم من العرب والأجانب كذلك... للمزيد ، ينظر: عنان : المرجع السابق ، ص118 .

3- حومد : المرجع السابق ، ص 156 .

4- الحجّي : المرجع السابق ، ص 572- 573 .

1499م [1] . وبدأت محاكم التفتيش [2] في محاكمة المسلمين باسم الإله القدوس ، ولذلك فقد غادر الكثير منهم أوطانهم إلى مناطق أخرى [3] .

وبالإضافة إلى تلك الثورة ، قاد المسلمون ثورة أخرى في البشرات ضد حملات التنصير المفروضة عليهم ، لكنها قمعت من طرف الاحتلال بعد أن عثرت القوات الاسبانية على مستودع من الأسلحة في هذا الحي ، فاتخذت ذلك ذريعة للبطش والإرهاب واستعملت ما تستطيع من أساليب العنف والقمع والإعدام...[4] . لكن هذا لم يثني من عزيمة المسلمين الذين قاموا بمجموعة من الثورات الأخرى في ألمرية في عام 906ه / 1500م ، واستشهد فيها الكثير من المسلمين والأطفال. وكذلك ثورة عام 907ه / 1501م التي انفجرت في قرية المنصورة ، وأخرى في ألمرية على البحر لكنها أخمدت بالقوة ، حتى أن الملكة إيزابيلا ذهبت بنفسها إلى غرناطة في عام 906ه / 1500م ، للإشراف على عمليات التنصير . وقد وضعت قوانين تنص على تنصير المسلمين ومنعهم من لبس الألبسة الإسلامية وتغيير الأسماء...[5] . وفي شباط 908ه / 1502م أصدرت الملكة مرسومها المشهور الذي خيّر المسلمين بين التنصر أو الرحيل . ولذلك اضطر بعض المسلمين إلى إظهار نصرانيتهم بعد أن تأكّدوا من أن الاحتلال لا يرحم ، وقد عرفت هذه الفئة في المصادر باسم المورسكيين (les morisques) [6] ، الذين لجؤوا إلى مبدأ التقيّة للحفاظ على أنفسهم

---

[1]- محمد الطمار : **تلمسان عبر العصور ودورها في سياسة وحضارة الجزائر** ، د م ج ، الجزائر ، 2007 ، ص219 .

[2]- تأسست محاكم التفتيش في القرن 13م ، لمراقبة الأفكار المخالفة لتعاليم الكنيسة وطبقت في ايطاليا أولا ثم فرنسا وألمانيا ، قبل أن تنتقل إلى اسبانيا حيث تحولت إلى أداة قهر اضطهاد للمسلمين بعد سقوط غرناطة. ينظر دراج : المرجع السابق ، ص46 .

[3]- ابن شنهو : المرجع السابق ، ص 278 .

[4]- حومد : المرجع السابق ، ص154 ، ص ص 157- 173 .

[5]- دراج : المرجع السابق ، ص ص43-44 .

[6]- أو العرب الأصاغر ، وهو لقب أطلقه الاسبان على الأندلسيين المغلوبين على أمرهم بعد سقوط حاضرتهم ، وقد عمم الاسبان المتعصبين هذا اللقب على جميع الأندلسيين حتى المدجنين القدامى ، حتى أن أبو عبد الله آخر ملوك بني نصر لقب بالملك الصغير (el Rey Chico) . ينظر : محمد حجي : " ***المورسكيون والجهاد البحري في المغرب الكبير*** " ، سلسلة الندوات ، الندوة الثالثة ، م د م ج ، المملكة المغربية ، 2001 ، ص59 .

ودينهم بعد أن استشاروا بعض علماء المغرب الذين أجازوا لهم ذلك ، ومنهم أحمد بن محمد بوجمعة المغراوي في وهران [1] .كما عمل الملك فردناند على إصدار قانون ينص على تحريم استخدام اللغة العربية من طرف الأندلسيين ، ويحرّم ارتداء الملابس التقليدية وممارسة أية عادات أو طقوس إسلامية أو عربية ، وكان ذلك عام 914ه/ 1508م ، وفرض قانون 921 ه/ 1515م الذي ينص على تحريم أي تقدم نحو أراضي غرناطة ، وتحريم بيع الممتلكات لأيّ شخص دون ترخيص بالنسبة للمتنصرين حديثا بعد أن تبين بأن كثيرًا من المتنصرين كانوا يبيعون أملاكهم ، ويتحصلون على أثمانها ثم يعبرون إلى المغرب وهناك يعودون إلى الإسلام [2] . وبعد وفاة الملك فردناند في23 جانفي 922 ه/ 1516م خلفه حفيده شارلكان [3] .

وقد رفع له المسلمون تقاريرهم عن العنف الذي كان يمارس ضدهم من الكاردينال وحاولوا أن يلتمسوا عدله وحمايته ، ولكنه أصدر قرارا ملكيا في عام 933ه / 1526م ، ينص على إرغام سائر المسلمين الذين تنصروا إكراها على البقاء في اسبانيا وتنصير أولادهم وإذا ارتدّوا يقضي عليهم [4] . وبذلك ظل المسلمون في جميع الأحوال موضع القطيعة والريب وعرضة للإرهاق والمطاردة ، وبقيت محاكم التفتيش تجد فيهم دائما ميدان نشاطها المفضل [5] .

ثم تأتي مرحلة حكم الملك الاسباني فليب الأول ، الذي استمر في دعم حركات التنصير إلى غاية نهاية حكمه في عام 1007ه/ 1598م . ونتيجة لقراراته التعسفية في حق الموريسكيين عمل هؤلاء على شن ثورة كبرى في عهده عام 973ه / 1568م .وتعتبر أكبر ثورة قادها مسلمي

---

[1]- هو مفتي مدينة وهران وعالمها ، كان متضلعا في علوم اللغة وآدابها والحساب والرياضيات والفلك ، وتوفي سنة 910ه / 1504م . ينظر : دراج : المرجع السابق ، ص47.

[2]- عبد الواحد الذنون وخليل إبراهيم السامرائي : **تاريخ المغرب العربي** ، دار المدار الإسلامي ، لبنان ، 2004 ، ص ص413 – 414 .

[3]- هو حفيد الملك فردناند يعرف بكارلوس الخامس . وقد كان هذا الملك يتعامل باللّين والتسامح نحو المسلمين لكن سياسته لم تدم طويلا ، وأصدر قوانين ضد المسلمين فيما بعد . ينظر : نفس المرجع ، ص351.

[4]- محمد زروق : **الاندلسيون وهجراتهم إلى المغرب خلال القرنين16–17م** ، الدار البيضاء ، المغرب ،1987، ص79 .

[5]- عنان : المرجع السابق ، ص ص 355- 356 .

الأندلس ضد الاسبان ، حيث عبروا فيها عن سخطهم وغضبهم ومعارضتهم للحالة التي عاشوها جرّاء الجرائم المرتكبة في حقهم ، وقد جرت أحداث هذه الثورة في جبال البشرات [1] .

واستمر أمر التعسف في فترة حكم الملك الاسباني فليب الثاني 1007- 1025ه / 1598- 1616م ، حيث ازدادت حملات التنصير والإجرام ، خاصة بعد إصدار مرسوم 1018ه،22 أفريل1609م ، الذي يتضمن النفي النهائي للمورسكين [2] .

هذه كانت حالة المسلمين في الأندلس بعد سقوط مملكة غرناطة ، حيث لقي هؤلاء من وحشية الاستعباد ألوانا كثيرة من العذاب لم يشهد التاريخ مثلها إلا أيام جنكيز خان وهولاكو كما قال المدني [3] . وقد أورد لنا قنان قصيدة عن أحوال المسلمين في الأندلس بعد سقوط غرناطة ،كتبها أهل الأندلس إلى السلطان العثماني سليم لطلب العون . وقد تبين لنا من خلالها بعض أحوال المملكة منها : استعباد الناس ، ظلم النساء ، حيث كشفت وجوههن بعدما كانت مستورة وقدن إلى ارتكاب الحرام غصبا ، كما تتحدث القصيدة عن محاولات التنصير وتبديل الأسماء ... [4] .

3 – موقف الجزائر من هذه الأحداث:

لم تكن الأحداث التي تجري في بلاد الأندلس بعيدة عن أنظار سلاطين بني زيان ، لأن الأندلسيين استنجدوا بهم في العديد من المرات ، وعلى سبيل المثال استنجاد آخر ملوك غرناطة المعروف بأبي عبد الله بالسلطان الزياني أبو حمو الثالث [5] ، بقصيدة مطلعها :

1- حومد : المرجع السابق ، ص179. و زرّوق : المرجع السابق ، ص92 . و أرسلان : المرجع السابق ، ص 298 .

2- الذنون : المرجع السابق ، ص417 .

3- المدني : **حرب الثلاثمائة سنة** ... ، المرجع السابق ، ص 52 .

4- ينظر نص القصيدة في : جمال قنان : **نصوص ووثائق في تاريخ الجزائر الحديث (1500 –1830م)** ، دار هومة ، الجزائر ، 1987 ، ص ص44-46 .

5- هو أبو حمو موسى الزياني تولى الحكم في مطلع القرن 10ه/ 16م سنة 909ه/ 1503م ، ويلقب بوقلمون وفي عهده بدأت الهجمات البرتغالية الاسبانية على وهران بصفة مكثفة . ينظر : بوعزيز : **وهران** ... ، المرجع السابق ، ص60.

هل من مجيب دعوة المستنجد أم هل من مجير للغريب المفرد

فأجاب هذا الأخير النداء بإرسال العديد من الذهب والفضة والخيل والطعام ، وهذا ما جعل سكان غرناطة يصمدون مدة أطول أمام العدو ، بالإضافة إلى أن مسلمي الأندلس كانوا يشكلون جماعات في الجبال هدفها مواجهة الاسبان ، وكان ذلك بالتعاون مع الجزائريين الناشطين في البحر المتوسط الذين قدموا لهم المساعدة عن طريق الأسلحة [1] .

كما تابع المورسكيون انتصارات الدولة العثمانية خاصة بالجزائر التي أصبحت حصنا منيعا يلتجئ إليه المهاجرون الأندلسيون . وقد عروج وخير الدين[2] يشجعان حركة إنقاذ مسلمي الأندلس ، ولذلك قام هذا الأخير بعدة هجومات على شرق اسبانيا ، وجمع في سفنه العديد من المهاجرين ، ومن أهم غاراته تلك التي وقعت عام 1529م ، حيث استطاع أن يجمع معه ست مائة مورسكي راغب في الهجرة . وخلال أربع سنوات تمكن خير الدين من إنقاذ سبعين ألف موريسكي ونقلهم إلى السواحل المغربية [3] . وقد ظهر موقف الجزائرين في دعمهم للثورات التي قادها السكان في البشرات ، كما وقفوا معهم في الثورة الكبرى التي قاموا بها ، وذلك في فترة علج علي [4] حاكم الجزائر الذي أرسل ست سفن محملة بالمدافع والذخيرة إلى ألمرية في عام

---

[1]- حومد : المرجع السابق ، ص145 .

[2]- أصل هذين الرجلين من جزيرة ميدلي ، وقد عمل عروج في التجارة في بداية الأمر ثم تحول إلى الغزو البحري ، وقد كان يعمل مع أخيه خير الدين في خدمة السلطان بايزيد قبل أن ينتقل إلى الحوض الغربي للبحر المتوسط ... للمزيد حول حياة الأخوين ينظر المدني : **حرب الثلاثمائة سنة ...** ، المرجع السابق ، ص ص 159 -161 .

[3]- زروق : المرجع السابق ، ص85 .

[4]- يعتبر علج علي من رياس البحر الذين كان لهم شأن كبير في تقوية الأسطول الجزائري وتطويره . هذا الأخير الذي وضع خير الدين نواته الأولى ، وقد ارتبط اسم علج علي منذ بداية حكمه للجزائر بالثورة التي قامت في الأندلس ...ينظر شويتام : **دراسات** ...، المرجع السابق ، ص 74 و محمد سي يوسف : **أمير أمراء الجزائر علج علي باشا** ، دار الأمل ، الجزائر ، 2009 ، ص124 .

979ه/ 1569م . كما نجح في تقديم أربعة آلاف بندقية وبعض الذّخائر والجنود المسلحين والثوار المسلمين في نفس العام لدعم ثورات الأندلسيين [1].

وبالتالي ، فيمكن القول أن لسقوط غرناطة في 02 جانفي 898ه / 1492م ، آثار بالغة الأهمية ليس على مستقبل الوجود الإسلامي في الأندلس فقط ، وإنما على مستقبل دول شمال إفريقيا بصفة عامة والمغرب الأوسط بصفة خاصة . فإذا كان سقوط غرناطة بداية لتاريخ اسبانيا الحديث فإنه بداية لتاريخ الجزائر الحديث ، وذلك بالنظر إلى النتائج التي خلفها هذا الحدث [2] .

ب – الهجرة الأندلسية إلى المغرب الأوسط :

1 – مراحل الهجرة الأندلسية إلى المغرب الأوسط:

يعد موضوع الجالية الأندلسية في المغرب الأوسط من المواضيع المهمة في الدراسات المغربية الحديثة عبر مراحلها المختلفة . وكان الاهتمام أكثر بما أصبح يعرف بالمورسكين حتى بات موضوع دراستهم تخصصا في حد ذاته ، ونشرت حوله الكثير من الأبحاث والدراسات .

انبثقت الهجرات الأندلسية عن الجهاد البحري الكبير في المغرب ، وهي الهجرات التي تمت خلال النصف الثاني من القرن التاسع والعاشر والحادي عشر الهجري / الخامس عشر والسادس عشر والسابع عشر ميلادي . وقد بدأت الهجرات الأندلسية قبل سقوط غرناطة بنحو عشرين سنة ،حيث تمثل للأندلسيين سوء المصير بعد أن بدأت الخلافات الأهلية وسقوط الثغور المحيطة بها كمالقة ، وألمرية وأحكم الحصار على الحاضرة... [3] .

1- عبد القادر فكاير : **الغزو الاسباني للسواحل الجزائرية وآثاره (910- 1206ه / 1505- 1792 م)** ، دار هومة ، الجزائر ، 2012، ص 156-157. و المدني :" *الهيار الأندلس...*" ، المرجع السابق ، ص187 .

2- دراج : المرجع السابق ، ص61.

3- رفيق خليفي :" ***تطور استقرار الجالية الأندلسية بالمغرب الأوسط(ق16م-10ه)*** " ، مغرب أوسطيات دراسات في تاريخ وحضارة الجزائر في العصر الإسلامي الوسيط ، م م إ ، جامعة عباس لعزور ، خنشلة ، 2013 ، ص 71 – 72 .

فبعد سقوط مدينة مالقة على يد النصارى في 892ه / 1487م ، غادر أهلها متفرقين في أنحاء الأندلس وبعضهم الآخر جازوا إلى عدوة المغرب [1] ،كما هاجر العديد منهم إلى المنطقة بعد سقوط غرناطة بالرغم من الاضطرابات التي كان المغرب الإسلامي يعاني منها في تلك الفترة كما سبق الذكر [2] . وكانت بداية الهجرة أواسط القرن التاسع للهجرة / الخامس عشر ميلادي ، بسبب الاعتداء الاسباني على المسلمين هناك ، وقد لجأ الكثير منهم إلى المغرب الأوسط الذي أصبح في ذلك الوقت حصنا منيعا يدافع عن مراكبهم وسواحلهم [3] .

وبعد أن اشتد الصراع بين فردناند وأبي عبد الله ملك غرناطة ، أبرم بينهما صلح مفاده أن يتخلى الأخير عن بلاده إذا لم يقدم له الدعم من الجهات الأخرى في مدة زمنية معينة ، وقد انقضت تلك المدة و لم يصله العون ، لذلك خرج من قصر الحمراء في 897ه / 1492م متوجها إلى البشرات ومنها توجه إلى مليلة ثم فاس واستقر بها إلى أن وافته المنية فيها . وبالتالي يعتبر أبو عبد الله أول من بدأ الهجرة مع أسرته وحاشيته التي قدرت بألف ومائة وثلاثين شخصا ،كما هاجرت معه بعض الأسر الأندلسية المشهورة وعدد من الوزراء والقادة [4] .

أما عمه المعروف بالزّغل الذي بويع بالإمارة عندما أخذ فردناند أمر غرناطة ، وعرف بجهاده ضد الاستعمار إلى أن غادر بلاده مطرودا إلى المغرب الأوسط مع أسرته ، فذهب إلى وهران ومنها إلى تلمسان واستقر بها وبها نسله إلى الآن يعرفون ببني سلطان الأندلس [5] .

1- العدوة بضم العين ، المكان المتباعد ، ويطلق العرب لفظ العدوة على الأندلس وشمال إفريقيا وبعدها على بلادهم إلى المغرب الأقصى والأدنى والأوسط . ينظر : مجهول : **نبذة العصر** ... ، المصدر السابق ، ص48 .

2- بن حلوش مختار : **مدينة مزغران حديث عبرالأزمان** ، دار الغرب ، الجزائر ، 2009 ، ص 37 .

3- نور الدين عبد القادر : **صفحات من تاريخ مدينة الجزائر من أقدم عصورها إلى انتهاء العهد التركي** ، دار الحضارة ، الجزائر ، د ت ، ص 61 .

4- الزياني : المصدر السابق ، ص141.

5- أحمد بن محمد بن علي بن سحنون الراشدي : **الثغر الجماني في ابتسام الثغر الوهراني** ، تح : المهدي البوعبدلي ، مطبعة البعث ، الجزائر ، 1973 ، ص13 .

وقد استقبله الملك الزياني لأبو ثابت الثالث بما يليق بمقام الملوك ودفن بالمقبرة الموازية للمسجد الجامع . وعثر العالم الفرنسي بروسلارد الذي كان واليا على عمالة وهران على رجمه [1] ، وعرض بحثا له عام 1876م يصرح فيه أن آخر سلاطين غرناطة توفي في تلمسان وليس في فاس كما يقول معظم المؤرخين ، وقال أنه وجد قبره بنفسه ، ولكن فيما بعد أثبت أن القبر ليس للملك الغرناطي وإنما لعمه المعروف بالزّغل وذلك بعد مدة طويلة من الأبحاث . والخطأ الذي وقع فيه هذا الباحث كان بسبب نفس الكنية التي يحملها الملكان ، وهي أبو عبد الله ، واسم الوالد كان مفقودا في اللوحة الرخامية ... [2] .

لكن الهجرة إلى المغرب الأوسط تراجعت ، خاصة في نهاية القرن الخامس عشر وبداية القرن السادس عشر ميلادي بسبب الظروف التي عاشتها المنطقة ، وسنفصل فيها في المبحث الموالي . وكان تمركز غالبية الجالية الأندلسية المهاجرة في المدن الساحلية ، منها وهران وتنس وبجاية وغيرها ، وهذا إذا ما قورنت بعدد الهجرات إلى المنطقة في العصور الوسطى [3] .

2 – أماكن تواجد الأندلسيين في المغرب الأوسط :

تعتبر تلمسان من الحواضر التي تواجد فيها الأندلسيون بكثرة وذلك لصلتها الوثيقة بالأندلس منذ القدم ، وكذا لكونها عاصمة المغرب الأوسط . وقد حملوا إليها علومهم وآدابهم وفنونهم ،كما نظّموا فيها حلقات تعليم بالمدارس والمساجد ، خاصة المسجد الجامع . وقد ذكر لنا صاحب نبذة العصر بعض الهجرات الأندلسية إلى المغرب الأوسط ، وكانت تلمسان من بين المدن التي هاجر إليها مسلمو الأندلس خاصة من مدينة ألمرية [4] .

1- الطمار : المرجع السابق ، ص221 . و بوعزيز :" *المراحل والأدوار ...*" ، المرجع السابق ، ص24 .

2- لمعرفة كيفية اكتشاف خطأ بروسلار ، ينظر : المقال الذي نشره بن شنهو : المرجع السابق ، ص ص271 – 283 .

3- للتفصيل في الهجرة الأندلسية إلى المغرب الأوسط في العصور الوسطى ، ينظر : خليفي : المرجع السابق ، ص ص 88 – 94 .

4- مجهول : **نبذة العصر** ... ، المصدر السابق ، ص48 .

كما أكد المقري أن تلمسان ووهران كانتا من أهم المدن التي هاجر إليها الأندلسيون من خلال قوله : "... فخرجت ألوف بفاس ، وألوف بتلمسان ووهران ... " [1] . وبعد أن لجأ الأندلسيون إلى تلمسان عام 888ه / 1483م ساعدهم ملكها الزياني أبو ثابت الثاني المتوكل على بناء بلدة المرسى الكبير القريبة من وهران . والتي سكنها الأندلسيون ومعهم عرب تلك الناحية ، وبذلك أصبحت البلدة من أهم مراكز الدفاع ضد السفن المسيحية التابعة للأعداء [2] . وكان الأندلسيون يختارون الاستقرار في هذه المدن لما توفره من فرص الاحتكاك بالعلماء وأعيان ووجوه الدولة . وقد شهدت وهران وتلمسان حراكا ثقافيا كبيرا بفضل تواجد هذه الجالية [3] ،كما انتقل البعض منهم إلى مستغانم بعد أن هجرها سكانها بسب تدهور سلطة ملوك تلمسان ، فعملوا على تحويل مينائها الصغير الذي كان يستقبل السفن التجارية الايطالية إلى ميناء حربي ترابط فيه سفن يركبها الأندلسيون للإغارة على الاسبان...[4] . ومن العلماء الأندلسيين الذين رحلوا إلى تلمسان ، القاضي الشهير أبو عبد الله بن الأزرق [5] .

ورسم لنا خليفي جدولا يوضح فيه المدن الأندلسية التي كان يفر منها المهاجرون إلى المغرب الأوسط وأكثرها من : قرطبة ، وألمرية ، وبلنسية ، وغرناطة ، ومالقة ... والملاحظ من خلال الجدول أن الهجرة تراجعت في بداية القرن السادس عشر ميلادي بصفة كبيرة مقارنة بالأعوام الماضية وهذا راجع إلى ظروف المنطقة في تلك الفترة [6] .

1- أحمد بن محمد المقري التلمساني : **نفح الطيب في غصن الأندلس الرطيب** ، تح : إحسان عباس ، مج4 ، دار صادر ، بيروت ، 1988 ، ص528 .

2- حجي : المرجع السابق ، ص 62 – 63 .

3- خليفي : المرجع السابق ، ص 95 .

4- دراج : المرجع السابق ، ص 62 .

5- كان زاهدا مال إلى التدريس والخطابة في الجامع الأعظم.,, للمزيد ينظر: رابح بونار:" ***عبد الحق الاشبيلي البجائي محدث القرن السادس الهجري*** " ، الأصالة ،ع19 ، مطبعة البعث ، الجزائر ، 1974 ، ص ص 262- 271 .

6- ينظر نص الجدول في : خليفي : المرجع السابق ، ص ص 81- 83 .

وقد وصف بعض المؤرخين حالة المهاجرين الأندلسيين في المغرب الأوسط ، واتفقوا على أنهم تعرضوا للظلم من طرف الأعراب المتواجدين في البلاد وذلك راجع إلى الظروف القاسية التي مرت بها المنطقة كما سبق الذكر، حيث أن وهران لم تتمكن من استقبال العدد الهائل من المهاجرين فتوجهوا إلى تلمسان حيث تعرضوا إلى النهب ، واتجهت جماعة منهم إلى مستغانم لكن مصيرهم كان كمصير الجماعة الأولى . ويقول المقري في وصفه للحادث : " فتساقط عليهم الأعراب ومن لا يخشى الله في الطرقات ونهبوا أموالهم..." [1] ، لكن علماء المغرب الأوسط وفقهاءه غضبوا من الوضع ، ودعوا إلى معاقبة هؤلاء الأعراب ونصرة المورسكيين . وبسبب ما عانى منه هؤلاء توجه عدد منهم إلى تونس والآخر إلى المغرب الأقصى ، ولكن الهجرة تضاعفت مرة أخرى إلى الجزائر بسبب سقوط عدد كبير من ثغور الأندلس ، وتشجيع بعض ملوك بني زيان ، بالإضافة إلى ظهور الأخوين عروج وخير الدين على الساحة واللذان بذلا جهودا كبيرة في سبيل إنقاذ مسلمي الأندلس [2] .

استمرت الهجرة الأندلسية إلى المغرب الأوسط بعدها ، ففي عام978 ه / 1570م ، أي بعد إصدار قرار نفي المسلمين من الأندلس ، تم تهجير أكثر من مائة وخمسين ألف شخص رحل أغلبهم إلى شمال إفريقيا ، واستقبلت مدينة وهران الكثير منهم ، ثم تواصلت حملات الهجرة إلى الجزائر أيام حكم فليب الثاني ، الذي أصدر بدوره قوانين لنفي الأندلسيين من بلادهم [3] . وقد تعرض المهاجرون إلى الاضطهاد مرة أخرى من طرف الأعراب والأتراك المتواجدين في المنطقة . وأمام هذا الوضع ،كتب بعضهم رسالة إلى السلطان العثماني يشكون فيها حالهم والظلم الذي يتعرضون له في الجزائر من أهل البلاد وحكامها . ولم نتمكن من الحصول على نص الرسالة ،

1- المقري : المصدر السابق ، ص528 .

2- لمعرفة جهود الدولة العثمانية في إنقاذ مسلمي الأندلس ينظر : عبد الجليل التميمي: "*الدولة العثمانية وقضية الموريسكين*" ، المجلة التاريخية المغربية ، ع 23 -24 ، تونس ، 1981، ص ص 188- 217 .

3- عبد القادر : المرجع السابق ، ص268 .

ولكن تمكنا من الحصول على وثيقة من الأرشيف الوطني بالجزائر أرسلها السلطان العثماني إلى حاكم الجزائر عام 1018ه / 1609م ، يأمره فيها بالنظر في أحوال الأندلسيين وبقية الأعراب ، وإعطائهم وظائف عمل لكل من يستحق ذلك سواء من الأعراب أو المهاجرين دون تميزهم عن الآخرين [1] .

وبالرغم من هذا ، إلا أن بعض الأندلسيين لعبوا دورا بارزا أثناء إدارة خير الدين لولاية الجزائر ، ولكن المعلومات حول هذا الموضوع لا تزال غير متوفرة . والشيء الذي جعل المؤرخين يقولون بهذا هو أن خير الدين كان يدرك جيدا قوة الاسبان أثناء صراعه معهم ، ومن المرجح أن المهاجرين هم الذين كانوا يقدمون له المعلومات بحكم صراعهم الطويل مع الاسبان .كما كان المهاجرون الأندلسيون من بين الفئات التي شاركت في الحرب ضد النصارى في الجزائر ، وفي الثورات التي قادها عروج عام 922ه / 1516م كما سيأتي [2] . وبالتالي فقد عمل الأندلسيون على تثبيت الوجود العثماني في المنطقة ومواجهة الاسبان ،كما أنهم ساهموا في قمع حركات التمرد التي كان يقودها المحليون ضد الأتراك ، وعملوا على إنعاش الاقتصاد في البلاد بفضل خبرتهم في المجال [3] .

واستنادا إلى ما تقدم ، يمكن القول بأن سقوط غرناطة وأثره على بلاد المغرب الأوسط من المواضيع المهمة في تاريخ بلادنا ، والذي يمكن أن يكون لوحده بحثا مستقلا . وقد حاولنا من خلال هذا المبحث أن نبرز الوضع الذي عاشه مسلمو الأندلس بعد سقوط غرناطة ، مما دفعهم إلى الهجرة والتوجه إلى بلدان أخرى كانت بلادنا من أهمها . ولقد كان لهذا آثار بالغة على مستقبل

1- ينظر نص الرسالة في : مهمة دفتري رقم 23 ، حكم رقم 244 ، الأرشيف الوطني ، بئر خادم ، صحيفة 121 .

2- التميمي :" *الدولة العثمانية ...*" ، المرجع السابق ، ص 194.

3- للاطلاع على دور الأندلسيين في مواجهة الاسبان مع الجزائريين . ينظر : المقال الذي نشرته بحريي آمنة :" ***الموروث الأندلسي في شرشال***" ، مجلة الدراسات التاريخية ، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية ، الجزائر ،2013 ، ص ص179-212 .

الاسبان ، الذين اتخذوا من قضية الهجرة ذريعة لضرب المسلمين في المغرب ، كما سيأتي في الفصول اللاّحقة .

المبحث الثاني:

الظروف المحلية التي جاء فيها التوسع.

بعد أن تطرقنا في بداية هذا العمل إلى أوضاع المغرب الأوسط بعد سقوط دولة الموحدين ، لاحظنا أن الأوضاع كانت متدهورة ، بسبب التدخلات الخارجية سواءً من طرف المرينيين أو الحفصيين ، وهذه الأوضاع استمرت في التدهور إلى غاية النصف الأول من القرن العاشر الهجري / السادس عشر ميلادي ، ولكن السبب لم يكن خارجيا وإنما كان صراعا داخليا مثله أفراد الأسرة الحاكمة ، الذين دخلوا في حلقة نزاع على العرش دون الالتفات إلى الأخطار الخارجية المهدد للبلاد ، وهذا ما زاد من الأوضاع تأزما ، وترك الباب مفتوحا أمام الأعداء .

أ – تراجع مكانة الدولة الزيانية:

1 – الاضطرابات الداخلية .(الصراع على العرش):

إذا كان القرن السادس عشر عصر النهضة والاكتشاف وبسط النفوذ بالنسبة لأوروبا ، فإنه كان بمثابة فترة احتضار وصراع بين عنصرين أجنبيين ، هما الاسبان والأتراك بالنسبة للمغرب الأوسط ، ثم التفكك المستمر المؤدي إلى النهاية الحتمية ، وتعود أسباب ذلك إلى نوعين ، منها الداخلية المتمثلة في حالة بني زيان ، والخارجية التي لم يستطيعوا إبعادها .

فقد نشب الخلاف بين ملوك بني زيان حول العرش ، وانقسموا إلى طامع في السلطة ومعارض له ، وانشغل القادة لا بالسياسة وتسير الدولة ، بل بالدسائس ونصب الفخاخ وربط المؤامرات [1] . وبذلك أخذ صرح بني عبد الواد يتساقط شيئا فشيئا منذ أن ركن ملوك هذه الدولة من بني زيان إلى التواكل والتخاذل ، وانهماكهم بالنزاع على الحكم ، وقصر انشغالهم على أنفسهم شخصيا ، وبالتالي فقد انتشرت الفوضى بين الناس في كل ميادين السياسة [2] .

وتعود بداية الخلافات بين الإخوة في الدولة الزيانية إلى عام 851ه / 1447م ، عندما استعاد أحمد العاقل مدينة وهران من أخيه المتمرد أبي يحيى الذي فر إلى تونس ، وتوفي فيها عام 867ه / 1462م ، وقبل سنوات من هذا التاريخ ، ثار محمد المتوكل على عم أبيه أبي العباس أحمد العاقل وفرض سيطرته على مليانة والجزائر ووهران وزحف منها إلى تلمسان ، وقبض على عمه أبي العباس عام 866ه / 1461م ثم نفاه إلى غرناطة بالأندلس ، وخلفه ابنه أبو ثابت محمد عام 867ه / 1462م [3] .

ثم تواصلت سلسلة الصراعات بين الإخوة ، واستمر الضعف في أرجاء مملكة بني زيان ،إلى عهد السلطان أبو عبد الله محمد الرابع بن أبي ثابت الذي اشتهر بالثّابتي نسبة إلى جده . وفي فترة

1- مولاي بلحميسي :" *نهاية دولة بني زيان* " ، الأصالة ، ع 26 ، الجزائر ، 1975 ، ص 31 .

2- المدني : **حرب الثلاثمائة سنة** ... ، المرجع السابق ، ص 70.

3- بوعزيز : **وهران**... ، المرجع السابق ، ص ص 58-59 .

حكم هذا الملك بدأت بعض المدن تستقل عن السلطة المركزية في مدينة تلمسان مثل : تنس ، والجزائر ، ودلس ...كما تراجع العديد من العرب عن طاعة السلطان واتحدوا مع أعدائه كلما هاجموا أراضيه . وفي عهد هذا الملك ، استولى الاسبان على غرناطة عاصمة بني الأحمر وآخر معاقل الإسلام بالأندلس عام 898ه / 1492م ، وتزايدت ظاهرة التنافس والصراع بين الإخوة حول العرش في بداية القرن السادس عشر ميلادي . ففي عام 909ه / 1503م جلس السلطان أبو زيان على عرش تلمسان [1] خلفا لوالده عبد الله محمد الثالث ، لكن عمه أبا حمو الثالث [2] ثار عليه وأدخله السجن ، وفي هذا الوقت تمكن الاسبان من الاستيلاء على المرسى الكبير عام 911ه / 1505م ، ثم وهران عام 915ه / 1509م [3] . وبذلك تمكن السلطان أبو حمو من الوصول إلى العرش عن طريق القوة ، وقد مال هذا السلطان إلى التحالف مع الاسبان الذين دعموه في الكثير من المرات كما سيأتي . وبالتالي فقد استمرت دولة بني زيان في التدهور شيئا فشيئا بسبب الصراع بين ملوكها الضعاف [4] ، الذين انشغلوا فقط في بث الفتن و الاضطرابات . وبوصول الملكين بوقلمون وأبو زيان إلى الحكم ، شهدت الدولة الزيانية فتنا كثيرة جعلت الاسبان يتحرشون على وهران ، وفي فترة حكم بوقلمون لم تستقر المملكة نهائيا ، بسبب عجزه كليا عن الدفاع عن بلاده ، كما حدثت انقلابات عديدة في فترة حكمه [5] .

واستمر حال الضعف والصراع بين الملوك إلى غاية عهد مولاي أبو عبد الله الرابع الذي تعدى الصراع مع إخوته حول الملك وتحول إلى النزاع مع بعض الطامعين في العرش أيضا من أمثال

1- هو السلطان الشرعي لمملكة تلمسان بعد وفاة السلطان أبو عبد الله محمد الرابع ، في عام 909ن / 1503م ، يلقب بالمسعود . وقد خلف السلطان المتوفي مدة قصيرة من الزمن ، حيث تآمر عليه عمه أبو حمو وأودعه السجن ، وحكم في مكانه . ينظر : عبدلي : المرجع السابق ، ص ص 275 – 276 .

2- 909 – 924 ه/ 1503 – 1517م ، الملقب بابي قلمون ، انتصب قهرا على عرش دولة بني عبد الواد ، فعزل ابن أخيه وأدخله السجن وباشر الحكم ، ومنذ ذلك الوقت والبلاد في اضطراب وانحلال . ينظر : نفس المرجع ، ص 276 - 277 .

3- مبارك بن محمد الميلي : **تاريخ الجزائر في القديم والحديث** ، ج2 ، دار الغرب الإسلامي ، بيروت ، د . ت ، ص463 .

4- ينظر قائمة ملوك الدولة الزيانية في الملحق رقم 01 .

5- المزاري : المصدر السابق ، ص192 .

: أولاد موسى ، أولاد عبد عبد الله ، وشيخ غريف ، وقيسالة ، وبني عامر ، وأولاد عبد الله محمد ، وهذه العائلات الكبرى سيكون لها دور فعال في أحداث القرن السادس عشر وفي العلاقات مع الاحتلال الأجنبي كما سيأتي [1] .

وتبين ضعف ملوك الدولة الزيانية من خلال عدم قدرتهم على الدفاع عن حدود المملكة من جهة ، بالإضافة إلى عجزهم عن تطوير المجالات الأخرى كالاقتصاد الذي يمثل عصب الحياة بالنسبة إلى أي نظام سياسي ، وعلى حد قول حساني فإن تقدم وتطور النظام الاقتصادي لأي دولة متعلق بمدى استقرار نظامها السياسي ، وأن توازن الاقتصاد متصل بمدى قدرة الدولة على مواجهة الضغط العسكري والسياسي ، وهذا الشئ هو الذي كلف أمراء بني زيان أثمانا باهظة فيما بعد . ففي ذلك الوقت كان من المفروض أن تتوحد القوى الداخلية وتتكتل ، وتتناسى الأحقاد والنزاعات الشخصية لتجاوز الظروف الصعبة ، لكن الذي حصل هو العكس [2] .

هكذا كان حال الدولة الزيانية التي أصبح سلطانها منحصرا على العاصمة تلمسان فقط منذ نهاية القرن الخامس عشر إلى النصف الأول من القرن السادس عشر ميلادي . وقد كان سبب هذا التحول هو الطمع الذي استولى على قلوب الحكام ، ففي الوقت الذي يجب فيه توحيد القوة للدفاع عن البلاد التي عاشوا فيها من الخطر الأجنبي المحدق بها من الاسبان والبرتغال وغيرهم ، استسلموا إلى ملذاتهم ورغباتهم التي أدت بهم إلى الهاوية ، فلم يحققوا لا مطامعهم في السلطة والمال ، ولا الاحتفاظ بالأرض التي كانت تحتويهم . والشئ الذي أثار حفيظة الكتّاب ليس السلب والنهب الذي تعرضت له البلاد بسبب تسلط هؤلاء الحكام ، وإنما الخيانة التي بدرت عن بعضهم في التعامل مع الغزاة الاسبان لتحقيق بعض المصالح .

1- صالح عباد : **الجزائر خلال الحكم التركي (1514 –1830م)** ، دار هومة ، الجزائر ، د . ت ، ص69 .

2- مختار حساني : **تاريخ الدولة الزيانية (الأحوال الاقتصادية والثقافية)** ، ج2 ، دار الحضارة ، 2007 ، ص11 .

لقد أدى هذا الصراع إلى فتح الباب أمام انقسام البلاد إلى مجموعة من القبائل و الأعراش والإمارات ،كل واحدة منها تسعى إلى تحقيق الاستقرار في مختلف المجالات ، وهنا بدأ يبرز دور القوى المحلية من أفراد الأسر القوية ، الذين أسسوا لكل منهم عشيرة وقبيلة لها حدود تحكم نفسها بنفسها .

2 – انقسام المغرب الأوسط إلى مجموعة من الإمارات:

بعد أن تحولت مملكة تلمسان إلى مسرح للتنافس على الحكم بين أفراد الأسرة الحاكمة من بني زيان [1] ، وبعد أن تفاقمت الأوضاع في السوء ،خاصة في الجزء الغربي من الجزائر باعتبارها مركز حكم الدولة الزيانية [2] .

بدأت تظهر كيانات أخرى في البلاد إضافة إلى الدولة الزيانية ، وأصبح المغرب الأوسط مقسما إلى عدة أقسام منها : بجاية ، وبسكرة.. وغيرها من المدن التي دخلت تحت نفوذ الحفصيين في بداية القرن السادس عشر ميلادي ، أما الإمارة الزيانية اكتفت بالجزء الغربي من الجزائر ، متخذة العاصمة تلمسان قاعدة لها ، في حين بقيت المنطقة الوسطى منطقة عازلة بين الحفصيين والزيانيين ومنطقة صراع دائم بين الإمارتين ، وقسمت إلى وحدات صغيرة متناحرة لا يسودها الوئـــــــــــــــــــام [3] .

وبعد أن حدث هذا الانقسام أصبحت تلمسان دون سلطة ، ودون صلة مع الجهات الداخلية وقامت في المملكة إمارات شبه مستقلة في الجبال تارة و في السهول تارة أخرى . وقد أعلنت وهران انفصالها عن المركز وتكوين شبه جمهورية ، وكان ذلك حال مستغانم ، وتنس وغيرها ... ، حيث خضعت كلٌّ منها إلى سلطة شيخ محلي تكون في يده كل الأمور المتعلقة

[1]- نبيل عبد الحي رضوان : " ***جهود العثمانيين لإنقاذ الأندلس وأسراره في مطلع العصر الحديث*** " ، رسالة دكتوراه في التاريخ الإسلامي الحديث ، جامعة أم القرى ، المملكة العربية السعودية ، 1987 ، ص189 .

[2]- بوعزيز : " ***المراحل والأدوار...*** " ، المرجع السابق ، ص24 .

[3]- دراج : المرجع السابق ، ص94 .

بالإدارة والحكم ، وهذا ما سيظهر لنا من خلال العلاقات التي ظهرت بين بعض هؤلاء الشيوخ والإسبان أو الأتراك الذين أصبحوا طرفا في النزاع على السلطة إلى جانبهم [1] .

كما استقلت المناطق الداخلية تحت حكم أسر كبرى مثل بني جلاب في توقرت ، وعلاهم في جنوب الجزائر ، وبني رجلان في ورقلة ، وسادت الدواودة [2] . القطاع القسنطيني ، وإمارة كوكو وبني عباس ببلاد القبائل الشرقية والغربية ... [3] .

أما منطقة الغرب الجزائري ، فقد استوطنته قبائل بني عامر[4] العربية التي كان يغمراسن قد أقطعها من الصحراء المحيطة بوهران وتلمسان ليحتمي بها من مهاجمة خصومه المعاقيل [5] ، المقيمين بسهول متيجة . وكان قد استقدم قبيلة حميان [6] الهلالية قبل ذلك ،كما أسكن فريقا آخر من القبائل العربية عكرمة في جبال كركرة ، وجعلها حواجز بشرية لحماية عاصمته ، وهذه القبائل كانت تابعة إسميا فقط للإمارة ، ومستقلة في إدارة شؤونها [7] .

1- بلحميسي : المرجع السابق ، ص 31 .

2- استوطنت هذه القبيلة إقليم الزّاب والحضنة في الشرق الجزائري ، وتعتبر من أقوى القبائل من هلال بن عامر ، وذكرهم ابن خلدون على أنهم من بطون رياح بن هلال. والزواودة أو الدواودة هم أبناء داود بن مرداس بن رياح . ويزعم بنو عمر بن رياح أن أباهم كفله ورباه...الخ ، ينظر : عبد الرحمان بن خلدون : **ديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر (432-808ه) 1332-1406م)**، ج6 ، تح : خليل شحادة ، سهيل زكار ، دار الفكر ، لبنان ، 2000 ، ص44 .

3- حيمر: المرجع السابق ، ص94 .

4- بنو عامر من زغبة مواطنهم في آخر مواطن زغبة من المغرب الأوسط قبلة تلمسان ، مما يلي المعقل وكان موطنهم من قبل ذلك في آخرها مما يلي المشرق ، وكانوا مع بني يزيد حيا جميعا...، ولما نقلهم يغمراسن إلى مواطنهم هذه المحاذاة لتلمسان ليكونوا حجزا بين المعقل وبين وطنها ، استقروا هناك... ينظر : بن خلدون : المصدر السابق ، ج6 ، ص68 .

5- من مدحج القحطانية ، وفي المملكة المغربية فروع كثيرة من المعقل ، يستوطنون سهول متيجة ... ينظر : محمد سليمان الطيب : ***موسوعة القبائل العربية (بحوث ميدانية وتاريخية)*** ، مج 1، ج1 ، ط2 ، دار الفكر العربي ، لبنان ، 1997، ص1023 .

6- هم الشراقة والغرابة ، والشفعة وحنية على حدود الجزائر مع الغرب ، وداخل منطقة وجدة بالمغرب الأقصى ، وقد ذكر بن خلدون حميان بن عقبة من بطون بني يزيد من زغبة الهلالية . ينظر سليملن : المرجع السابقر، ص1030 .

7- دراج : المرجع السابق ، ص94 .

وسيظهر دور هذه القبائل بصفة فعّالة بعد الاحتلال الاسباني للغرب الجزائري ، وهذا ما نحن بصدد البحث عنه . وسنحاول من خلال العناصر اللاحقة من هذه الدراسة توضيحه ولو بصفة جزئية . وقد كانت واحات الجنوب الجزائري منذ بداية القرن السادس عشر تحت حكم زعماء هلاليين ، واغتنمت كل جهة تناحر بني زيان وتقاتلهم ، واستغلت ضعفهم لتحكم نفسها بنفسها ، فتقلصت حدود مملكة تلمسان إلى أن أصبحت لا تتعدى العاصمة ونواحيها فقط [1] .

وبالإضافة إلى وهران فقد كانت المدن الساحلية الأخرى تمثل بدورها كيانات مستقلة ، مثل مدينة الجزائر بما فيها سهل متيجة الذي كانت تحت حكم الثعالبة [2] ، وكان يسيرها مجلس أعيان المدينة . وفي عهد سالم التومي احتل الإسبان صخرة البنيون كما سيأتي . وهذا ما ألحق أضرارا بليغة بالأهالي ، مما دفعهم إلى طلب النجدة من الأخوة بربروس [3] .

وقد استولى المحال على وادي الشلف الخصب وخرج معظم قبائل الونشريس والظهرة ، وكونت مدن مازونة ، والمدية ، ومليانة إمارات مستقلة وبذلك فقد ظهرت الفوضى وانتشرت ، وتوقفت التجارة وفترت الفلاحة وافتقرت الدولة ...، وخلت من أهلها الدار كما يقول بلحميسي [4] .

وبذلك أصبح المجتمع الجزائري في أغلبه يعيش حياة ريفية ، ويعاني من حالة البؤس وانعدام التماسك الشعبي ، وانساق نحو التمرد والعصيان في وجه الحكومات المتهاوية ، وبدأت الخرافات تشيع في أوساطه حتى بلغت حدا كبيرا وأصبحت منتشرة في أواسط السكان... [5] .

1- بلحميسي : **نهاية دولة** ... ، المرجع السابق ، 31 .

2- من ولد ثعلب بن علي بن مكن صقيل أخي عبيد الله بن صقيل ، أو من ولد ثعلب بن علي بن بكر بن صغير ...، وموطنهم لهذا العهد بمتيجة من وسط الجزائر... ، وأقاموا بها حلولا... ينظر : ابن خلدون : المصدر السابق ، ج6 ، ص 84 .

3- حيمر : المرجع السابق ، ص39 .

4- بلحميسي : المرجع السابق ، ص32 .

5- فكاير : المرجع السابق ، ص64 .

وهذه الأوضاع كلها حفّزت القوى الأوروبية على ممارسة العدوان على المناطق الساحلية الإفريقية والمغرب الأوسط بصفة خاصة ، بعد أن كانت تنشط في المنطقة ، وبالتالي فما كان شائعا في البلاد وصلهم وأخذوه بعين الاعتبار ، وهذا ما يتضح من خلال بعض ما قيل عن الوضع من طرف الدول الأوروبية على رأسها الاسبان . وسنحاول أن نرصد بعض ما قيل من خلال العنصر الموالي من هذا المبحث .

وعلى حد قول بعض الباحثين ، فإن القبائل والقوى المحلية والإمارات التي انفصلت عن الدولة الزيانية ،كان لها الدور الفعّال في زعزعة النظام والاستقرار الداخلي للمغرب الأوسط ، وذلك لكون كل قبيلة مستقلة عن الأخرى ، وتسعى بكل الطرق والوسائل إلى عدم التعامل مع الأخرى ، وهذا ما جعل البلاد تتعرض للإنشقاق والتفكك .كما أن هذه الكيانات لعبت دورا في إثارة القلاقل أثناء الفترة الأولى من الدخول العثماني إلى الجزائر... [1] .

هذا بالإضافة إلى أن أهل البلاد من التلمسانيين وغيرهم قد نفروا من قساوة الملوك عليهم ، لذلك قاموا بإدارة وجهتهم نحو فاس ، واستنجدوا بمحمد الشيخ السعدي الذي احتل تلمسان كما سيأتي، وأخرج أبا زيان أحمد منها . وهكذا كانت حالة الدولة الزيانية التي عاشت مابين سنتي (633-957ه / 1235-1550م أو 1554م . ويقول الميلي أن أمدها بين 291 و 292 سنة [2] .

ب – الدراية الاسبانية بأحوال المغرب الأوسط في بداية القرن 10 ه / 16 م :

1 – أهم التقارير المقدمة للإسبان عن أحوال المغرب الأوسط:

1- دراج : المرجع السابق ، ص95 .

2- الميلي : المرجع السابق ، ج2 ، ص466 .

الجدير بالذكر هو أن تلك الأوضاع لم تكن خفية على الإسبان ، وإنما كانوا على اطلاع عليها وكان ملوكهم على علم تام بما كان يدور في المغرب الأوسط من نزاعات بين الملوك الأواخر للدولة الزيانية ، وقد كانت هذه الأخبار تصل إليهم عن طريق تقارير يقدمها جواسيسهم في البلاد يوجهونها إلى البلد الأم اسبانيا سنذكر بعضها في متن هذا العنصر .

بعد انهيار مملكة غرناطة طلب ملكها أبو عبد الله أن ينسحب إلى بلاد المغرب مع ذويه ، لكن الملك الاسباني فردناند الكاثوليكي وزوجه إيزابيلا رفضا ذلك رفضا قاطعا ، خشية أن يطلب هذا الملك الدعم من الشمال الإفريقي ويأتي لنجدة المسلمين في الأندلس .ولكن الكاردينال خمينيس تمكن من إقناع الملكين بأنه لا يوجد أية خطورة من رحيل الملك الغرناطي ، لأن المنطقة تعيش حالة من الخلاف والشقاق الذي لن يسمح لأهلها بالإقدام على مثل هذا العمل [1] .

وقد كانت هذه الأخبار تصل الإسبان عن طريق مجموعة من التقارير أو الرسائل الموجهة من طرف أعوانهم في المنطقة . ولعل أهم ما ورد لدى المؤرخين أحد التقارير التي أرسلت إلى ملوك الإسبان من طرف أحد الجواسيس المعروف بفيرناندو دي زافرا ، (Fernando De Zafra) ، الذي كان مكلفا منذ عام 898ه / 1492م ، بمراقبة حركة الأندلسيين المطرودين إلى إفريقيا ، ويقول هذا الأخير في التقرير ما يلي : " ... إن الحالة النفسية في كامل البلاد بلغت حدا من الانهيار ، يحمل على الاعتقاد أن الله أراد أن تكون هذه البلاد في متناول صحاب الجلالة "[2] . يعني بذلك الملك فردناند .

ويقول أيضا :" ... أنه في نهاية القرن الخامس عشر كانت الفوضى السياسية ، والاضطرابات وتداخل الممالك بعضها ببعض قد بلغت في الشمال الإفريقي مبلغا لا يمكن أن نلخصه في صفحات..." [3] .

1- المدني : **حرب الثلاثمائة سنة ...** ، المرجع السابق ، ص68 .

2- فكاير : المرجع السابق ، ص45 .

3- المدني : **حرب الثلاثمائة سنة ...**، المرجع السابق ، ص68 .

ولقد سمحت الأوضاع الداخلية للبلاد ، بتحصيل المعلومات حول المنطقة بشكل دقيق ، وتوجيهها إلى الاسبان دون عراقيل ، وبالخصوص المعلومات التعلقة بالقبائل التي كانت تتمركز على سواحل البحر المتوسط ، والتي كانت خارجة عن طاعة ملوك تلمسان وفاس (1) .

وعلى العموم ، فقد سهلت الجوسسة الاسبانية عملية نقل الأخبار إلى البلد الأم ، ورصد الأوضاع عن كافة المجالات السياسية ، والاجتماعية ، والاقتصادية داخل المغرب الأوسط ، مما سهل على الاسبان عملية الغزو أو التروح إن صح القول على المغرب الأوسط في بداية القرن العاشر ه/ السادس عشر ميلادي (2) .

وبالإضافة إلى الأخبار التي كانت تصل إلى فردناند عن طريق جاسوسه ، عينت الملكة إيزابيلا بدورها جاسوسا آخر يعرف بلورينثو دي باديا Lorenzo de Badilla وأمرته بالتوجه إلى مملكة تلمسان في مهمة تجسسية ، لاستطلاع أحوال المملكة والمسلمين الفارين من الأندلس إليها . وكان ذلك في 899ه / 1493م ، بعد تنكّر هذا الجاسوس في زي تاجر ، واستقر في تلمسان مدة تجاوزت عاما ، وقد قضي كل هذه المدة في جمع المعلومات اللاّزمة التي تعين على نجاح خطط المعتدين (3) .

كما يذكر فكاير أن للكاردينال خمينيس فيما بعد اتصال مع تاجر يدعى : جيرمينو فيانيلي (4) Geromino Vianeli ، الذي كان على اطلاع واسع بالمناطق الداخلية لسواحل إفريقيا ، وكان يبلغ الكاردينال في كل مرة يلتقيه عن أحوال المناطق ، وهو الذي وجّه أنظار الاسبان نحو المرسى الكبير ووهران . ومن جملة الأخبار التي نقلها هذا الجاسوس إلى الكاردينال خمينيس ، قوله :"

---

1 - Fernando Braudel **:" les espagnoles et l'Afrique du Nord** ", R.A , T69 , 1929 , p . 212 .

2- **تاريخ تحرير مدينة وهران من الاحتلال الاسباني خلال القرن الثامن عشر الميلاديين** ، من خلال مخطوطين : فتح مدينة وهران للجامعي ، والرحلة القمرية لابن زرفة ، تح : مختار حساني ، مخبر المخطوطات ، جامعة الجزائر ، 2003 ، ص 20 .

3- الميلي : المرجع السابق ، ج3 ، ص 20 .

4- هو ايطالي من البندقية ، وقد تقلب بين مهام عديدة فكان بحارا ومهندسا ، واشتغل محاربا بايطاليا تحت قيادة كونزالف قرطبة ، وكانت له معرفة جيدة وخبرة واسعة بشواطئ الشمال الإفريقي التي عرفها وتنقل بينها بحارا وتاجرا.ينظر: الميلي : المرجع السابق ، ص 20 .

كانت وهران تبدو أواخر القرن الخامس عشر وهي تحت السلطة الإسمية لبني زيان في صورة جمهورية تجارية حقيقية مستقلة [1] .

وقال أيضا : " أما تلمسان تشمل بصفة غير محددة الغرب الجزائري الحالي ، وكان رجال الدولة أواخر القرن الخامس عشر قد تحرروا من السلطة المركزية ، فكان أدعياء الملك لا يجدون صعوبة في جمع الأنصار لمحاربة السلطان القائم ، وكان الأبناء يثورون ويخلعون آباءهم .كما كان الأبناء يحاربون بعضهم البعض لاقتسام ملك أبيهم " [2] .

وعمل هذا الجاسوس أيضا على رسم خريطة لكل السواحل ، بهدف أن يوضح الفهم للكاردينال خمينيس ويبين له مدى أهمية المنطقة ، وهذا ماسمح لهذا الأخير بتحصيل معلومات دقيقة عن البلاد ، خاصة القبائل الخارجة عن طاعة ملوك تلمسان وفاس [3] .

2 – النتائج المترتبة عن أوضاع الدولة الزيانية في أواخر عهدها :

خلّفت الظروف الصعبة التي عاشتها الدولة الزيانية نتائج انعكست على حاضر ومستقبل البلاد فيما بعد ،كحرمان الإمارة من البروز كدولة مستقلة ، ومساندة مسلمي الأندلس الذين كانوا يعيشون أيامهم الأخيرة في غرناطة ، بالإضافة إلى حرمانها من قاعدتها البشرية بفعل الهجرة الداخلية المستمرة التي فرضتها الحروب مع الجيران ، الأمر الذي جعل الأهالي دائما يحاولون البحث عن حلول أخرى للاستقرار .

وبالتالي ، يمكن القول بأن بقاء الدولة الزيانية كل هذه المدة كان معجزة تاريخية ، بالإضافة إلى السياسة البارعة التي انتهجها بعض ملوكها مثل يغمراسن ، وأبو حمو موسى الثاني... [4] .

1- فكاير : المرجع السابق ، ص 116 .

2- المدني : **حرب الثلاثمائة سنة ...** ، المرجع السابق ، ص69 .

3- فكاير : المرجع السابق ، ص 117 .

4- دراج : المرجع السابق ، ص 89 – 90 .

وبذلك أخذت القوات الاسبانية المتسلحة بالنّفاقين المسيحي والسياسي ، تستولي على السواحل لضعف الحكومات عن حمايتها . وقرر أبو حمو الثالث سنة 918ه / 1512م الاحتماء بها فأبت الأمة الإسلامية هذه الإهانة . وكان بربروس قد ملك الجزائر فاستنجد به أهل تلمسان وأصبح حكام بني زيان بين الأتراك العثمانيين والإسبان [1] .

وخلاصة القول ، أن هذه الأسطر لا تكفينا لرصد أسباب سقوط الدولة الزيانية ، وذلك لكونها كما يقول المدني : "لم تزل منذ نشأتها تصطلي بنار الحروب الداخلية والخارجية ، فمن غارة مرينية إلى حرب حفصية ، ومن مناهضة مغراوية إلى توجينية ، ومن دسيسة سويدية إلى مشقة عامرية ومن نفاق اسباني إلى غلطة تركية..." .

ويقول كذلك : أن آخر هذه الدولة جدير بقول أحد الشعراء يصف حياة الأندلس في القرن التاسع بقوله :

الروم تضرب في البلاد وتغنم ... والجور يأخذ ما بقي والمغرم.

والمال يورد كله قشتالة ... والجند يسقط والرعية تسلم .

وذو التعين ليس فيهم مسلم ... إلا مغني في الفساد مسلم .

أسفي على تلك البلاد وأهلها ... الله يلطف بالجميع ويرحم [2] .

بعد أن لاحظنا في بداية هذا الفصل أن سقوط غرناطة في يد الإسبان كان بسبب تخاذل حكامها في الفترة الأخيرة ، وانشغالهم في سلب الأموال ونهبها ، والبحث عن مصالحهم الشخصية على حساب السكان ، واهتمامهم بالصراع حول السلطة والعرش .كان الشيء نفسه بالنسبة للدولة الزيانية ، فحكامها في الفترة الأخيرة ، انشغلوا في الصراع حول الحكم وأهملوا السلطة . مما جعل الإسبان يستغلون ذلك كما استغلوه من قبل في إسقاط غرناطة .

1- الميلي : المرجع السابق ، ص 489 .

2- المدني : **حرب الثلاثمائة سنة ...** ، المرجع السابق ، ص 489- 490 .

المبحث الثالث:

دوافع الإسبان في التوسع على حساب المغرب الأوسط.

بعد أن تحدثنا عن الظروف التي ساهمت في تسهيل عملية الغزو الاسباني للمغرب الأوسط منذ بداية القرن السادس عشر ميلادي ، ارتأينا أن نبرز أهم الأسباب التي جعلت الاسبان يوجهون أنظارهم نحو شمال إفريقيا بصفة عامة ، والمغرب الأوسط أو الجزائر بصفة خاصة ، على الرغم من أنهم تمكنوا من الاستيلاء على غرناطة التي بقيت مدة طويلة من الزمن تحت راية الإسلام ، وهذا

يعتبر انتصارا كبيرا بالنسبة لهم . لكن أطماع الغزاة لم تتوقف عند هذا الحد ، وإنما توجهوا نحو شمال إفريقيا لأغراض استعمارية سيأتي الحديث عنها .

وقد تعددت الأسباب التي جعلتهم يقومون بهذه الخطوة ، منها ما هو متعلق بأهمية المنطقة ومنها ما هو متعلق بحاجة الاسبان ، ورغبتهم في تحقيق التوسع...، وسنحاول من خلال هذا العنصر أن نبرز أهم هذه الدوافع ومنها :

أ– الدوافع السياسية والعسكرية :

إن الرغبة في توسيع الحدود التقليدية لاسبانيا وبناء إمبراطورية مترامية الأطراف ، كان حلما يراود الملك فردناند وإيزابيلا منذ أن تحقق الزواج السياسي بين مملكتي قشتالة وأراغون [1] . واحتلال سواحل الجزائر وغيرها من سواحل إفريقيا سيشكل وحدة جغرافية لممتلكات اسبانيا بعدما احتلت مناطق عديدة من البحر المتوسط ،كما أن احتلال هذه السواحل سيساهم في ترسيخ الزعامة الاسبانية السياسية للعالم المسيحي الكاثوليكي [2] .

وبعد الانتصار الذي حققه الاسبان في الأندلس ، أصبح هؤلاء يرون في أنفسهم الإمبراطورية التي لا تقهر ، والتي لا يمكن لأية سلطة أن تنازعهم في السيادة والسلطان في الشرق أو الغرب ، وقد كانوا على دراية تامة بأحوال المغرب الأوسط أواخر القرن الخامس عشر وبداية القرن السادس عشر ميلادي ، لذلك أعدّوا العدة لتوسيع حدودهم على حسابه ، والوصول إليه قبل أن يتوجه إليه العثمانيون الذين كانوا يسيطرون على المشرق الإسلامي [3] .

هذا من جهة ومن جهة أخرى ، فإن المبادرة التي قام بها الجزائريون في تقديم يد العون لإخوانهم الأندلسيين لمواجهة الإسبان ، وعلى رأسهم أهالي بجاية الذين كانوا يسلّحون مراكبًا

---

[1]- H . D . De Grammont : **Histoire D'Alger sous la domintion Turque (1515- 1830)** , E.L. é , Paris , 1887 , p . 04 .

[2]- دراج : المرجع السابق ، ص 129– 130 .

[3]- المدني : **حرب الثلاثمائة سنة ...** ، المرجع السابق ، ص ص 86 –87 .

وسفنًا حربية ويرسلونها إلى مواجهة الإسبان ، حفّزت هؤلاء على غزوها وشن هجمات عسكرية انتقامية من الجزائر [1] .

وبالإضافة إلى هذا ، فإن من أهم الأسباب التي دفعت الإسبان إلى احتلال المغرب الأوسط ، هو محاولة شل حركة الجهاد البحري التي كانت تنطلق من سواحل الجزائر . فبالرغم من معرفتهم بأوضاع الجزائر الداخلية وحالة التدهور ، إلا أنهم كانوا يخشون من أن يدرك الجزائريون هذا الوضع ، ويتغلبوا على مشاكلهم ، ولهذا فقد قرروا أن يشنوا حملات عسكرية لأغراض أمنية على سواحل الجزائر من أجل تقويضها ، وشل أي حركة تقاد من هذا البلد [2] .

وهذا ما يجعلنا نعتقد بأن الدافع السياسي يعتبر دافعا أساسيا جعل الإسبان يتوجهون إلى المغرب الإسلامي عموما والمغرب الأوسط بصفة خاصة ، فالمساحة التي يحتويها هذا الأخير ستوسع من الإطار الجغرافي للدولة الاسبانية ، وتجعل من هذه الأخيرة إمبراطورية مترامية الأطراف .

ب – الدافع الاقتصادي:

يمكن اعتبار الدافع الاقتصادي أكثر أهمية من الدافع السياسي لعدة اعتبارات منها :

بعد تقويض المسلمين في الأندلس ، وانهيار النظامين الاقتصادي والاجتماعي في اسبانيا ، بفعل تشتيت هؤلاء الذين كانوا يمثلون دعامة الاقتصاد ، ودفعهم إلى الهجرة من البلاد .كل ذلك انعكس سلبا على وضع اسبانيا ، وجعلها تقف أمام مشكل اقتصادي رهيب متمثل في : تعطل الإنتاج بصفة تامة خاصة الفلاحي بعد أن تركت الأرض بورا ، بالإضافة إلى انخفاض الضرائب ، وتراجع الصناعة بسبب انعدام وسائل التصنيع ،كما توقفت التجارة الخارجية والمبادلات والمعاملات المالية ، وقلة اليد العاملة بعد إبعاد اليهود والأندلسيين عامة .

1- حيمر : المرجع السابق ، ص 35 .

2- دراج : المرجع السابق ، ص 126 .

وكان على الملك الاسباني فردناند أن يقرأ حسابا للوضعية المالية الضعيفة التي تمنعه من القيام بحملات لا ترجع بالفائدة العاجلة ، ولذلك فقد اكتفى بأسلوب الاحتلال المحدود ، حيث حول الموانئ المحتلة إلى محصنة تحتلها حاميات عسكرية تاركين الضواحي للسكان [1] .

ويقول المدني : " ... أمام هذا الوضع لم يبقى للإسبان من سبيل للعيش سوى ذلك النوع من اللّصوصية ، وبذلك اندفعوا إلى غزوات ومغامرات ، يستحوذون فيها على غنائم ويأتون بها إلى اسبانيا ساخنة ... " [2] .

ونتيجة للتغيرات السياسية والاقتصادية التي حدثت في أوروبا في مطلع القرن السادس عشر ، دفعت كلا من اسبانيا والبرتغال إلى البحث عن موارد مالية ، وكان احتلال السواحل هدفا لإسبانيا ، ويعتبر ضرورة اقتصادية من أجل تأمين تجارتها في البحر المتوسط ، والسيطرة على سواحل إفريقيا هو السيطرة على التجارة الإفريقية . فمن المعلوم أن الموانئ الجزائرية كانت تقوم بدور الوسيط التجاري بين إفريقيا وأوروبا ، والسيطرة عليها سيمكن الإسبان من إزاحة الوسطاء الجزائريين والتحكم في التجارة الإفريقية القادمة عبر الصحراء متجهة إلى أوروبا عبر هذه الموانئ [3] .

كما أن اكتساح المغرب وإخضاعه للحكم الاسباني هو الحل للأزمة الخانقة . فقد عرف منذ أزمان أنه مهد الخيرات ومنبع الثروات : مزارع غنية وغابات كثيفة ، ومروج خضراء ، وثروة حيوانية كبيرة ، وسواحل غنية بالمرجان ، وصناعة الجلود والصوف والحرير... [4] .

والخصائص التي يتميز بها البحر المتوسط لكونه بوابة العالم ، جعل كلا الإمبراطوريتين الإسبانية والعثمانية تتنافسان طمعا في الاستيلاء عليه . وقد كان الإسبان يرون أن البحر المتوسط بحيرة

1- الميلي : المرجع السابق ، ج3 ، ص 27 .

2- المدني : **حرب الثلاثمائة سنة ...** ، المرجع السابق ، ص 87 .

3- دراج : المرجع السابق ، ص 127- 128 .

4- المدني : **حرب الثلاثمائة سنة ...** ، المرجع السابق ، ص 88 .

اسبانية وليس لأحد غيرهم الحق فيها ، ولذلك كانوا يتسترون وراء الدين ، لكن السبب الحقيقي من وراء التوجه إلى المغرب هو الاقتصاد والسيطرة عل المنطقة [1] . فتمكّن اسبانيا من احتلال المغرب الإسلامي ، جعل الحوض الغربي من البحر المتوسط بحرا اسبانيا ، إذ أنها كانت تملك الساحل الجنوبي الغربي من ايطاليا ، وتملك الجزر التي بها : صقلية ، وسردينيا ، وكورسيكا ، والبليار ، وبذلك تستطيع تشكيل وحدة اقتصادية للاتصال المباشر بين شمال البحر المتوسط وجنوبه والحوض الغربي منه [2] .

وقد بين لنا بوعزيز ، أهمية وهران الاقتصادية وهذا ما جعل الاسبان يسعون لاحتلالها . حيث اكتسبت هذه الأخيرة أهمية اقتصادية إستراتيجية كبيرة في عهد الدولة الزيانية ، ومهاجري الأندلس من نشاط تجاري ، صناعي واسعين لمواد العاج وجلود النعام والأبقار ...، وقد كثر عليها تجار مدن : بيزة ، والبندقية ، وجنوة ، ومرسيليا ... ليشتروا ما تشتهر به من بضائع ، ويبيعوا ما يحملون من بضائع كالأقمشة ، والأسلحة ، وأدوات الخرز ، والأدوات الحديدية ...، وقد ازدهرت بها صناعة نسيج الصوف والبارود ، والأواني ...، وكانت بها مساجد وفنادق ومدارس ،كما كانت إحدى محطات انطلاق القوافل التجارية [3] .

بالإضافة إلى وهران ، نجد مزغران التي تعتبر من أهم مدن الغرب الجزائري التي حاول الاسبان احتلالها من أجل استغلال اقتصادها ، وذلك لكونها حلقة هامة بين الشرق والغرب ، وبها ميناء سيدي خرشوش الصغير الذي ترسو به السفن ذات الحمولة الصغيرة ، وهو عبارة عن خليج صغير لعب دورا هاما في التنصير ، كما توجد بها مؤسسات اقتصادية هامة ، مما جعل أنظار الاسبان تتوجه إليها [4] .

[1]- حكمت ياسين : " **الغزو الاسباني للجزائر في القرن السادس عشر (أسبابه ، مراحله ، ونتائجه)** " ، الأصالة ، ع14 ، الجزائر ، 1973 ، ص 243 .

[2]- المرجع السابق ، ص 89 .

[3]- بوعزيز : **وهران** ... ، المرجع السابق ، ص 63 .

[4]- بوعزيز : **وهران** ... ، المرجع السابق ، ص 63 .

كما بذلت اسبانيا جهودا كبيرة من أجل الاحتفاظ بإمارة تلمسان وجعلها تحت سيطرتها ، وذلك نظرا لكونها بوابة رئيسية نحو إمارات إفريقيا جنوب الصحراء ، حيث كانت تمر عبرها كميات ضخمة من السلع [1] .

ومن هنا يتبين لنا بأن الدافع الاقتصادي كان بدوره من الدوافع الهامة التي حركت الاستعمار الإسباني للاتجاه نحو الجنوب ، والمغرب الأوسط بصفة خاصة ، وذلك لكون الاقتصاد من أهم معالم الدولة ، كما أن تقدم أو تخلف الدول يقاس بمدى قوة اقتصادها ، هذا بالإضافة إلى مساهمة بعض العوامل الأخرى منها :

ج – الدافع الديني:

لقد بدأ الصراع الإسلامي المسيحي في العصور الحديثة بتلك الدعوة التي وجهتها الكنيسة الكاثوليكية إلى جميع الدول الأوروبية لتثأر للهزيمة التي لحقت بالمسيحيين في المشرق الإسلامي... وقد استمر الصراع ضد المسلمين خلال فترة اتحاد مملكتي أراغون وقشتالة بعد زواج الملكين فردناند وإيزابيلا ، وبعد سقوط غرناطة آخر معاقل الإسلام في الأندلس في 21 محرم 898ه ، 25 نوفمبر 1492م [2] بدأت الملابسات . والمناخ السياسي لاسبانيا يترجم عن مدى عمق التأثير الذي كان يسيطر على الناس والمسؤوليين خاصة بعد سقوط غرناطة ، والذي أيهب النصارى الاسبانيين ، وحفزهم على محاربة الإسلام باسم الوحدانية وصفاء الدين . وعلى هذا الأساس وجب اعتبار الدين في القرن السادس عشر بمثابة محفز أساسي خاصة وان ملوك إسبانيا كانوا أكثر الناس تمسكا بالدين ، وأوجبوا على أنفسهم الدفاع عنه وحمايته ثم العمل على نشره ، ومحاربة أعدائه وهذا ما يمكن تبريره تاريخيا [3] .

1- حيمر : المرجع السابق ، ص 35 .

2 - المهدي ابن شهرة : **تاريخ وبرهان بمن حل بمدينة وهران** ، دار الرّيحانة للكتاب ، الجزائر ، 2007 ، ص 119 .

3- عبد الجليل التميمي :" ***الخلفية الدينية للصراع الاسباني العثماني على الايالات المغربية في القرن 16م*** " ، المجلة المغربية ، ع 10-11 ، ص 6.

وقد اعتبر الاسبان الغارات على شمال إفريقيا بمثابة امتداد للحروب الصليبية التي فشلوا عن تحقيقها في المشرق . وكانت هذه الحروب والغارات مدعمة من طرف الكنيسة البابوية [1] . وبعد انتصار الاسبان على مسلمي غرناطة ، بدأت تظهر صبغتهم الدينية والتعصب المفرط والرغبة في حمل المسلمين قهرا على اعتناق المسيحية [2] .

وحاولنا من خلال المبحث الأول من هذا الفصل أن نبرز بعض ما عاناه المسلمون في الأندلس من محن بسبب حملات التنصير الإجباري التي فرضها ملوك الاسبان عليهم . وكانت الكنيسة الاسبانية ترى في كثير من الأحيان أن المعركة ضد المسلمين في إفريقيا معركة خاصة بها . وقد لعب رجال الدين الاسبان دورا بارزا في هذه المعركة ، حيث ساهموا بكل ما لهم من مال وحماس وجرأة في مواجهة المسلمين [3] .

كما كان فردناند وإيزابيلا أول ملوك اسبانيا الموحدة شديدي التعصب للدين المسيحي ، لذا قررا مطاردة المسلمين إلى ما وراء حدود اسبانيا ، ومحاربة مسلمي شمال إفريقيا . وتماشيا مع هذه الرغبة ، أصدر البابا ألكسندر السادس Alexandre VI [4] ، مراسيم بابوية في عام 899-900ه/ 1493-1494م يبارك فيها انجازات الملكين الاسبانيين ، ويحث على مواصلة الحرب الصليبية ضد إفريقيا الإسلامية [5] .

1- ابن حلوش : المرجع السابق ، ص33 .

2- التميمي : المرجع السابق ، ص 08 .

3 - F .Braudel : op.cit , p. 201.

4- تولى منصب البابا خلال (1492-1503م) ، وهو الذي فرض ضريبة الصليب على المسيحيين وذلك لتجريد الحملات الصليبية ضد المسلمين . وقد اشتهر بتقسيمه لمناطق النفوذ في العالم بين اسبانيا والبرتغال ... ينظر: حيمر : المرجع السابق ، ص32 .

5- حيمر : المرجع السابق ، ص 32 .

وبالتالي ، فإن إقرار الباحثين بالصبغة الصليبية للهجمات الاسبانية ، كونها كانت مدعمة من طرف البابا وكبار الرهبان والملوك في أوروبا . وكان المسيحيون هم الذين يقودون الحروب ضد المسليمن بالتعاون مع الرهبان الذين بذلوا مجهودات كبيرة في سبيل إعداد الحروب [1] .

وعليه ، فإن هذا الدعم هو الذي ولّد لدى الإسبان طموحا في تجاوز حدود غرناطة ، وملاحقة الفارين بأرواحهم ودينهم إلى البلاد الإسلامية في جنوب البحر المتوسط ، وبذلك فقد جنّد الملوك الكاثوليك إمكانياتهم المادية والبشرية مع رجال الدين وعلى رأسهم الكاردينال خمينيس ، وبذلوا جهودهم لنقل حربهم ضد المسلمين من بلاد الأندلس إلى شمال إفريقيا عامة والجزائر خصوصا [2] .

وقد كان خمينيس يدعم الحرب ضد المسلمين في إفريقيا من ماله الخاص ، كما أنه استنجد كرم الكنيسة في إسبانيا ، فبعثت إليها بمقادير طائلة من الأموال للمشاركة في الحملة ضد السواحل الإفريقية ، ولهذا قال المدني بأنه يمكن القول أن حملة خمينيس صليبية ، وأنه يستحق من أجل ذلك أن يلقب بآخر عظماء الصليبيين [3] . ويقول كذلك : " أن الراهب خمينيس يستحق كل التقدير والاحترام من أجل تفكيره على الأقل في إنقاذ شمال إفريقيا من الوحشية الإسلامية لكي تنتصر فيها المسيحية والحضارة " [4] . وعلى هذا الأساس يمكن القول أن الراهب خمينيس كان من أكبر الدعاة إلى مواصلة الحرب ضد المسلمين في شمال إفريقيا ، ويقول الميلي ، أنه عمل على إثارة

1- حكمت : المرجع السابق ، ص 242 .

2- فكاير : المرجع السابق ، ص 43 .

3- المدني : **حرب الثلاثمائة سنة ...**، المرجع السابق ، ص 81- 82 .

4- إن معظم الغزاة الذين شنوا حملات على الدول الضعيفة ، يستعملون حجة تتمثل في كونهم جاؤوا إلى تلك البلاد لنشر الحضارة ... ، لكن هذا كان مجرد حجة لتغطية الأسباب الحقيقية للاحتلال .كما أنهم يصفون البلاد الإسلامية بالوحشية والهمجية للعادات والتقاليد والشعائر الإسلامية التي تقام في تلك البلاد . فأية وحشية هذه إذا ما قارناها بطريقة دخول الاستعمار والجرائم الكبيرة التي يرتكبها من أجل نشر الحضارة كما يدعي ؟ .

مخاوف الملكة إيزابيلا التي كان يعرف أنها اشد تعصبا للدين المسيحي من زوجها الملك فردناند . وهذا ما جعلها تقنع زوجها على ملاحقة فلول المسلمين الفارين من الأندلس [1] .

وفي عام 903ه / 1497م ، قرر هذا الملك احتلال شمال إفريقيا ، وبدأت بذلك النوايا الواضحة للاسبان [2] . فمشروع الاحتلال الإسباني لبلدان المغرب الإسلامي ،كان مخططا له من طرف الملكين فردناند وإيزابيلا ، لكن موت هذه الأخيرة عام910ه / 1504م أخّر هذا المشروع الذي كان حلم حياتها ، لكنها تركت وصية تدعوا فيها إلى مواصلة هذا المشروع تتضمن ما يلي : " أنه لا ينبغي إيقاف غزو إفريقيا ، وإنهاء الصراع من أجل العقيدة ضد الكفرة (المسلمين) " [3] . فهذه الملكة التي كان لها دور كبير في تحطيم دولة المسلمين بالأندلس ، تركت وصية عند موتها لمن يتولون الملك بعدها ، بأن يحققوا أمنيتها في الحياة ، وهي عدم الكف عن القتال في سبيل الدين [4] .

كما صرحت في وصيتها برغبتها الكبيرة في احتلال تلمسان في الغرب الجزائري ولذلك فقد كانت سياسة اسبانيا تجاه الجزائر فيما بعد واضحة ، حيث تبنت مبدأ ملاحقة المسلمين الفارين من الأندلس ، ومنعهم من محاولة القيام بأي عمل لاسترداد بلادهم وسيادتهم وأنهكت الجزائريين بالحروب والغارات حتى لا تقدم لهم الدعم لاسترجاع بلادهم [5] .

وقد أخذ الكاردينال خمينيس Ximennes ، هذا الحقد الديني الموروث والرغبة في الانتقام من شمال إفريقيا والجزائر مع قهر بلدان المغرب الإسلامي المستقلة ، ومسلمي الأندلس المطرودين من طرف الاسبان . ويبدو هذا واضحا من خلال ما قام به مباشرة بعد احتلاله لبعض سواحل المغرب

---

[1]- الميلي : المرجع السابق ، ج3 ، ص 19 .

[2]- ابن شهرة : المصدر السابق ، ص 121 .

[3] - De Grammont : op.cit , p.5.

[4]- المدني : **حرب الثلاثمائة سنة ...** ، المرجع السابق ، ص ص 79- 80 . والتميمي : ***" الخلفية الدينية للصراع ... "*** ، المرجع السابق ، ص 8 . وحكمت : المرجع السابق ، ص 242 .

[5]- يحي بوعزيز : **موضوعات وقضايا من تاريخ الجزائر والعرب** ، ج1 ، دار الهدى ، الجزائر ، 2009 ، ص 283 .

الأوسط حيث أعلن عن صلاة جماعية بعد أن حول المساجد إلى كنائس ، وقد أقيمت إثر ذلك الأفراح العمومية ، ودامت الصلوات ثمانية أيام احتفالا بهذا الحدث (1) .

وبالتالي تعتبر الخلفية الدينية المحور الأساسي الذي انبثقت منه التحرشات الإسبانية على الإيالات المغربية في القرن السادس عشر ميلادي (2) .كما قام خمينيس بتحويل كل مساجد وهران إلى كنائس من باب التعصب الديني المسيحي ، وأنشأ مكانها معاقل وحصون ، وصوامع جديدة لصد هجمات الأهالي ، وحطّم الكثير من المعالم الحضارية والثقافية منها مسجد البيطار ، والمعالم المحيطة به وجزءًا كبيرا من القصبة (3) . وقام الإسبان أيضا بتحويل الجامع الأعظم مباشرة بعد احتلالهم لوهران إلى كنيسة أطلقوا عليها إسم : كنيسة القديس ميكائيل (4) .

ويتضح لنا جليا من خلال هذا أن العامل الديني يعد من العوامل الأساسية للغزو الإسباني ، وذلك نتيجة للتأييد الذي حظي به الجيش الغازي من طرف الكنيسة ، حيث جنّدت هذه الأخيرة من الأموال والعدة والعتاد ، ما يمكّن الجيش الاسباني من احتلال المغرب الإسلامي بأكمله ، وليس الأوسط فقط (5) .

لكن اتفاق المؤرخين على الصبغة الدينية التي ميزت الاحتلال الاسباني ، لا يعني بأنه الدافع الوحيد الذي جعل الإسبان يقدمون على احتلال المغرب الإسلامي . فالدين مجرد حجة استعملها هؤلاء من أجل تغطية الضعف الإسباني في جوانب عديدة منها الاقتصاد الذي يعتبر الدعامة الأساسية للبلاد ، ولذلك يمكن اعتبار هذا الأخير هو الدافع الأساسي للحملات الاسبانية على المغرب الأوسط والدليل على ذلك هو أن أول عمل قام به الغزاة بعد احتلال المرسى الكبير في الغرب الجزائري هو فتح سوق تجارية في المنطقة كما سيأتي .

---

1 - De Grammont : op.cit , p.8 .

2- التميمي : " *الخلفية الدينية ...*" ، المرجع السابق ، ص ص 9- 16 .

3- ابن شهرة : المصدر السابق ، ص 143 .

4- دراج : المرجع السابق ، ص 121 .

5- عبدلي : المرجع السابق ، ص 277 .

ومن خلال مباحث هذا الفصل يمكن لنا القول : أن الاحتلال أو التوسع الاسباني في المغرب الأوسط لم يكن من قبيل الصدفة والحظ ، وإنما كان مخططا له منذ زمن طويل . وقد سهلت الظروف التي كانت في تلك الفترة على إقدام الإسبان على هذا العمل الذي أتى بثماره في بداية القرن السادس عشر ميلادي . فسقوط غرناطة في النصف الثاني من القرن الخامس عشر كان له كبير الأثر على المغرب الإسلامي بصفة عامة والأوسط بصفة خاصة . وذلك من خلال توقف العلاقات التي كانت تربط البلدين سابقا ، خاصة في المجال الاقتصادي ، إضافة إلى ملاحقة فلول المهاجرين المسلمين من طرف الغزاة الإسبان ، الذين لم يتوقفوا في الأندلس فقط ، وإنما توجهوا إلى المغرب لمواصلة حملات التنصير التي بدأت في غرناطة .

هذا بالإضافة إلى الأحوال الداخلية التي ازدادت تأزما بعد نهاية القرن الخامس عشر وبداية القرن السادس عشر ، بسبب انشغال حكام بني زيان في الصراع على السلطة . هذه الأحوال التي لم تكن غائبة عن أنظار الإسبان الذين أحسنوا استغلالها بشن حملات كثيفة على الجزائر ، كانت ذات طابع اقتصادي تحت غطاء ديني .

تهيأت الظروف والأسباب التي مهدت الطريق للغزو الاسباني للجزائر عامة ، والغرب الجزائري بصفة خاصة ، هذا الغزو الذي بدأ التخطيط له منذ زمن الملكة إيزابيلا ، وتعزز بعد الوصية التي تركتها هذه الأخيرة [1] . وسنحاول من خلال هذا الفصل أن نبين المسار الذي سلكه الغزو الاسباني لسواحل الغرب الجزائري ، ثم محاولاته من أجل التوغل نحو المناطق الداخلية ، واحتلال أكبر قدر ممكن من المدن لتقوية نفوذه في البلاد .

وفي الوقت الذي كان فيه الإسبان ينشطون في الغرب الجزائري ، ظهرت قوة أخرى في الشرق ، بقيادة العثمانيين الذين بدؤوا في التوغل إلى البلاد من الجهة الشرقية .

المبحث الأول :

الحملات الاسبانية على السواحل الغربية للجزائر ، وبعض محاولات التوغل نحو الداخل.

تمكن الإسبان من دراسة أوضاع المغرب الأوسط قبل المجيء إليه ، وذلك بعد أن وصلتهم أخباره عن طريق جواسيسهم في المنطقة كما سبق الإشارة . ولهذا فقد تشجع هؤلاء على شن حملات هجومية على البلاد منذ بداية النصف القرن العاشر الهجري / السادس عشر ميلادي ، بهدف تحقيق جملة من الأهداف الإستراتيجية .

ولقد دفع الحرص الشديد للملك فردناند على غزو السواحل الشمالية لإفريقيا إلى الإسراع في تنفيذ ذلك . لكن موت زوجه المفاجئ عام 910ه /1504م أخّر العدوان إلى وقت لاحق ، وبذلك فإن هذا المشروع أصبح بمثابة واجب على الملك ، كما أنه إرضاء لآخر أمنية لزوجته الملكة إيزابيلا [2] .

---

[1]- ينظر نص الوصية في ص55 من هذا العمل .

[2]- Leon Fey : **Histoire d'Oran , pendant et après la domination espagnole** , T. A. F. E, Oran , 1858 , p.57 . وكذلك Amoura (A) : op.cit , p.126 . وكذلك Fadela Sahri : **Oran mémoire vive** , dar El Gharb , Oran , 2006 , p.17 .

ولهذا فإن أمر التدخل الإسباني على المغرب الأوسط كان متوقعا ، فأي عدو سيستغل ذلك الانحلال . وبذلك بدأت الحملات الاسبانية منذ بداية القرن السادس عشر ، خاصة بعد أن تمكن الإسبان من إسقاط غرناطة وقويت شوكتهم في المنطقة ، وبالتالي كثرت أطماعهم في مهاجمة الإسلام في عقر داره [1] .

والجدير بالذكر هو أن اسبانيا شرعت في تنفيذ مخططها مباشرة بعد عقد اتفاقية توردیسلاس (tordesillas) [2] ، عام900ه/1494م التي تنص على احتلال المغرب الأوسط ، تونس وطرابلس ، بعد أن تعززت قوة الجيش الاسباني بدعم الكنيسة البابوية . وبعد أن تأكد هؤلاء من الأحوال والظروف التي عاشتها المنطقة أواخر القرن الخامس عشر وبداية القرن السادس عشر ميلادي بدؤوا في شن حملات عسكرية هجومية على سواحل الغرب الجزائري . وقد كان منها :

أ – احتلال المرسى الكبير ونتائجه 911ه / 1505م :

بعد أن تحصل الكردينال خمينيس على معلومات هامة تخص مملكة تلمسان من طرف الجاسوس المعروف بلورانز دي باديا ، الذي هيأ لعملية الغزو عن طريق المعلومات التي قدمها ، عمل خمينيس بدوره على إقناع الملك فردناند بفكرة الغزو ، بعد أن تأكد هو الآخر من صحة ما جمعه عن طريق جاسوسه المبعوث إلى المرسى الكبير [3] ، والذي عرف باسم خيرمينو ، هذا

1- المدني :" *تلمسان بين الزيانيين والعثمانيين 1530-1554*" ، الأصالة ، ع 26 ، الجزائر ، 1975، ص39 .

2- اتفاقية عقدت بين اسبانيا والبرتغال بهدف تقسيم مناطق النفوذ ، و أضيفت لها اتفاقية أخرى عام 915ه/1509م تعرف بمعاهدة فيلا فرنكا تم بمقتضاها جعل المستعمرات الاسبانية في الشرق (الجزائر ، تونس وطرابلس) ، والبرتغالية في الغرب (المغرب الأقصى). والاتفاقية الأخيرة كانت بمباركة البابا ألكسندر بورجيا Alexander Borgia ، الذي تولى البابوية عام 898ه/1492م حتى 909ه/1503م ، والذي حرص على إنهاء الوجود الإسلامي في الأندلس ، وتوجيه الحملات الصليبية لاحتلال السواحل الجزائرية . ينظر، دراج : المرجع السابق ، ص 99 – 100.

3- قلعة محصنة على سواحل البحر المتوسط ، ويعتبر مرساها أجمل المراسي في إفريقيا ، ويقول كربخال بأنه يتسع لكثير من السفن التي كانت ترسو به منذ القدم . وقد وافقه الوزان من خلال قوله : " ما أظن أن في الدنيا اكبر منه ، يمكن أن ترسو فيه بسهولة مئات المراكب والسفن في مأمن من كل عاصفة وإعصار " .كما يقول أنه من عادة سفن البندقية أن تلجا إلى المرسى الكبير عند هيجان البحر وترسل بضائعها في قوارب إلى وهران . ينظر= مارمول كربخال : **إفريقيا** ، ج 2 ، تر: محمد حجي وآخرون ، ط1، دار المعرفة ، مصر ، 1989، ص327 . وحسن بن

الأخير الذي كان على دراية تامة بكل الإمكانيات التي تمتلكها المنطقة ، بالإضافة إلى الطرق التي يمكن من خلالها التوغل إلى داخل البلاد ، كما أنه رسم الطرق والأماكن المحيطة بالمرسى الكبير ، لتسهيل مهمة إسقاط المدينة ([1]) .

1 – الإعداد للحملة :

بدأ الاستعداد لاحتلال المرسى الكبير بمنح القيادة إلى عدد من الجنرالات البارزين والجنود الاسبانيين الذين كانت لهم الخبرة في قيادة الحروب . وقد وقع اختيار الملك الكاثوليكي على قائد عام يعرف بالدون دييغو فرنانديز دي قرطبة Don Diégo Hernandez De Gordova ، هذا الأخير الذي ترأس خمسة آلاف جندي ([2]) ، لكن الميلي قدر عدد الجنود الذين كانوا تحت قيادة دييغو بعشرة آلاف جندي دون أن يذكر المصدر الذي أخذ منه هذا العدد ([3]) . وقد عمل الدون دييغو على وضع قيادة الأسطول البحري تحت يد قائد آخر يعرف بالدون ريموند دي كاردونا Don Raymond De Cardone ، وكان ذلك الأسطول يتكون من ستة فرق وعدد من المراكب العسكرية بالإضافة إلى عدد هائل من بواخر النقل ([4]) .

لكن دي غرامون حدد عمارة الأسطول بقوله : بأنها تتكون من سبع سفن شراعية وأربعمائة زورقا من كل الأصناف ومركب سريع للنقل ([5]) . أما سواريز فقد حصر عدد القوات بين ست

محمد الوزان الفاسي المعروف بليون الإفريقي : **وصف إفريقيا** ، تر: محمد حجي ومحمد الأخضر ، ج2 ، ط2 ، دار الغرب الإسلامي ، لبنان ، 1983، ص31 .

[1]- Général G. X. De Sandoval **: *" les inscriptions d'Oran et de Mers-El Kebir (notice historique sur ces deux place depuis la conquête jusqu'à leur abandon en 1792* "** , tr : Monnereau , R.A , T15, 1871 , p p, 177-178.

[2]- L. Fey : op.cit , p. 58 . وكذلك Sandouval : op.cit , p. 179 .

[3]- الميلي : المرجع السابق ، ج 3، ص 22 .

[4]- Diego Suarez De Montanes : ***" Mers-El Kebir* " ,** tr : Berbruger , R . A , T09, 1865 , p . 339 .

[5] - De Grammont : op.cit , p . 05 .

وسبع سفن حربية [1] . وقد ورد لدى فاي بأن الجيش الذي أصبح تحت قيادة الدون دييغو كان قبل ذلك تحت قيادة الماركيز قوماريس Marquis Gomares ، وهو من أبرز الجنرالات في ذلك الوقت [2].

والشيء الملفت للنظر، هو أن بوعزيز خالف الآخرين في أمر قيادة هذا الجيش ، فحسب ماورد لديه أن قائد الحملة هو الماركيز قوماريس وهو الذي شن حملة بحرية تتكون من خمسة آلاف جندي واتجه بها إلى قرية المرسى الكبير وكان ذلك في أواخر أوت 911ه/1505م [3] .

وهذا يفتح المجال لطرح السؤال التالي : هل يمكن لهذا الطرح أن يكون صحيحا ، خاصة وأن فاي قد أقر بأن الجيش قبل أن يقوده دييغو كان تابع لقوماريس ، أم أن بوعزيز قد أخطا في ذكر اسم القائد ؟ .

وإذا رجعنا إلى المصادر التي تحدثت عن الفترة ، فإنها لم تذكر اسم قوماريس كقائد للحملة وإنما تحدثت عن الدون دييغو ، وبالتالي يمكن القول بأن بوعزيز قد يكون أخلط في أسماء القادة . هذا من جانب ، ومن آخر ، فإننا نجد بأن بلحميسي نسب إسقاط مدينة المرسى الكبير إلى الكاردينال خمينيس [4] .

ولقد شرعت اسبانيا في الإعداد للحملة التي وضع البابا من أجل إنجاحها كل الإمكانيات المادية والبشرية تحت تصرف الجنود ، فجمع القساوسة والرهبان كنوزهم وأموالهم من أجل تزويد الجيش المتوجه إلى سواحل المغرب الإسلامي [5] .

---

1 - Suarez : op .cit, p . 261.

2 - L . Fey : op.cit , p. 58.

3- بوعزيز : **وهران** ...، المرجع السابق ص 65 .

4 - Moulay Belhamissi **: Histoire de Mostaganem (des origines et l’occupation française),** C. N. E. H , Alger , 1976 , p59 .

5- دراج : المرجع السابق ، ص 102 . وكذلك عبدلي : المرجع السابق ، ص 277 .

2 – سير الحملة واحتلال المرسى الكبير :

غادر الأسطول الاسباني مدينة مالقة متوجها إلى المرسى الكبير ، لكن الباحثين لم يتفقوا على تحديد الوقت الذي أقلع فيه الأسطول بالضبط . فقد ذكر ابن شهرة بأن تاريخ انطلاق الأسطول كان في 3 سبتمبر 911ه/1505م ، وقد وافقه ساندوفال في نفس اليوم والسنة [1] . أما فاي فقد اتفق معهما في اليوم والشهر لكنه حدد السنة ب: 909 ه /1503 م . ومن المحتمل أن هذا الأخير قد أخطأ في تحديد السنة [2] .

بينما خالف الطمار البقية ، حيث حدد تاريخ مغادرة الأسطول الاسباني ب : 23 أوت 911ه/1505م [3] ، وقد اختلف معه المدني ودراج وسواريز في تحديد اليوم ب: 29 أوت [4] . بينما اكتفى البعض بالقول بأن الأسطول قد غادر في أواخر شهر أوت من نفس العام [5] .

والشيء المتفق عليه هو أن الأسطول قد تعرض إلى رياح معاكسة اضطرته إلى تأجيل الرحيل ، وبالتالي ، بقيت القوة في ميناء ألمرية متجمعة مدة أسبوع كامل ، ولم تغادر المكان إلا في التاسع من نفس الشهر وقد كان ذلك مساءًا [6] .

ولقد كان هذا التأخر لصالح القوات الاسبانية ، وذلك لأن القوات الشعبية التي جاءت للدفاع عن الميناء عندما سمعت بأمر الأسطول المتوجه إلى المرسى الكبير ، ظنت أن الإسبان قد أقلعوا عن الغزو لتأخرهم . ولذلك تراجعوا تاركين حامية لا يزيد عدد أفرادها عن خمسمائة رجل كلفوا

[1]- ابن شهرة : المصدر السابق ، ص 122. و. Sandoval : op.cit , p. 179

[2] - L . Fey : op.cit, p. 58.

[3]- الطمار: المرجع السابق ، ص 213 .

[4] - D . Saurez : op.cit , p. 339.

[5]- الميلي: المرجع السابق ، ج3 ، ص 22 . De Grammont : op.cit , p. 05

[6]- المدني : **حرب الثلاثمائة سنة** ... ، المرجع السابق ص 96 . و . Fey : op.cit , p. 58

بمهمة الاستطلاع والمراقبة . وقد وصل الأسطول الاسباني إلى المرسى الكبير في 11 سبتمبر 911ه / 1505 م [1] .

وقد ذكر سواريز ، بأن الدّون دييغو لم يجد عند وصوله إلى المرسى الكبير سوى أربعمائة جندي للدفاع عن الحامية ، وقد أبدى هذا العدد مقاومة شديدة للاحتلال لكنهم هزموا وتم الاستيلاء على القلعة بعد استشهاد قائد المعركة . وبعدها مباشرة قام الغزاة بوضع شرائعهم ، وجنود لحراسة كل باب من أبواب المرسى التي عملوا على غزوها [2] .

كما حول الدون دييغو المسجد إلى كنيسة ورمم أسوار القلعة التي تم تدميرها بقذائف المدفعية ، وأدخل إصلاحات على الحصن ، حيث وضع مدافع على أسوار المدينة خوفا من تعرضها إلى هجمات انتقامية من السكان . وقد تم اتخاذ القلعة موقعا تنطلق منه قواته لتوسيع نطاق الاحتلال إلى المناطق المجاورة خاصة مدينة وهران التي أصبحت هدفهم الموالي [3] .

ثم تم توقيع هدنة بين الإسبان وأعيان المنطقة أتفق فيها على بعض النقاط ، مقابل الاستسلام وتسليم المدينة ، وأهمها ضمان حياة السكان وحرية الانسحاب دون أي أذى ، شريطة ألا يأخذ

---

[1] - Suarez : op.cit , p .339. Sandouval : op.cit , p .179. وكذا , A . Amoura : op.cit, p.11. و
و المدني : **حرب الثلاثمائة سنة** ... ، المرجع السابق ، ص 96 . وابن شهرة : المصدر السابق ، ص 122 . لكن الميلي قد خالف الآخرين في يوم الإنزال ، بقوله في 10 سبتمبر بعد مغادرة الأسطول في يوم 9 سبتمبر ينظر الميلي : المرجع السابق ، ج3 ، ص23 . ولهذا فلا يمكن الفصل في اليوم الذي تم فيه بالضبط مغادرة الأسطول الاسباني مدينة مالقة ، وذلك لاختلاف الآراء بين المؤرخين ، ومن المرجح أن يكون ذلك في أواخر شهر أوت على حد قول بعضهم ، باعتبار أن الأسطول سيستغرق مدة من الزمن في طريقه إلى ألمرية ، إضافة إلى المدة التي قضاها في المنطقة والتي قدرها الباحثون بأسبوع كما سلف الذكر ، واستغراقه بعد ذلك يومين على الأقل للوصول إلى المرسى الكبير بحكم المسافة بين المنطقتين . بعد أن اتفق العديد من المؤرخين على أن يوم وصول الأسطول كان في 11 سبتمبر 1505م .

[2] - Suarez : op.cit , p. 339 .

[3] - A .Pestemal Djoglom : " ***Mers –El Kebir historique et décrispation de la forteresse*** " , R . A , T84 , 1940 , p . 160. وكذلك De Grammont : op.cit , p .08.

أي شيء من الزاد والمؤونة من طرف السكان ، ولكن هذا الاستسلام لم يأت إلا بعدما فرض حصار على المدينة لخمسين يوما ، حيث أنهكت فيه قوة المجاهدين [1] .

ولما وصل خبر سقوط المرسى الكبير في يد الاحتلال الاسباني ، أرسل الملك الزياني قوة تتكون من 22 ألف جندي من المشاة ، وألفين من الفرسان من أجل تحرير المدينة ، لكن الإسبان كانوا قد أحكموا تحصنهم بها ونصبوا المدافع على أسوارها ، وقد نشبت معارك عديدة بين الطرفين ، لكن دون جدوى [2] .

وقد عبرت القوات الاسبانية عن مدى فرحتها بهذا الانتصار عن طريق ما قاله ألفريز قوماز Alvarez Gomez : " إن الاستبشار في اسبانيا كان كاملا ، بالإعلان عن هذا الانتصار لمدة ثمانية أيام من الصلاة الجماعية التي تردد صداها في الكنائس لشكر كل من ساهم في جلب هذا الانتصار إلى اسبانيا ، وليس فقط للذين عملوا على إعادة الأمن والاستقرار إلى جانبنا ، وإنما إلى الذين عملوا على غزو إفريقيا عن طريق جيشهم أيضا " [3] . ولقد اعتبر غزو المرسى الكبير بالنسبة للإسبان انتصارا كبيرا ، ومحفزا من أجل الإقدام على غزو إفريقيا [4] .

3 – النتائج المترتبة عن احتلال المرسى الكبير :

بعد أن حقق الدون دييغو ذلك الانتصار الكبير عاد إلى اسبانيا للاحتفال علنا بالانجاز الذي قام به ، وقد كان ذلك بطلب من الملك فردناند الذي منحه لقب حاكم المرسى الكبير ، بالإضافة إلى أنه طلب الدعم لتعويض الخسائر التي تلقاها في المعركة ، وترك في المرسى الكبير أحد

[1]- مارمول : المصدر السابق ، ص 318 . و المدني : **حرب الثلاثمائة سنة ...** ، المرجع السابق ، ص 99 . و الميلي : المرجع السابق ، ج3 ، ص 23 . و ابن شهرة : المصدر السابق ، ص 122. وآخرون .

[2]– دراج : المرجع السابق ، ص 104 .

[3] - L . Fey : op.cit , p p. 58-59 .

[4] - Ernest Mercier **: Histoire de l’Afrique septentrional (depuis les Temps les plus reculés jusqu'à la conquête française 1830)** , t 02 , E. L. é , paris , 1868 , p .421 .

القادة الكبار المعروف بالدون ري دي روكاس Don Ruy De Roxas [1] ، الذي ورد لدى فاي باسم الدون رودريك دياز Don Roderic Diaz [2] . أما ساندوفال فقد ذكره باسم الدون ري دياز ألفارو دي روكاس Don Ruy Diaz Alvaro De Roxas ، هذا الأخير الذي قام بجملة من الأعمال أثناء فترة حكمه منها : بعث حملات هجومية على مدينة وهران وإقامة علاقات مع بعض المغاربة ، إلى أن تكمن من جمع عدد كبير من الذخائر والمؤن في مدة قصيرة من حكمه للمنطقة ، وبعد عودة الدون دييغو عام 912ه/1506م وأصبح قائدا على المرسى الكبير ، بدأ بتجهيز جيشه وتدريبه أساليب القتال لمواجهة السكان . وفي هذه الأثناء سمع أن هناك قرية لا تبعد عن المرسى إلا ببضع كيلومترات تعرف بقرية مسرغين [3] ، فقرر أن يهاجمها تحقيقا لبرنامجه في تدريب جنوده من جهة ، ومن جهة أخرى كمحاولة للتوغل نحو الداخل ، بالإضافة إلى الغنائم التي سيتحصل عليها من خلال هذا الهجوم ، والتي كان بحاجة ماسة إليها لدعم نفوذه في المنطقة [4] .

وقد كان الوصول إلى هذه القرية يمر عبر طريقين : الأول عبر البحر وبالتالي يكون مقر مدافع مدينة وهران ، فلا يمكن سلوكه من أجل غزوة مفاجئة لأن حامية وهران سترد ذلك الهجوم ، والطريق الثاني يمر عبر الجبال وهو طريق سهل [5] . ولكن السؤال الذي يمكن أن نطرحه هنا هو: كيف للإسبان أن يتمكنوا من العبور عبر طريق مجهول بالنسبة لغزاة جدد ؟. وبالرغم من ذلك فقد عزم الجنود على مهاجمة مسرغين عبر هذا الطريق ، وبعد اكتمال التجهيزات غادر دييغو

1- De Grammont : op.cit , p. 08 .

2- Fey : op.cit , p. 59.

3- تقع في السهل الممتد شمالي بحيرة وهران الكبرى ، والذي تفصله عن الساحل جبال وعرة وقليلة الارتفاع ، وهي مكان توجد فيه بعض القبائل العربية .وتبعد هذه القرية عن المرسى الكبير بحوالي عشر كيلومترات ، وتقع جنوب غرب مدينة وهران . ينظر : ابن شهرة : مصدر سابق ، ص 122 . والمدني : **حرب الثلاثمائة سنة** ... ، المرجع السابق ، ص 103 .

4- الميلي : المرجع السابق ،ج3 ، ص ص 24- 25 .

5 - De Grammont : op.cit , p. 10.

المرسى الكبير على الساعة التاسعة ليلا من يوم 6 جوان 913ه/ 1507م بجيشه ، تاركا عدد قليلا من رجاله لحماية المدينة [1] تحت قيادة روي دياز . وما كان الفجر يبزغ حتى كانت قرية مسرغين محاصرة من كل جانب ، وبالرغم من هول المفاجأة إلا أن السكان قد واجهوا العدو، لكن قوته كانت كبيرة لذلك انتهت الجولة لصالح الدون دييغو ، الذي تحصل على غنائم كثيرة من وراء هذا الانتصار [2] .

وانتهت المرحلة الأولى من المعركة ، إلا أن المرحلة الثانية قد بدأت مباشرة بعد أن قدم رجال من القرى المجاورة الذين بلغتهم أنباء النكبة التي حلت بإخوانهم ، وذلك عن طريق الذين تمكنوا من مغادرة أرض المعركة لطلب النجدة . وما هي إلا ساعات قليلة حتى التحقوا بركب الإسبان الذين أخذوا معهم الأسلاب والغنائم ، واصطدم الطرفان في معركة سادها الضباب الذي منع الإسبان من استعمال أسلحتهم ورؤية أعدائهم ، وبذلك فقد تمكن العرب من استرجاع غنائمهم خاصة بعد أن توجهت فرقة عسكرية أخرى من حامية وهران وقطعت الطريق أمام الإسبان ، مما دفع بالقائد دييغو إلى التراجع مع عدد قليل من الجنود بعد الهزيمة ، ولم يدخل المرسى الكبير إلا بعد مشاق كبيرة [3] . وحاول في عدة مرات أن يضع حدودا للحامية لكنه لم يتمكن من ذلك بسبب قلة عدد الجنود الذين تركهم في المنطقة لحمايتها ، وبسبب عدم وصول الدعم الكافي [4] . اضطره دييغو للعودة إلى اسبانيا من جديد لطلب الدعم من الملكة جوانا [5] ، التي قررت أن

1- المدني : **حرب الثلاثمائة سنة** ... ، المرجع السابق ، ص 104 .

2 - E . Mercier : op.cit , T2 , p .422 .

3- المدني : المرجع السابق ، ص 105.

4- يعود سبب تأخر الملك فردناند في تقديم الدعم الذي طلبه الدون دييغو إلى دخول اسبانيا في حرب أهلية في حوالي عام 912ه/ 1506م ، والتي شغلت الملك عن الجهات الأخرى , ينظر: .E.Mercier : op.cit , T2 , p. 421

5- هي ابنة إيزابيلا وفردناند 884- 963ه/ 1479- 1555م ، وتسمى جوانا المجنونة ، Juana la Locca ، تزوجت من فليب الجميل Philip le Beau في عام 902ه/ 1496م ، ابن الحاكم الألماني ماكسمليان الأول Maximilien1er ، وقد وصلت إلى العرش بعد وفاة والدها ، وبعدها أصبح ابنها المعروف بشارلكان حاكما على اسبانيا . ينظر ، F . Sahri : op.cit , p. 20 .

أن تمنحه خمسة ألاف جندي ، وتمكن بهذا الدعم من استعادة قوة دفاع المرسى الكبير لصد الهجمات الانتقامية التي قادها السكان [1] .

ب – احتلال وهران ونتائجه 915ه / 1509م :

1 – الإعداد للحملة :

وبعد عودة الدون دييغو إلى المرسى الكبير . قرر أن يترك الجنود الذين جلبهم معه لتحصين المدينة ، وقد كان يقصد من وراء ذلك مفاجأة مدينة وهران .كما فضل أن يدربهم على مهاجمة السكان في معارك جزئية للتعرف على أساليبهم في المقاومة ، بالإضافة إلى أنه حاول استمالة بعض سكان المنطقة ، عن طريق شراء ذمة أحد اليهود وبعض المسلمين من قابضي المكوس في المدينة [2] .

وفي ذلك الوقت كان الملك فردناند ووزيره المعروف بالكاردينال خمينيس Le Cardinal Ximenes، يخططان لشن حملة عسكرية كبيرة على مدينة وهران [3] ، خاصة بعد التقرير الذي أرسله الجاسوس فيانيلي للكاردينال ، والذي اعتبر فيه مدينة وهران من أغنى بلدان المغرب . ولذلك ، فقد أصدر الملك فردناند قرارا ملكيا ينص على اختيار الكاردينال خمينيس كقائد عام للأسطول الغازي ، وكان ذلك في 20 أوت 914ه /1508م [4] . وقد جمع هذا الأخير

[1]- Mercier : op.cit , p. 422 .

[2]– صالح كليل : " *سياسة خير الدين في مواجهة المشروع الاسباني لاحتلال المغرب الأوسط* " ، مذكرة ماجستير تاريخ حديث ومعاصر ، جامعة العقيد الحاج لخضر ، قسم التاريخ ، باتنة ، 2007 ، ص 47 .

[3] - Jean Cazenave : ***"Les gouverneurs d'Oran pendant l'occupation espagnole de cette ville (1505 - 1792) "***, R.A, T 71 , 1930 , p. 275.

[4]- Bernard Caporal : **Oran capitale de beylik de l'ouest (1792-1831)** , edition Alpha , Alger , 2012 , p. 15.

قواته وعين لقيادتها بيدرو نفارو Don Pedro Navarro ، ونتيجة لأهمية هذه الحملة فقد شارك فيها عدد كبير من القادة [1] .

2 – سير الحملة :

غادر الأسطول مدينة قرطاجنة في يوم 16 ماي 915ه/ 1509م ، مع قوة تتألف من ثلاثة وثلاثين سفينة ، وواحد وخمسون زورقا صغيرًا ، وأربع وعشرين ألف جنديا على حسب تقدير دي غرامون [2] . وقد فصّل فاي في عدد الأسطول بقوله يتكون من : 33 سفينة ، و 22 مركب سريع و 06 مراكب شراعية ، و 03 سفن مسطحة ، و19 زورق إنقاذ ، وهيأت للانطلاق على الساعة الثالثة بعد الزوال من نفس اليوم [3] .

وقد نزلت هذه القوة في ميناء المرسى الكبير في اليوم الموالي من انطلاقها ، وانضم هذا الأسطول إلى الجيش الموجود في المنطقة ، ثم تولى الدون بيدرو قيادة فرق من الجنود لتعليمهم أساليب القتال للضغط على المتواجدين في وهران ، وفي هذا الوقت توجه الأسطول لمحاصرة مقدمة المدينة [4] . ولما رأى المسلمون نزول تلك الحشود خرجوا للدفاع عن المدينة ولم يتركوا فيها سوى عدد قليل من المجاهدين ، اعتصموا في المرتفعات الواقعة بين المرسى الكبير ومدينة وهران لمنع الغزاة من التقدم ، لكنهم انهزموا أمام قوة الأسطول الاسباني [5] .

ويعود بسبب سقوط مدينة وهران إلى خيانة أحد اليهود الذين كانوا يعيشون فيها ، ففي الوقت الذي كانت فيه المعركة بين الطرفين على أشدها ، قام حاكم المرسى الكبير بشراء ذمة

1- للاطلاع على القادة ينظر :. L. Fey : op.cit , p. 68

2 - De Grammont : op.cit , p .13 .

3 - Fey : op.cit , p. 68 .

4 - B .Caporal : op.cit , p. 15 .

5- مارمول : المصدر السابق ، ص 330 . و De Grammont : op.cit , p. 13. و Sandoval : op.cit , p. 183.

اليهودي وأعوانه ، واتفقا على أن يقوم بفتح أحد أبواب المدينة ، وبينما كان المجاهدون يقاتلون العدو فتح باب المدينة ودخل منه الإسبان [1] .

وقد اختلفت المصادر في تحديد اسم وهوية اليهودي ، حيث يقول المدني بأنه من مهاجري الأندلس واسمه سطورا ، وكان قابض المكوس العام لمدينة وهران ، وقد اشترى بدوره ذمة اثنين من قابضي المكوس يعملان تحت إمرته وهما : عيسى العربي وبن قانص . وقد وافقه الميلي وبوعزيز في الفكرة [2] . بينما ذكر المزاري والزياني ومارمول أن اسم اليهودي هو الزواوي المعروف بابن زهو بمساعدة من العساسين عيسى بن غريب العريبي والغناس بن طاهر العبدلاوي ، وقد كان شرطهم مقابل المساعدة هو تسليم برج المرسى لليهود [3] .

لكن الوزان ، الذي كتب رحلته في حوالي 931هـ/1525م ، أي بعد ستة عشر عاما من سقوط وهران ، لم يتحدث عن هذه الخيانة في كتابه ، وإنما قال : أن الإسبان تمكنوا من الاستيلاء على وهران لأن السّكان خرجوا يقاتلون بغير نظام ، وتركوا المدينة خالية فعلم الإسبان بذلك ، وأرسلوا عددا كبيرا من جنودهم إلى الجانب الآخر من وهران فلم يجدوا من خصومهم غير النساء ، لذلك دخلوا المدينة بسهولة ، بينما كانت المعركة على أشدها في الخارج [4] .

وقد ذهل المسلمون من هول المفاجأة وتراجعوا إلى داخل المدينة للدفاع عن ديارهم ، فاقتحم الإسبان بقية الأبواب ودخلوا وهران . واستمر المجاهدون في دفاع يائس إلى أن قتل أكثر من أربعة

1- دراج : المرجع السابق ، ص ص 107-109 . وكليل : المرجع السابق ، ص 47. وكذا A . Amoura : op.cit , p. 126.

2- المدني : **حرب الثلاثمائة سنة ...** ، المرجع السابق ، ص 111. الميلي : المرجع السابق ، ج 3 ، ص 26. وبوعزيز : **وهران ...**، المرجع السابق ، ص 67 .

3- المزاري : المصدر السابق ، ص 208 . الزياني : المصدر السابق ، ص ص 141- 142 . مارمول : المصدر السابق ، ص 331 .

4- الوزان : المصدر السابق ، ص 31 .

آلاف مجاهد بالإضافة إلى حصولهم على عدد كبير من الأسرى [1] . وبمجرد دخول الكاردينال خمينيس إلى المدينة حوّل مسجدين إلى كنيستين [2] .

ثم غادر في نوفمبر 915ه/ 1509م إلى اسبانيا تاركا الحكم في يد بيدرو نفارو الذي تلقى فيما بعد أوامر من الملك فردناند بترك مدينة وهران ومهاجمة بجاية ، وأمر الدون دييغو بالعودة إلى وهران لإكمال مهمته السابقة . وذلك بعد أن منحه لقب : " القائد العام لمملكة تلمسان وتونس ، وحاكم منطقة وهران والمرسى الكبير " [3] . ثم تعاقب على حكم المدينة عدد من الحكام بأمر من طرف ملوك اسبانيا إلى غاية خروجهم نهائيا منها في 1207ه/1792م [4] .

ج – نتائج احتلال وهران :

لقد كان لسقوط وهران في يد الإسبان نتائج على مستقبل الجزائر بصفة عامة ، وليس الغرب الجزائري فقط ، ومنها الحملات الهجومية على القبائل والمناطق الداخلية لإخضاعها ، وقد استعملوا العديد من الأساليب لإضعاف القوة السياسية للبلاد ، ولتسهيل مخططهم الرامي إلى التوغل نحو الداخل ، وبعد أن تمكن هؤلاء من احتلال مدينة وهران في 915ه/ 1509م لم يتوقفوا عند ذلك الحد ، وإنما قاموا بشن غارات على المسلمين في الداخل بهدف إخضاعها ، وقد كان لهم ذلك حيث دخلت قبائل عديدة في طاعتهم وسنأتي إلى التفصيل في هذا في الفصل الموالي . ولقد تواصلت حملاتهم إلى أن تمكنوا من ضم جزء كبير من البلاد إلى جانبهم . كما اشترط

---

[1] - M .Belhamissi : op.cit , p. 59.

[2]- المسجد الأول تحول إلى كنيسة تعرف بسانت ياقو Santiago ، والآخر هو مسجد ابن بيطار Ibn Baitar الذي بني في عام 748ه / 1347م ، حوّل في البداية إلى معبد يهودي ثم إلى كنيسة سميت بسانت ماريا Santa Maria ، بعد انتصار الاسبان ... ينظر : Sahri : F. op.cit , p. 26.

[3]- " Capitan general de los reinos de Tremecen ‘y Ténez gobern dor de los plazas de Oran y Marza El Quivir " ينظر: J. Cazenave : op .cit , p. 258 . وكذلك De Grammont : op.cit , p. 16. Caporal : op.cit , p. 15. و E. Mercier : op.cit , p. 423.

[4]- للاطلاع على حكام مدينة وهران ينظر : Cazenave : op.cit , p p. 258 - 300 .

اليهود برج المرسى كمقابل على المساعدة التي قدموها للإسبان في احتلال وهران ، ثم استعمل هذا البرج فيما بعد كواسطة لجباية الضرائب وإخضاع السكان المحليين [1] .

وهذا يعتبر بدوره وسيلة من الوسائل التي استعملها الإسبان في التوغل إلى الداخل . هذا من جهة ، ومن جهة أخرى فإن اللّقب الذي منح إلى الدون دييغو كقائد عام على مملكة تلمسان وتونس وحاكم على المرسى الكبير ووهران ، إنما يدل على حقيقة المشاريع والنوايا الاسبانية ، فهي عبارة عن مقدمة للاستيلاء على مملكة تلمسان . بالإضافة إلى أن احتلال بجاية ، وعنابة وغيرها من المدن الساحلية كان في اعتبار الإسبان مفتاحا للنفاذ إلى داخل البلاد .

المبحث الثاني :

مواصلة حملات التوسع الاسباني نحو الداخل .

لم تتوقف عمليات الغزو الاسباني عند المدن الساحلية فقط ، وإنما واصل الإسبان عن طريق حكامهم في المرسى الكبير ومدينة وهران محاولات التقدم نحو المدن الداخلية . وقد كانت البداية بمحاولة احتلال بعض القرى الداخلية مثل قرية مسرغين كما سبق الذكر ، بالإضافة إلى استعمالهم أسلوب اللين في التعامل مع الأهالي لكسب ودهم وتعاونهم ، وهذا بهدف تسهيل مهمة التوغل نحو الداخل وترسيخ معالم الدولة الاسبانية في بلاد الجزائر ، كما أنهم عملوا على شن حملات عسكرية بقيادة كبار الضباط الإسبان بهدف الوصول إلى مركز الدولة الزيانية في تلمسان .

و لم تكن هذه الحملات وليدة الصراع الذي حدث بين الإخوة في العرش الزياني ، وإنما كان مخطط لها منذ عهد الملكة إيزابلا والملك فردناند ، فبعد أن اجتمعت المعلومات اللازمة لدى الملكة بفضل جواسيسها ، قررت الشروع في مهاجمة تلمسان بعد أن شكلت جيشا يتكون من اثنا عشر

---

[1]- الزياني : المصدر السابق ، ص 142 .

ألف جندي جعلتهم تحت قيادة الكونت دي تانديلا Le Comte De Tandilla ، الذي كان قبل ذلك حاكما على غرناطة .

لكن موت إيزابيلا عام 910ه/ 1504م أوقف الإعداد لهذا الهجوم مؤقتا وبعد أن تمكن الإسبان رسميا من الاستيلاء على المرسى الكبير ثم وهران ، بدؤوا في تطويق مملكة تلمسان [1] ، عن طريق التدخل في الاضطرابات الداخلية لها ، مما جعل حكامها يسعون إلى توقيع معاهدة سلم مع الإسبان لخمس سنوات ، ولقد كانت هذه الاتفاقية موقعة بين الملك الكاثوليكي فردناند وحاكم تلمسان أبو حمو من 917-921ه/ 1511-1516م في مدينة وهران بداية من 20 جوان 1511م ، وبعد انقضاء مدة المعاهدة ، بدأت الهجومات الاسبانية على مملكة تلمسان [2] .

أ – حملة عام 924 ه/ 1518م :

بعد أن تحرر أعيان مملكة تلمسان من الوصاية الملكية ، أصبح الكثير من ذوي الطموح السياسي يجندون إمكانياتهم لمعارضة السلطة القائمة في تلمسان ، وتطور الأمر إلى الأسوء بعد أن دخل الأبناء في صراعات بينهم حول السلطة والعرش كما سلف الذكر [3] ، وهذا ما أدى إلى ظهور خصومات داخلية . وفي عهد السلطان الزياني أبو حمو الثالث ، التزم هذا الأخير بمسالمة الاسبان . وقد تجدد الصراع حول الحكم في مملكة تلمسان عندما تجمع أنصار أخيه أبي زيان ، الذي كان مسجونا قبل ذلك [4] .

واستغل الجنرال الاسباني الماركيز دي غوماريس le marquis de Comarès ، نداء السلطان الزياني أبو حمو الثالث ، الذي توجه إلى مدينة وهران وأعلن تحالفه مع الإسبان لطرد

[1]- الميلي : المرجع السابق ، ج3 ، ص ص 21 – 22 . وكذلك دراج : المرجع السابق ، ص ص 101- 102 .

[2] - F . Braudel : op.cit , p. 224 .

[3]- ينظر المبحث الثاني من الفصل الأول ص ص 35 – 46 .

[4] - Diego De Haedo : **Histoire des rois d'Alger** , tr : De Grammont , A. J. L. é , Alger , 1881, p p. 65 – 66 .

العثمانيين الذين تقدموا إلى مملكة تلمسان في تلك الفترة لنجدة السلطان أبي زيان كما سيأتي . وأرسل الجنرال غوماريس طلبًا إلى الملك الاسباني شارلكان يدعوه أن يرسل له دعما للتمكن من احتلال مملكة تلمسان ، وتشكيل حكومة موالية لهم في المدينة . كما طلب مساعدة عسكرية من أجل تنفيذ ذلك المخطط ، وقد قبل الملك ذلك وزوده بجيش تعداده عشرة آلاف رجل [1] .

وقبل وصول القوات التي طلبها القائد قوماريس أرسل قوة عسكرية تتكون من ثلاثمائة جندي إلى قلعة بني راشد [2] ، التي كانت تحت حكم العثمانيين بعد أن توجه عروج إليها في عام 923ه / 1517م ، وترك بها حامية عسكرية منح قيادتها إلى أخيه إسحاق قبل أن يتوجه إلى تلمسان . وسنأتي إلى التفصيل في هذا في المبحث الموالي .

وبعد وصول الدعم أرسل غوماريس ستمائة جندي بقيادة الدون مارتنيز دي أرغوت [3] Don Martinez De Argote . ، الذي توجه من مدينة وهران ومعه الملك أبو حمو إلى قلعة بني راشد وتمكن من هزيمة الحامية العثمانية هناك ، ثم توجه بجنوده إلى تلمسان ، ولما وصل إلى المدينة ضرب عليها حصارا لستة أشهر ، واستمر الصراع بين الإسبان والعثمانيين إلى أن قتل عروج في جانفي 924ه / 1518م [4] .

وبذلك فقد انتهت هذه الحملة لصالح الإسبان الذين أعادوا تنصيب السلطان أبو حمو الثالث ملكا على تلمسان ، واستمر في خضوعه وخدمته للإسبان إلى غاية وفاته ، كما تواصل التدهور

---

1 - Mercier : op.cit , T3 , p p. 21-22.

2- هوارة أو قلعة بني راشد وهي قلعة صغيرة من ولاية وهران تبعد عن معسكر بنحو ثلاثين كيلومتر وعن مستغانم بخمس وخمسين كم ، وتعتبر من أغنى البلاد زراعيا . وهي إقليم أو إمارة تمتد طولا على مسافة سبعة عشر فرسخا وعرضها على تسعة فراسخ ، وطرفها الجنوبي سهل وشمالها تلال تصلح للزراعة والمراعي ، سكانها بربر من مقاطع من سلالة بني راشد ... ينظر : مارمول : المصدر السابق ، ص 324 . ورضوان : المرجع السابق ، 190.

3- هو قائد القوة العسكرية التي بعثتها الملكة جوانا إلى الدون دييغو في عام 1507م ــ والتي قدمت له المساعدة بعد الهزيمة التي تلقاها في مسرغين ينظر: . De Grammont : op.cit , p p. 09 -10

4- الزياني : المصدر السابق ، ص143 .

والصراع بين أفراد العرش الزياني ، وتركوا الباب مفتوحا أمام تدخل القوى الأجنبية في الشؤون الداخلية للدولة الزيانية ، وهذا ما تسبب في النهاية الحتمية لهذه الدولة ، وفتح الطريق أمام الإسبان لشن حملات عسكرية أخرى لإنهاك مملكة تلمسان والمناطق المجاورة لها .

ب – حملة عام 942 ه/1535م :

بعد الانتصار الذي حققه الإسبان في تلمسان ، انشغل هؤلاء في شن حملات عسكرية على مدينة الجزائر التي كانت تحت حكم العثمانين في تلك الفترة ، لكنهم لم يتمكنوا من احتلال الجزائر بفعل قوة البايلرباي خير الدين الذي أبدى بسالة شديدة في الدفاع عنها . وسنأتي إلى التفصيل في هذا في المبحث الموالي .

ونتيجة لهذا فقد عاد الإسبان إلى الغرب الجزائري ليواصلوا حملاتهم الهادفة إلى إخضاع مملكة تلمسان التي تمثل مركز الحكم الزياني وعاصمة البلاد أيضا . حيث قاد هؤلاء حملة أخرى لاحتلال تلمسان ومهدوا لذلك بغزو ميناء هنين [1] ، الذي يعتبر المرسى الطبيعي تلمسان ، وقد كان ذلك في 938ه/ 1531م . فخلال شهر أوت تلقى القائد الاسباني الدون ألفارو دي بازان Don Alvaro De Bazane أوامر بالانطلاق من مالقة على رأس إحدى عشرة سفينة في طريقها إلى هنين تحمل تجهيزات مختلفة ومؤونة غذائية كافية لشهرين . وقد توقفت هذه القوة في مدينة وهران حيث تزودت بمئتين وخمسين جنديا من أفراد حاميتها ، ثم توجهت إلى هنين . وبالرغم من أن هذه الأخيرة قد حرمت من عدد كبير من أفراد حاميتها إلا أنهم دافعوا عنها بكل بسالة ، ولكن

[1]- مدينة صغيرة ، لها ميناء محروس ببرجين كل واحد منهما في جهة ، وتحيط بها أسوار عالية متينة لاسيما من ناحية البحر ، وتأتي إلى هذا الميناء سنويا سفن من البندقية تحقق أرباحا جسيمة مع تجار تلمسان ، إذ لا يفصل بين هذه المدينة وهنين إلا بعض الأميال . ينظر : الوزان : المصدر السابق ، ص 15 .

عنصر المفاجأة واختلال ميزان القوة بين الطرفين رجّح الكفة لصالح الإسبان ، وبذلك فقد تعرضت المدينة إلى السلب والنهب [1] .

وقد كان الهدف من وراء احتلال هنين هو تطويق مملكة تلمسان ، وبذلك فقد تمكن العدو من احتلال المنطقة والتحصن بها بعد دفاع أبداه السكان الذين لم تكن لهم قيادة ، وكتب الإسبان عن هذه المدينة ما ترجمه المدني : " ... إن امتلاكنا لمدينة هنين سيساعدنا بالأخص على إبقاء ملك تلمسان تحت قبضة أيدينا ، فهو لن يفكر في مهاجمتنا عندما يرانا قد تمكنا من البلاد داخل حدودنا الجديدة وتحصننا بها " [2] . وقد أرسل أسقف طليطلة رسالة إلى الإمبراطور شارلكان يصف له كيفية احتلال ميناء هنين ، الذي يمثل البوابة الوحيدة التي بقيت لأهالي تلمسان بعد احتلال وهران وكان ذلك في رمضان 938ه / 8 سبتمبر 1531م [3] .

وفي عهد الملك الزياني أبي عبد الله بن محمد الثابتي 935 – 947ه / 1528 – 1540م ، تعرضت تلمسان إلى الغزو مرة ثانية ، ففي عام 942ه/ 1535م وجه حاكم وهران المعروف بالكونت دالكوديت حملة أخرى على تلمسان قادها ابن عمه ألونسو مارتينيز دي أنجيلو Alonso Martinez De Angelo ، مصطحبا معه قوة عسكرية قوامها أربعمائة فارس ، وقد كانت الغلبة لأهل تلمسان [4] .

وبالرغم من الهزيمة إلا أن الإسبان واصلوا نشاطهم التجسسي وذلك باستخدام بعض الأهالي من الذين كانوا يكنّون العداوة لملك تلمسان . وقد ورد في خطاب أرسله حاكم هنين الدون

---

[1]- La Primaudaie : ***Document inédits sur l'histoire de l'occupation espagnole en Afrique (1506-1575) , " Lettre de L'Archevêque de Tolède a sa Majesté , 8 septembre 1531 "***, R.A , T19, 1875, p p . 187-188 .

[2]- المدني : **حرب الثلاثمائة سنة** ... ، المرجع السابق ، ص 237 .

[3]- ينظر نص الرسالة في : Primaudaie : ***Document*** ... , ***Lettre de L'Archevêque de Tolède*** **...** ,op.cit , pp. 187-190.

[4]- Paul Ruff : **La domination espagnole a Oran sous le gouvernement du comte D'Alcaudete (1534 - 1558)** , editions Bouchene , 1998 , p. 53 , pp. 55 - 56.

إنيغو دي باليخو باتشيكو Don Inigo De Vallejo Pacheco ، في ربيع الأول 941ه/ 13 مارس 1534م إلى شارل الخامس يخبره فيه عن الأحوال الداخلية لتلمسان بناء على ثلاثة تقارير تجسسية في أيام التاسع والعاشر والحادي عشر من مارس ذكر فيها : " قد أخبروني عادة عما يحدث في داخل المملكة ، وأن المعلومات التي زودوني بها تعد صحيحة على الدوام ولي أن أثق فيما قالوه لي " [1] .

ج – حملة الكونت دالكوديت على تلمسان 950ه/ 1543م :

بعد أن تحصل الإسبان على معلومات هامة حول مملكة تلمسان ، قرر الكونت دالكوديت أن يعمل على إخضاعها لسلطته ، ولأجل ذلك سافر إلى اسبانيا في 9 سبتمبر 949ه/ 1542م لطلب المعدات اللاّزمة للحملة .

وقد تحصل على مساعدة عسكرية تقدر بألف جندي اسباني ، بالإضافة إلى انضمام حوالي أربعمائة من العرب ، ووضع لقيادة الجنود أحد كبار الضباط ، الذين توجهوا إلى مملكة تلمسان . وقد حدث صراع بين القوات الاسبانية ، وقوات أبي زيان أحمد ملك تلمسان في جانفي 950ه / 1543م ، هذا الأخير الذي ألحق هزيمة نكراء بالإسبان وحلفائهم من الأهالي . وإثر ذلك قرر دالكوديت توجيه حملة ضخمة ضد تلمسان يتولى قيادتها بنفسه بعد المساعدة التي تلقاها من اسبانيا وفي 27 جانفي 1543 م ، خرج الكونت دالكوديت من مدينة وهران متوجها إلى تلمسان على رأس قوة عسكرية تتكون من أربعة عشر ألف جندي و خمسمائة فارس [2] .

---

[1]– La Primaudaie : ***"Document ... ", Lettre de D. Inigo de Vallejo , gouverneur de - Hone a Sa Majesté , 13 mars 1534 "***, op.cit , pp . 272 – 273.

[2] - E .Mercier : op.cit , T3 , p. 58.

وكان يرافقه الملك الزياني أبو عبد الله المدعي للسلطة ، وذكر روف بأن الملك أبا زيان قد حاول التفاوض مع الإسبان وعرض عليهم مائتي ألف 200,000 دوقة [1] ، ثم ضاعف المبلغ إلى أربعمائة ألف كمقابل على تخليهم عن فكرة الزحف على المدينة ، لكن الكونت دالكوديت رفض هذا العرض [2] .

وربما يعود سبب هذا الرفض ، إلى الرغبة الشديدة للكونت في توسيع نطاق نفوذه خارج مدينة وهران وإصراره على نهب المدينة ، بالإضافة إلى كونه كان يريد أن يغطي الهزيمة التي تلقاها شارلكان في مهاجمة الجزائر عام 948ه / 1541م . كما يمكن أن يكون ذلك الإصرار من أجل تغطية مصاريف الجيش المتطوع في هذه الحملة والذي كان يعرف بمدى قيمة الغنائم التي سيتحصل عليها من المدينة خاصة وأنهم كانوا يعرفون ثرائها .

وقد واصل الكونت زحفه إلى المملكة ، وفي الخامس من فيفري التقى بجيش أبي زيان المتكون من ثمانية آلاف وأربعمائة جندي [3] ، وقد استمر القتال بين الطرفين لفترة طويلة من الزمن ، وكان عدد الشهداء والخسائر كبيرا في تلمسان . أما الجيش الاسباني ، فقد وصل عدد القتلى لديه ثمانمائة جندي وجرح ثمانمائة واثني عشر آخر ، كان من بينهم ابن الكونت دالكوديت المدعو بالدون مارتين دي قرطبة Don Martin De Cordova [4] .

1- عملة ذهبية كانت تصدرها جمهورية البندقية ، ويتم التعامل بها في أوروبا والولايات العثمانية خلال القرن السادس عشر (فترة موضوع الدراسة) ، ينظر : دراج : المرجع السابق ، ص 92 .

2 - P .Ruff : op.cit , p. 94.

3- عزيز سامح إلتر : **الأتراك العثمانيون في إفريقيا الشمالية** ، ط1 ، دار النهضة العربية ، لبنان ، 1989 ، ص 169 .

4 - Ruff : op .cit , p. 102.

وعلى الرغم من هذا ، فقد تمكن الإسبان من دخول تلمسان ، وكان ذلك في السادس من فيفري عام 1543م ، وتعرضت المدينة بعد ذلك إلى السلب والنهب وانتهاك الحرمات والاعتداء على المقدسات من طرف الجنود الاسبان [1] .

وبعدها عمل دالكوديت على شن حملات أخرى على القبائل المجاورة بغية إخضاعها له واستمر هجومه عشرون يوما ، وبعد مرور خمسة وعشرين يوما على غزو المدينة ، خرج الكونت بنفسه من أجل الاستيلاء على قافلة كبيرة كانت تحمل القمح والشعير لسكان المدينة الفارين . وقد تمكن من الاستيلاء على ثلاثمائة وخمسين جملا ومائة وخمسين رمحا ، وأسر ألف رجل وقتل ستين آخرين [2] .

وفي الأول من مارس 1543م ، عاد دالكوديت إلى وهران مع كل قواته رافضا ترك حامية اسبانية تتكون من ألف ومائتي جندي في تلمسان ، لأنه تلقى معلومات بأن أبا زيان قد جمع قوة معتبرة من المجاهدين ، ويريد أن يقطع عليه طريق العودة إلى وهران . ولذلك فقد أبقى الكونت على قواته مجتمعة ، وفي طريق العودة تعرض إلى هجوم جعله يتلقى خسائر كبيرة [3] .

وبهذا يمكن القول بأن القوات الاسبانية لم تكتف بغزو السواحل الجزائرية في الغرب ، فقط وإنما طالت يدها إلى الداخل ، عن طريق محاولات قادها مجموعة من الجنرالات الكبار في الدولة ، والتي أثمرت عن نتائج لصالح الإسبان . وبالرغم من هذا ، فإن سكان المنطقة حاولوا مقاومة الغزاة بشتى الطرق رغم الإمكانيات القليلة إذا ما قورنت بقوة العدو ، والانقسام الذي منع تنظيم عمليات الرد على الجيش الاسباني . وفي ظل هذا التوسع برزت ردود فعل أخرى بقيادة العثمانيين جاءت من الجهة الشرقية للجزائر ، وهذا ما سنطرق إليه في المبحث الموالي .

---

[1]- بوعزيز : *" المراحل والأدوار ... "* ، المرجع السابق ، ص 26 .

[2] - op.cit , pp. 103 - 104 .

[3] - De Grammont : op.cit , p. 70 .

المبحث الثالث :

تدخل العثمانيين لصد الحملات الاسبانية على الجزائر.

تعرضت الجزائر مند بداية القرن السادس عشر إلى حملات اسبانية كثيفة ، وقد تمكن الإسبان من احتلال معظم المدن الساحلية للجزائر بفعل القوة التي يتمتع بها الجيش الاسباني مقارنة

بالإمكانيات البسيطة للسكان ، وفي ذلك الوقت بدأ الأتراك ينشطون في البحر المتوسط ، فاستنجد السكان بهم لإنقاذ البلاد من السيطرة الاسبانية .

أ – بداية الوجود العثماني في الجزائر :

1 – ظهور الأخوة بربروس :

ففي الوقت الذي برزت فيه طلائع فرسان القديس يوحنا [1] في الحوض الغربي للبحر المتوسط ، ظهر الأخوان عروج وخير الدين والأخ الأكبر لهما المعروف بإسحاق ،كأطراف منافسة لهم في المنطقة . وفي الوقت الذي كانوا ينشطون فيه في البحر المتوسط كانت الدولة العثمانية في مطلع القرن السادس عشر، تسيطر على أوروبا الشرقية ، وآسيا الصغرى وعلى الجزء الأكبر من بلاد اليونان والبلقان ، وتمكنت في عام 922ه / 1516م من فتح بلاد الشام ، ومصر في عام 923ه / 1517م [2] ، ثم توجهت بقوتها إلى البحر المتوسط ، وذلك عن طريق الأخوين عروج وخير الدين ، اللّذان كانا على رأس أسطول عثماني في سبيل الجهاد ضد العدو المسيحي . وقد توجها إلى الحوض الغربي للبحر المتوسط ، قصد إنقاذ المسلمين الفارين من الأندلس من يد الغزاة الإسبان [3] .

2 – توجه الأتراك إلى الجزائر :

1- هم بقايا الحروب الصليبية ، وقد تأسست هذه المنظمة عام 493ه/ 1099م من طرف أحد الفرسان الفرنسيين ، وكانت مهمتها في بداية الأمر هي علاج الحجاج المسيحين في بيت المقدس ، وسرعان ما أخذت تهتم بحماية الطرق التي يسلكها هؤلاء الحجاج إليه . وهكذا تحول هؤلاء الفرسان من رهبان إلى عسكريين ، وشاركوا في جميع الحروب الصليبية ... ينظر: سي يوسف : المرجع السابق ، ص 44 .

2- عمار بن خروف : **العلاقات السياسية بين الجزائر والمغرب في القرن العاشر الهجري / السادس عشر الميلادي** ، ج1 ، دار الأمل ، الجزائر ، 2006 ، ص 20 .

3- عن تقارير تقدم الأخوان عروج وخير الدين إلى الحوض الغربي للبحر المتوسط سنة 910ه / 1504م ، ينظر: Heado : op.cit , p. 06

ففي الوقت الذي كان فيه الأخوان عروج وخير الدين يواجهان المسيحيين في عرض البحر لإنقاذ المسلمين ، كانت السواحل الجزائرية تتعرض إلى هجومات إسبانية عسكرية ، وما إن حل القرن السادس عشر حتى تمكن الإسبان من السيطرة على العديد من المراكز الساحلية سواء في الغرب أو الشرق ، ولذلك استنجد سكان الجزائر بالأتراك لمساعدهم على قمع التوسع الاسباني في بلادهم ، وقد لبى الأخوان عروج وخير الدين نداء السكان وتوجها إلى بجاية ثم إلى باقي مدن الجزائر وكان ذلك بداية من القرن السادس عشر ميلادي .

❖ **بجاية :**

يعتبر سكان بجاية أول من طلب النجدة من عروج ، وقد لبى هذا الأخير الطلب ، و كان ذلك في مطلع عام 918ه / 1512م ، حيث توجه إلى المدينة بأسطول بحري متكون من اثنتا عشرة سفينة على متنها ألف تركي ، كما انضم إليه الآلاف من سكان المناطق الجبلية بقيادة السلطان المخلوع عبد الرحمان [1] ، وبعدها توجه عروج على رأس حامية عسكرية إلى بجاية لمواجهة الإسان ، لكن قوة التحصينات الاسبانية وحسن تسليحها حال دون نجاحه في مهمته ، واضطر إلى الانسحاب [2] .

ويقول خير الدين في مذكراته بأنه أراد منع أخيه من التقدم بجيشه لخطورة الوضع ، لكنه لم يستمع لنصيحة أخيه ، وأمر بالشروع في الهجوم على قلعة بجاية التي كانت تعج بالجنود الإسبان ، وفي أثناء المعركة أصيبت عروج في يده اليسرى، وفقد وعيه من شدة ما كان يعانيه من جراحه [3] .

[1]- تمركز في مدينة قسنطينة ، وفي عهده احتل الإسبان بجاية ودلس ، وقد توجه إلى قلعة بني عباس لمضايقة الإسبان في بجاية ، إلى أن توفي بها . ينظر الميلي : المرجع السابق ، ج2 ، ص 412 .

[2]- De Grammont : op.cit , p. 19 .

[3]- **مذكرات خير الدين بربروس** ، تر : محمد دراج ، ش ص ن ت ، الجزائر ، 2010 ، ص 52 .

وبعد أن اجتمع الأطباء لعلاجه أجمعوا على أن تقطع ذراعه ، لتضررها وعدم إمكانية علاجها ، وقد رفض خير الدين التسليم بهذه الفكرة ، وعرض أموالا ضخمة لمن يعالج أخاه ، لكنه في الأخير تقبل ذلك ، وقد ذكر صاحب الغزوات بأنه ساعد الأطباء في قطع ذراع أخيه [1] .

وفي الوقت الذي كان فيه خير الدين وعروج في تونس لمعالجة هذا الأخير . كان الإسبان يعدون جيشهم للدفاع ، لأنهم كانوا على دراية بأن ذلك الهجوم الذي قاده عروج سوف يتجدد ولن يتوقف عند ذلك الحد ، ولذلك فقد بادر الإسبان إلى طلب النجدة من البلد الأم من جهة ، ومن جهة أخرى عملوا على فتح أبواب الصلح مع السكان في بجاية ، وقد كان لهم ذلك وبالتالي قويت شوكتهم في المنطقة [2] .

❖ **جيجل :**

بالرغم من أن عروج فقد ذراعه إلا أنه لم يفقد عزيمته في الدفاع عن المسلمين ضد النصارى ، حيث أنه عمل على تجديد جيشه خلال عام 919ه/ 1513م بعد أن شفيت جراحه ، وفي ذلك الوقت تمكن الإسبان من احتلال مدينة جيجل في عام 919ه / 1513م . وبعد أن تمكن عروج من تنظيم جيشه توجه إلى المدينة في العام الموالي 920ه /1514م بعد أن استنجد أهلها به . وقد تمكن عروج ومن معه من الجنود من الدخول إلى المدينة في نفس العام [3] . وفي الوقت الذي كان فيه عروج ينصب حاكما على جيجل ، ذهب أخوه خير الدين لإنقاذ بعض مسلمي الأندلس الذين تعالت صرخاتهم لطلب النجدة . وقد بقي خير الدين نحو ثلاثة أشهر تمكن خلالها من جمع بعض المسلمين الذين جاء بهم إلى جيجل [4] .

1- مجهول : **غزوات عروج وخير الدين** ، تصحيح وتعليق : نور الدين عبد القادر ، المطبعة الثعالبية ، الجزائر ، 1934، ص 18 .

2- المدني : **حرب الثلاثمائة سنة ...** ، المرجع السابق ، ص 165 .

3- ابن خروف : المرجع السابق ، ص 20 .

4- مجهول : المصدر السابق ، ص 18-19 .

❖ العودة إلى بجاية :

بعد أن استقر عروج في جيجل تمكن من تكوين جيش منظم علّمه استخدام الأسلحة الجديدة للرماية ، وتوجه به إلى بجاية في أوت عام 1514م ، وقد كان يتكون من عشرين ألف مجاهد ، اشتبكوا في معارك قاسية مع حامية بجاية ، جعلت عروج يتمكن من دراسة الموقع وقوة الجيش الاسباني في نفس الوقت ، وقد دام القتال بين الطرفين ثلاثة أشهر ، تبين خلالها لعروج ورفاقه أنه لا يمكن اقتحام الحصون باستخدام الطرق التقليدية ، ولذلك عاد إلى مركزه في جيجل في نوفمبر [1] .

وفي العام الموالي 921ه /1515م قام عروج بمحاولة أخرى لإنقاذ بجاية بمشاركة سكانها المقيمين في الجبال إلا أنها منيت بالفشل كباقي المحاولات الأخرى [2] . وإذا رجعنا إلى مذكرات خير الدين ، يذكر بأنه قاد مع أخيه حملة على بجاية بعد أن منحهما السلطان سليم الأول سفينتين مجهزتين بسبعة وعشرين مقعدا وستة عشر مدفعا ، تقدموا إلى المدينة واشتبكوا مع الإسبان . وقد أسفر الاشتباك على التحكم في عدد كبير من السفن الاسبانية ، هذه الأخيرة التي نشرت عليها رايات الصليبية وتقدم بها الأخوان نحو بجاية ، ولما رآها الإسبان المتحصنون في القلعة ظنوا أنهم إخوانهم في الدين ، فسمحوا لهم بالتقدم نحوهم . وفي النهاية تمكن عروج وأخوه خير الدين من الاستيلاء على القلعة [3].

والواقع أنه لم يتم تحرير بجاية نهائيا من طرف خير الدين وعروج في هذا الوقت ، وإنما ربح هذان الأخيران معركة تمكنا من خلالها من تحرير قلعة المدينة فقط ، حيث أن المدينة لم تتحرر نهائيا كما هو معروف حتى عهد صالح رايس سنة 962ه / 1554م .

---

[1]- المدني : **حرب الثلاثمائة سنة** ... ، المرجع السابق ، ص 168 .

[2]- De Grammont : op.cit , p. 19.

[3]- **مذكرات** ... ، المصدر السابق ، ص ص 70- 72.

❖ **الجزائر:**

بعد أن استقر عروج في مدينة جيجل ، وتمكن من التقرب من أهلها وكون حكومة موالية للأتراك في المدينة ، ذهب إليه وفد من أهل مدينة الجزائر يلتمسون منه العون لصد العدوان الاسباني عليهم ، وقد قبل عروج دعوتهم لأنه كان ينتظر تلك الفرصة منذ مدة [1] .

وقد ورد لدى هايدو عن استجابته لهذا النداء ما يلي : " كما وعد وفى ، ذلك لأن الميزة العسكرية لهذا الرجل هي ثمرة طبيعية لنفسه الزكية " [2] .

وجهز لذلك ستة عشر سفينة مدعمة بالمدفعية والذخيرة ، وأرسل معها نصف جنده بحرا بينما توجه هو بالنصف المتبقي برا إلى الجزائر ، وانضم إليه خمسة ألاف جندي من بلاد القبائل ، وبدل التوقف في مدينة الجزائر توجه عروج إلى شرشال لأحد مساعديه المدعو بقارة حسن Kara Hassen قد سبقه إليها وأسس فيها إمارة صغيرة يريد من خلالها مزاحمة عروج ، فخشي هذا الأخير من تشتت صفوفه في الوقت الذي كان بحاجة إلى توحدها .

وقد تمكن عروج من الدخول إلى شرشال دون مقاومة ، وقتل المتمرد ثم ترك حامية لحصار المدينة وتوجه بعد ذلك إلى الجزائر [3] . أين حظي باستقبال الأمراء وأعيان ووجهاء المدينة ، وأعداد كبيرة من أهالي المدينة الذين رحبوا به ترحيبا يليق بمقامه [4] .

وبعد أن تمكن عروج من تنظيم أموره في الجزائر أرسل تهديدا إلى الإسبان يحثهم على الانسحاب من قلعة البنيون [1] ، لكنهم رفضوا ذلك فأعد عروج لقتالهم ، وبينما كان يحضر

---

[1]- أحمد سليماني : **تاريخ مدينة الجزائر** ، د م ج ، الجزائر ، 1989 ، ص 11 .

[2]- " Et comme il l'avait dit , il le fit , car qualité principale de cet homme , fruit naturel de sa grande âme ". voire : D . Heado **:** op.cit , p. 17 .

[3]- E .Mercier : op.cit , t3 , p. 16.

[4]- إلتر : المرجع السابق ، ص 53 .

لذلك سمع بخيانة من طرف سالم التومي [2] حاكم الجزائر ، لكن عروج تمكن من قتله وبقي منفردا في التحضير للرد على الإسبان ، وقد كون جيشا قويا بعد أن أخضع القبائل المجاورة منها الثعالبة [3] ، وبذلك فقد تمكن الأتراك من مدينة الجزائر ولم يمضي وقت طويل حتى انضمت شرشال أيضا ، فأصبحوا يتحكمون في ثلاث ولايات هي : جيجل ، والجزائر ، وشرشال . وفي عام 923ه / 1517م تصدى عروج ومن معه من الأتراك والأندلسيين والأهالي ، لأول حملة اسبانية لإخراجهم من مدينة الجزائر ، فمني الإسبان بهزيمة أجبروا إثرها على الانسحاب [4] .

ب- توجه عرّوج إلى الغرب الجزائري وبداية الصراع مع الاسبان

وبعد هذا قرر عروج بأن يلاحق الإسبان الفارين إلى الاحتماء في مدينة وهران التي أصبحت حصنا منيعا يأوي هؤلاء ، ومركزا للغارات الاسبانية على المدن المجاورة .

1 – تحرير مدينة تنس:

بعد أن تمكن عروج وخير الدين من ضم مدينة الجزائر وبعض المدن الأخرى إلى السلطنة العثمانية ، قرر عروج أن يتوجه إلى غرب البلاد . وقد ذكر خير الدين في مذكراته بأنه هو الذي توجه إلى تحرير تنس التي كانت تحت إمرة احد الحكام الزيانيين الموالين للإسبان ، يحي الثابتي الذي ذكرناه سابقا بعد أن ترك أخاه الأكبر إسحاق وعروج في الجزائر ، وتوجه هو إلى تنس مع عشرة سفن تمكن بها من التغلب على أربع سفن اسبانية راسية في ميناء تنس ، وقد ذكر خير الدين

---

[1]- أو ما يعرف بقلعة الصخرة La Benen ، بنيت على جزيرة صخرية ، تبعد عن مدينة الجزائر حوالي 300م .كما ذكر صاحب الغزوات بأنه حصن مجاور لمدينة الجزائر من ناحية البحر ، حيث أن النصارى كانوا يرمون منه بالمدافع على أهل البلاد إلى أن خلصهم خير الدين كما سيأتي ... ينظر : . مجهول : **غزوات** ... ، المصدر السابق ، ص 29 .و إلتر : المرجع السابق ، ص 11

[2]- هو أمير الجزائر ، والذي استنجد بالإخوة بربروس من أجل تخليص بلاده من الهجمات الاسبانية ، ولكنه فيما بعد خشي على منصبه فبدأ في إثارة القلاقل ، مما أدى إلى سوء العلاقة بينه وبين عروج وقتله هذا الأخير في الحمام ونصب نفسه حاكما على الجزائر مكانه بعد أن استمال العديد من أعيان المدينة . ينظر : ابن خروف : المرجع السابق ، ص 21 .

[3]- سليماني : المرجع السابق ، ص 11 .

[4]- دراج : المرجع السابق ، ص 160-161 .

كذلك بأن الأهالي استقبلوه استقبالا حارا لم يكن يتوقعه ، وبذلك قويت شوكته وطارد الإسبان الفارين مع أمير تنس ، وتمكن من أسر ثلاثمائة وخمسين جنديا اسبانيا ، ثم عاد إلى مدينة الجزائر والتقى بأخويه هناك [(1)] .

وبعد هذا النصر رأى الأخوان عروج وخير الدين تقسيم الجزائر إلى مقاطعتين : الأولى شرقية بقيادة خير الدين مقرها مدينة دلس ، والثانية غربية بقيادة عروج مقرها مدينة الجزائر إلى غاية تنس ، وفي هذا الوقت سمع أمير تنس برحيل خير الدين واستقراره في دلس ، فرجع إليها ودخل أهلها من جديد في طاعته ، وبذلك أصبح يغير على الناحية الغربية أين يتواجد عروج ، هذا الأخير الذي طلب من أخيه العودة إلى مدينة الجزائر لينوبه في الحكم ، وتفرغ هو إلى تكوين جيش كبير ، ثم قام باستفتاء العلماء حول أمر حام مدينة تنس ، فأفتوه بإباحة دمه [(2)] ، ولذلك توجه عروج على رأس ألف من الجنود الأتراك وخمسمائة أندلسي نحو المدينة ، وقد تمكن عروج من الانتصار بعد معركة على مقربة من نهر الشلف ، وكان ذلك في صيف جوان 923ه / 1517م [(3)] .

2 – توجه عروج إلى تلمسان:

لم يكد المقام يستقر بعروج في مدينة تنس التي عمل على تنظيمها حسب الإمكانيات المتوفرة ، حتى جاءه وفد كبير من أعيان تلمسان يشكون إليه سوء الحالة التي يعيشونها ، في ظل حكم الملك الزياني أبو حمو الثالث ، ويطلبون منه إعادة السلطان الشرعي للمملكة . وقد توجه عروج إلى تلمسان [(4)] ، واتخذ طريقه عبر الهضاب الداخلية لكي لا يصطدم بالإسبان من ناحية وهران فيصدوه عن تلمسان أو يقطعوا عنه طريق العودة ، وفي طريقه إلى تلمسان مرّ على قلعة بني راشد

[1]- **مذكرات** ... ، المصدر السابق ، ص ص 80- 82 .

[2]- مجهول : **غزوات** ... ، المصدر السابق ، ص 31 -32 .

[3]- Heado : Op.cit , p. 26 .

[4]- ابن خروف : المرجع السابق ، ص 21 . وكذا ، الطمار : المرجع السابق ، ص 233 .

[1] ، التي ترك بها حامية عسكرية تتكون من ستمائة رجل بقيادة أخيه الأكبر إسحاق بن يعقوب ، وأمرهم بالتضييق على الإسبان في وهران ، وعرقلة أعمالهم وتحركاتهم حتى لا يعيقوا سيره نحو تلمسان. وبالرغم من كثرة عدد الجنود المرافقين لأبي حمو ، إلا أنهم لا يملكون من الخبرة ما يمكنهم من مواجهة قوة عروج وجنوده المخصصين للقتال ، وبذلك انهزم أبو حمو شر هزيمة في هذه المعركة ، ثم أعيد السلطان أبو زيان أحمد إلى عرشه بدل عمه أبو حمو ، لكن الفتن والدسائس سرعان ما عادت إلى المملكة ، وهذه المرة كانت ضد عروج الذي لم يتقبله السلطان أبو زيان نفسه ، بالرغم من أنه كان السبب في عودته إلى العرش ، وقد كان هذا لصالح الإسبان ، ولذلك فقد اضطر عروج إلى قتله وأنصاره من أجل أن يكف الأذى عنه وعن المسلمين [2] .

وفي الوقت الذي كان فيه عروج ينظم حكمه في تلمسان كان شارل الخامس يرتقي إلى عرش اسبانيا في عام 922ه / 1516م . وقد أمر حاكم وهران بأن يسخّر كل إمكانياته لإبعاد التوسع العثماني على أنقاض مملكة بني عبد الواد ، وقد أمده بعشرة آلاف رجل لذلك [3] .

وفي عام 924 ه/ 1518م تحركت قوات اسبانية من وهران بقيادة مارتين دي أرغوت ، متوجهة إلى تلمسان بالاشتراك مع القوات الزيانية كما سلف الذكر ، وقد توجه مارتين أولا إلى قلعة بني راشد أين كان إسحاق أخ عروج على رأس حاميته للدفاع عن القلعة [4] .

وقد اشتبك الطرفان في قتال برزت فيه قوة الأتراك بالرغم من قلة عددهم ، ولم يستسلم إسحاق إلا بعد أن وعده الإسبان بتركه يسير إلى تلمسان ويلتحق بأخيه عروج ، لكن جماعة أبي حمو الثالث وضعوا له كمينا واغتالوهم في الطريق ، وكان ذلك في أواخر شهر جانفي 924ه /

---

[1]- رضوان : المرجع السابق ، ص 190 . و المدني : **حرب الثلاثمائة سنة ...** ، المرجع السابق ، ص ص 187 – 188.

[2]- Mercier : op.cit p p. 18 – 19 .

[3]- المدني : **حرب الثلاثمائة سنة ...** ، المرجع السابق ، ص 189 .

[4]- دراج : المرجع السابق ، ص 162 .

1518م [1] ، وبعدها توجه أبو حمو وأنصاره إلى تلمسان ، و فرض عليها حصارا دام ستة وعشرين يوما [2] ، وازدادت قوة الحصار بعدما التحقت قوة إضافية مكونة من عشرة آلاف جندي لمساندة الدون مارتين [3] .

ورغم قلة عدد جنود عروج ، إلا أنه تمكن من الصمود لفترة طويلة من الزمن إلى أن قامت القوات التابعة للسلطان أبي حمو بهجوم مفاجئ على قواته وقتل عدد كبير من رجاله ، فأدرك عروج استحالة المقاومة ، لذلك أمر بإخلاء المدينة متوجها إلى التحصن في قلعة المشور [4] . ودخل أبو حمو وجنوده إلى مدينة تلمسان ومنها توجهوا إلى حصار القلعة ، وبعد أن استمر الحصار فترة طويلة ، قل عدد الجنود المرافقين لعروج ، ثم غُدر بهذا الأخير من طرف جماعة من المسلمين الذين طلبوا الصلاة في يوم العيد في جامع المشور كعاداتهم ، ولما سمح لهم بذلك انهالوا على الأتراك بالقتل [5] .

وقد استغل عروج ظلمة الليل وخرج من بين صفوف الأعداء دون أن يشعر بخروجه أحد من الإسبان إلا بعد فترة طويلة من الزمن ، وذلك من أجل ملاقاة الجيش الذي أرسله أخوه خير الدين بعد سماعه بالأوضاع السيئة في تلمسان والمقدر بألف جندي تركي ، وألفي فارس . وكان بإمكان عروج أن ينسحب مع من معه من الجنود إلى الجزائر ثم يعود بعد أن يستجمع قواه لينتقم لإخوانه ، لكن بحارة الأتراك كانوا يدعون عروج ،" بابا " . ولهذا لم يرد الفرار ويترك جنوده في يد

[1] - إلتر : المرجع السابق ، ص 61 . والمدني : المرجع السابق ، ص 189- 190 .

[2] - مجهول : **غزوات** ... ، المصدر السابق ، ص 34 . وقد اختلف في تحديد مدة الحصار فهناك من قدرها بستة أشهر .

[3] - دراج : المرجع السابق ، ص 162 .

[4] - بنيت قلعة تلمسان الداخلية في المكان الذي نصب فيه يوسف بن تاشفين خيمته أثناء حصاره لأغادير سنة 550ه / 1415م ، وهي على شكل مستطيل ، تقع في الطرف الجنوبي لمدينة تلمسان وفيما بعد اتخذها حكام الموحدين مقرا لهم ، ومن بعدهم بنو مرين وكان ولاتهم يقيمون ويتشاورون فيها ، ولهذا سميت القلعة بقلعة المشور. ينظر: إلتر : المرجع السابق ، ص 60 .

[5] - **مذكرات** ... ، المصدر السابق ، ص 88 .

الإسبان [1] ، الذين لاحقوه بقيادة الفريز غارجيا دي تينيئو Alferz Garcia De Tieno وقاتلهم عروج ورفاقه بالرغم من يده المقطوعة ، وتمكن من قتل مائة اسباني تقريبا ، قبل أن يقتل برمح رماه القائد ألفريز في صدره عام 924ه / 1518م [2] .

وبعدها قطع رأسه وساروا به إلى مدينة وهران ومنها إلى اسبانيا حيث قام الإسبان بالطواف به في مدنهم الكبرى ، ثم توجهوا برأسه إلى أوروبا وأخذت ثيابه كذلك من تلمسان إلى اسبانيا [3] .

وبذلك فقد انتصر الإسبان وأعادوا تنصيب أبي حمو حاكما على مدينة تلمسان واستمرت الأوضاع في التدهور والصراع بين الإخوة حول العرش [4] . وقد تعهد خير الدين على خلافة أخيه في إمارة الجهاد ضد النصارى والمضي في نفس الطريق التي سار فيها أخوه . ولقد أمضى خير الدين كل الشتاء في التجهيز لقتال النصارى دون أن يعطي لنفسه فراغا ، وعمل على تصليح جميع السفن والمدافع والمعدات التي تضررت من الحرب [5] .

وفي صيف عام 1518م شرع الإسبان في شن حملات هجومية على الجزائر من أجل تفكيك سلطة خير الدين هناك ، حيث تحركت القوات الاسبانية بقيادة نائب ملك صقلية هيجو دي منكاد Hugo De Moncade للقضاء على من بقي من الأتراك في مدينة الجزائر ، وقد أمر هذا

1- نفس المصدر ، ص 88 -89 ، ص 92 .

2- إالتر : المرجع السابق ، ص 67 .

3- للمزيد من التفاصيل عن ظروف مقتل عروج ينظر : Berbrugger :" ***la mort du fondateur de la régence d'Alger*** , R.A , t4 , Alger , 1859 , p. 25 .

4- الطمار : المرجع السابق ، ص 236 .

5- **مذكرات** ... ، المصدر السابق ، ص 93 .

القائد سلطان تلمسان بأن يتحرك هو الأخر بقواته نحو الجزائر ولكن الأهالي بقيادة خير الدين تمكنوا من التصدي للإسبان ومقاومتهم قبل وصولهم إلى مدينة الجزائر [1] .

وبعد هذا النصر ، طلب أعيان الجزائر من خير الدين بأن يتولى راية الجهاد ضد النصارى ، لكنه اشترط عليهم أن ينضموا إلى الخلافة العثمانية ، فبايعوا السلطان سليم الأول وخطبوا باسمه ، وأصبحت الجزائر بذلك ولاية عثمانية . وقد عين الخليفة خير الدين بايلرباي على الجزائر ، وبعث إليه بأسطول قوي أزعج الإسبان والأوروبيين عامة ، وكان ذلك بتاريخ أوائل ذي الحجة 925ه / أوائل نوفمبر 1519م [2] .

❖ تحرير قلعة البنيون من الإسبان 936ه / 1529م :

بعد أن تمكن خير الدين من زرع الأمن الداخلي في مدينة الجزائر قرر أن يخلص هذه الأخيرة من قلعة البنيون التي كانت مصدر أذى للجزائر منذ تأسيسسها عام 916ه / 1510م من طرف الاسبان ، وبالتالي فإن طرد هؤلاء من الحصن أضحى ضرورة حتمية حتى يتمكن من بناء ميناء آمن للسفن التي كان يمتلكها .

ولقد كان قائد القلعة آنذاك ، هو الدون مارتين دي فيرغاس Don Martin De Vergas ، الذي كان يملك مائة وخمسين جنديا من أشداء المحاربين جعلوا من الحامية تعاني من ظروف صعبة ، مما جعلها تشكو دائما من نقص المياه [3] . وقد استغل خير الدين هذه الأوضاع وأرسل إلى قائد القلعة يطلب منه الكف عن أذية سكان المدينة ، لكنه لم يأخذ هذا الإنذار بعين الاعتبار وحينها

[1]- Heado : op.cit , p p. 36- 37 .

[2]- حجي : المرجع السابق ، ص 70 .

[3]- De Grammont : op.cit , p. 34 .

نصب خير الدين مدافعه وصوبها نحو القلعة ، وبدأ في قصفها ابتداء من شهر رمضان 936ه / ماي 1529م [1] .

وقد رد الإسبان على هذا الهجوم ، واستمر القتال بين الطرفين مدة خمسة عشر يوما ، وفي ليلة الخميس إلى الجمعة من ماي 1529م اقتربت سفن الجزائريين من القلعة وحاصرتها ، وتوجهوا إلى الداخل أين أسروا عددا من الإسبان ، وقتل من جانب الجيش الجزائري أحد عشر تركيا وخمسة وثلاثون عربيا ، أما الإسبان فقدوا خمسة وستين وأسروا تسعين جنديا منهم ...[2] .

وكان من بينهم قائد القلعة الدون مارتين ، حيث أخذ هذا الأخير إلى خير الدين الذي عامله معاملة تليق بمقامه كقائد عسكري ، وبعدها أمر بتهديم القلعة والسور المحيط بها ، وبذلك أصبح لمدينة الجزائر ميناء يحمي سفنها الراسية من الرياح الشمالية [3] .

وقد أدى تحرير القلعة إلى رغبة الإسبان في الانتقام بمحاولة شن هجوم على مدينة شرشال في عام 938ه / 1531م ، لكن هذه المحاولة باءت بالفشل لقوة تحصين المدينة من طرف عروج ثم خير الدين فيما بعد ، ولهذا فقد هزم الإسبان مرة ثانية وتراجعت قوتهم في الشرق الجزائري [4] .

❖ حملة شارلكان على الجزائر 948ه / 1541م :

بعد أن قرر خير الدين التوجه إلى اسطنبول أقر السلطان العثماني سليمان القانوني حسن آغا [5] واليا على مدينة الجزائر ، كما أنه ولى على قيادة البحر حسن بن خير الدين الذي تبع أثر والده في الحزم والشجاعة .

1- المدني : **حرب الثلاثمائة سنة...** ، المرجع السابق ، ص 215 .

2- De La Primaudaie : ***"Document ...", Lettre d'Alger par un espion juif*** , p . 165 .

3- De Grammont : op.cit, p. 35.

4- إلتر : المرجع السابق ، ص 94 – 95 .

5- ولد في سردينيا وكان أسيرا في إحدى غزوات البحر الجزائرية ، وهو لا يزال طفلا . وقد كان من نصيب خير الدين واعتقه بعدما أسلم ، وقد اظهر حسن نباهة ولباقة في خدمة سيده . وكانت له مهام عسكرية منها الخروج إلى المناطق الداخلية من أجل جباية الضرائب ، وكانت هذه

وقد ظن الإسبان بأن هناك فراغا في صفوف الأتراك بعد سماعهم برحيل خير الدين ، لذلك عزم هؤلاء بقيادة شارلكان على شن حملة كبرى على مدينة الجزائر وكان ذلك في عام 948ه / 1541م . وبالرغم من ضخامة الأسطول المجهز للمواجهة من طرف الإسبان إلا أن حسن آغا أظهر شجاعة كبيرة في صد هذا الهجوم [1] ، ويبدو بأن الثقة التي منحها خير الدين لهذا القائد كانت في محلها ، وقد أثبت ذلك في صده لهجوم شارلكان .

وبعد هذا الانتصار الذي حققه حسن آغا في مدينة الجزائر واستقرار الحكم في هذه الأخيرة ، قرر بأن يتوجه هو الآخر إلى الغرب الجزائري ، وفي أواخر عام 949ه / 1542م توجه إلى تلمسان على رأس قوة عسكرية مؤلفة من ألف وأربعمائة جندي [2] ، لكن الكونت دالكوديت الذي كان يريد أن يمحو آثار الهزيمة بأي انتصار على الأهالي استغل الظروف المعهودة والمتمثلة في الصراع حول العرش لصالحه ، وتمكن من احتلال تلمسان كما سبق الذكر [3] .

وبما أن الفترة الأخيرة من الدولة الزيانية كانت فترة صراع ونزاع ، فقد استغل الاسبان ذلك في التوغل إلى الداخل ، مستعملين في ذلك المنافسة القائمة بين الحكام والقبائل الساخطين على ملوك تلمسان . وبعد أن كانت سيطرة الإسبان لا تتعدى حدود وهران وضواحيها امتدت إلى أبعد من ذلك لا بقوة السلاح ، بل بانقسام المسلمين وتفرقهم [4] .

ومن هذا يمكن القول بأن مملكة تلمسان ، بقيت بين مد وجزر تارة للاسبان وأخرى للأتراك منذ وفاة عروج واستمر وضعها هكذا إلى غاية سقوطها، وهذا ما سنوضحه في نهاية هذا العمل .

هي فرصته في إظهار مواهبه في القتال وحسن القيادة لذلك اختاره خير الدين ليخلفه في الإمارة على الجزائر لاعتقاده بأنه جدير بهذه المهمة . ينظر Heado op. cit , p. 67 . et De Grammont : op.cit , p. 56 .

1- حجي : المرجع السابق ، ص 71 . للتوسع في حملة شارلكان على الجزائر ينظر : المزاري : المصدر السابق ، ص ص 218- 223 . بالإضافة إلى سليماني : المرجع السابق ، ص 17 . ودراج : المرجع السابق ، ص ص 306- 323 . وآخرون .

2- Mercier : op.cit , T3 , p. 58 وكذلك , Ruff : op.cit , p. 90 .

3- صالح عباد: المرجع السابق ، ص 96 .

4- بلحميسي : المرجع السابق ، ص 32 .

وإذا تتبعنا حركة الاحتلال الاسباني للغرب الجزائري فإنه لم تأت سنة 918ه / 1512م حتى كانت سواحل المنطقة تحت رحمة هذا المحتل ، إما بالقوة العسكرية مثل : المرسى الكبير ووهران أو بمحاولة التقرب الى القوة المحلية في البلاد على رأسها ملوك الدولة الزيانية ، وبالتالي فإن السؤال الذي يتبادر إلى أذهاننا هو : ما كان موقف أهالي وزعماء البلاد سواء ملوكا محليين أو شيوخ قبائل أو زعماء دينيين ؟ هل رضوا بهذا الاحتلال ورضخوا له أم أنهم حاولوا طرده من بلادهم ؟ . وهل وقف العثمانيون موقف الملاحظ لانتصارات الاسبان في الغرب الجزائري ، أم أنهم تدخلوا لحماية المنطقة من المسيحية ؟ ، هذا ما سنحاول الإجابة عنه في الفصل الموالي من هذا العمل .

إن المقصود بمصطلح القوى المحلية هو : شيوخ وأعيان القبائل والعلماء والملوك ، والأمراء الذين كانوا يتحكمون في الملك بعدما انقسم المغرب الأوسط إلى مجموعة من الإمارات كما سبق الذكر . وقد خصصنا هذا الفصل من البحث لإبراز دور هذه القوى في الأحداث خلال مرحلة الدراسة القرن 9ه/ 16م . فقد كانت لها علاقات مع الاحتلال الاسباني برزت منذ أن وطأت أقدامهم أرض الغرب الجزائري بداية من المرسى الكبير ووهران .

وبعد أن توجه العثمانيون إلى المنطقة ، ظهر الصراع بين الجانبين لبسط النفوذ وتوسيع الأراضي و كانت مدينة تلمسان عاصمة الزيانيين مسرحا للتنافس بين هاتين القوتين ، فاسبانيا من جهة والدولة العثمانية من جهة أخرى ، إضافة إلى أطماع أمراء العرش المتنازعين على السلطة هم وأتباعهم وبالتالي فقد ظلت مدينة تلمسان بين مد وجزر بسبب ضعف حكامها الذين كانوا يلجؤون إلى هذه القوة أو تلك لمساندتهم إلى غاية نهاية دولتهم .

المبحث الأول:

علاقات الإسبان بالقبائل الخاضعة .

بعد أن تمكن الاحتلال الاسباني من بسط نفوذه في الغرب الجزائري ، استطاع هؤلاء أيضا أن يجدوا طرفا آخر مدعما لهم في داخل البلاد متمثل في القبائل العربية التي كانت مسيطرة على الحكم في المنطقة قبل مجيء الإسبان .فقد رضي بعض شيوخها بأن يصبحوا أتباعا للاستعمار ، ومنحوا له الدعم بمختلف أشكاله ، مما أدى إلى بروز علاقة ود بين الطرفين تجسدت في إبرام صفقات مخزية بالنسبة للتاريخ الإسلامي في المنطقة .

أ – نماذج عن بعض القبائل الخاضعة للإسبان :

بعد اطلاعنا على بعض المصادر والمراجع التي تحدثت عن هذا الموضوع والتي سنشير إليها ، تبين لنا أن عدد القبائل التي تحالفت مع الاحتلال الاسباني لم يكن قليلا [1]، وقد بدأ هذا التحالف

[1]– الزياني : المصدر السابق ، ص 142 .

يظهر منذ احتلال المرسى الكبير عام 911ه / 1505م ، وذلك عندما فتح الإسبان سوقا تجارية بجوار المدينة كما سلف الذكر . وقد تعاون بعض السكان معهم في ذلك مقابل ما كان للإسبان من ذهب وفضة ، بالإضافة إلى الأسلوب الذي اعتمده الدون دييغو خلال فترة إقامته في المرسى الكبير حيث سعى جاهدا إلى كسب ود العرب المجاورين له من أجل دعمه ، وكان ذلك مقابل إغراءات مالية ، وهذا الأسلوب يمكن اعتباره كتوطئة لظهور بوادر التحالف مع القوى المحلية في البلاد ،كما أن تحالف الإسبان مع اليهود والمسلمين في احتلال مدينة وهران يعتبر كذلك كبادرة من بوادر العلاقات بين الطرفين ، حيث أصبح اليهود فيما بعد حكاما على القبائل المجاورة وكانوا يخرجون لجمع الضرائب وتعددت بهم الغارات على تلك القبائل [1] .

1- أهم القبائل وعلاقاتها مع الإسبان :

تعددت القبائل المدعمة للإسبان والتي ورد ذكرها لدى الكثير من الدارسين لفترة الغزو الاسباني للجزائر ، ومنها ما يلي: كرشتل ، قيزة ، حميان ، أولاد عبد الله ، أولاد علي ، الونزارة ، حيث وجد الإسبان لدى هذه القبائل الدعم الضروري الذي ساعدهم على تعزيز نفوذهم في وهران وضواحيها ، وقد كانوا يجندون منها الرجال ويتزودون بالأقوات والأخبار [2] ، كما أنهم قد شاركوا في الحروب إلى جانب الإسبان ضد الأتراك ، وتسرّب البعض الآخر منهم إلى صفوف الأتراك بدعوى المشاركة معهم في الحرب ضد العدو ، ولكن دورهم في هذه الحالة كان عكس ذلك ، وهو إفشاء الأخبار عن مناطق الضعف بالنسبة للقوة الإسلامية المتمثلة في الأتراك [3].

وقد ذكرنا في العناصر السابقة من هذا البحث مثالا عن هذه الأعمال حين طلب بعض أهالي تلمسان الصلاة يوم العيد في جامع المشور ثم غدروا بالأتراك هناك [4] .

1- الزياني : المصدر السابق ، ص 142 .

2- أرزقي شويتام : **المجتمع الجزائري وفعالياته في العهد العثماني (926- 1246ه / 1519- 1830م)** ، دار الكتاب العربي ، الجزائر ، 2009 ، ص 295 .

3- **تاريخ تحرير** ... ، المصدر السابق ، ص 23 .

4- للتفصيل في الحادثة ينظر : ص 86 ، من الفصل الثاني .

بالإضافة إلى أن هذه القبائل والتي سنذكر بعضها في متن هذا الفصل قد أصبحت عناصر أساسية يعتمد عليها المحتل في الحصول على المعلومات المتعلقة بحركات المناوئين له ، حتى أن بعض أبنائها أصبحوا أدلة للعدو يرشدونه في الليل والنهار إلى مواطن هؤلاء ، واتخذ الإسبان منهم جواسيسا وأعوانا ومستشارين لهم [1] .

ولقد ذكر لنا المشرفي في كتابه بهجة الناظر ، والذي يعتبر مصدرنا الرئيسي في هذه الدراسة أسماء القبائل التي أطلق عليها اسم جند الاسبان ومن بينها :

❖ **كرشتل:**

وهم بطن من زناتة ، ينسبون إلى جدهم كرشتل بن محمد بن ثابت بن منديل بن عبد الرحمان المغراوي ، ومسكنهم عند نهر الشلف ثم انتقلوا إلى تمزغران في غرب مستغانم [2] . وتعتبر هذه القبيلة من القبائل المنحازة إلى الدخلاء وكان دورهم هو جلب الأخبار والمعلومات للاسبان [3] . وقد قال المشرفي عن هذه القبيلة ما يلي : " كان شأنهم مع الاسبانيين جلب الأخبار لهم وتغطيس الناس فهم المغاطيس [4] ، ويقال لهم المغطسون ... وقد كان الاسبانيون لا ينقطعون عنهم في البحر لأخذ ما يفتقرون إليه من عندهم ، وكان من الكرشتليين بعض الأعوان للنواحي الشرقية والقبلية ... ".

ولقد بدت أوجه العلاقات والتبعية بين أفراد قبيلة كرشتل والإسبان من خلال كونهم يعملون على تغطيس الناس ، حيث يقال عنهم بأنهم غطسوا إمامهم الذي كان يصلي بهم ، بأن باعوه

1- دراج : المرجع السابق ، ص 143 .

2- عبد القادر المشرفي الجزائري : **بهجة الناظر في أخبار الداخليين تحت ولاية الإسبان بوهران من الأعراب كبني عامر** ، تح: محمد بن عبد الكريم ، دار مكتبة الحياة ، بيروت ، دت ، ص 13.

3- بلحميسي : المرجع السابق ، ص 33.

4- هو لقب أطلقه المسلمون عليهم ، وهي الكلمة التي تعرف بالاسبانية mogatezes ، والتي تعني المخبرين الرئيسين للإسبان وهي مأخوذة من الفعل غطس أي نصر ... للمزيد ينظر: Malki Nordine **: Razzia , butin et esclavage dans l'Oran du16 éme siècle (D' après le manuscrit de Diego Suarez)** , Dar El Gharb , Oran , 2003 , PP. 79-80.

للإسبان في غفلة منه ، كما أنهم كانوا يأتون بصغار المسلمين إلى النصارى ويجلدونهم ثم يبيعونهم إلى الإسبان في وهران مقابل مبالغ مالية ، بالإضافة إلى أنهم كانوا يملكون زوارق يستعملونها في حمل الخضر إلى الإسبان [1] . ويظهر لنا من خلال ما قاله المشرفي ، بأن أفراد القبيلة السالفة الذكر لم يكتفوا بأنهم فضلوا التنصر على الإسلام ، وإنما كانوا يساعدون النصارى الإسبان على فرض دينهم بالغصب على أبناء بلدهم .

❖ **قبائل بني عامر**[2] :

تعتبر قبائل بني عامر التي سبق الحديث عنها ، من القبائل العربية التي استوطنت المغرب الأوسط . وقد لعبت دورا هاما في حوادث النصف الأول من القرن السادس عشر ميلادي حيث أنها أسرعت في زوال بني زيان ، وساهمت في تمركز الإسبان في مدينة وهران وضواحيها لفترة طويلة من الزمن [3] . ويقول مالكي بأن عدد المغاطيس تزايد في المغرب الأوسط في بداية ذلك القرن وذلك بعد أن تحول بنو عامر إلى أفراد في صفوف الجيش الاسباني ، وبذلك أصبحوا يمثلون تاريخ مدينة وهران [4] . وقد كانت هذه القبائل تتشكل أساسا من : بني شافع وبني يعقوب وبني حميد ، وتتمركز في المنطقة الممتدة من تسالة إلى غاية حدود مدينة وهران . وقد اعتمد الاسبان على هؤلاء في تجنيد المحاربين والتموين بالمواد الغذائية [5] .

وكان بنو شافع الذين يعتبرون البطن الأول لبني عامر بالمغرب الأوسط من جند الاسبانيين في وهران وذلك لقرب موطنهم من المدينة ، وينسبون إلى جدهم شافع بن زغبة الهلالي. وقد وصفهم المشرفي بأنهم هم الاسبانيون دون غيرهم من إخوانهم من بني عامر ، فقد كانوا رعية للنصارى

1- المشرفي : المصدر السابق ، ص 13- 14 .

2- ينظر تعريف هذه القبائل في ص 38 من هذا العمل .

3- بلحميسي : المرجع السابق ، ص 33 .

4- Malki : op.cit , p. 82 .

5- شويتام : المرجع السابق ، ص 296 .

وتقوّى بهم هؤلاء واشتدت شوكتهم على المسلمين عن طريق الغارات التي كانوا يشنونها عليهم (1) .

أما البطن الثاني ، فهم بنو يعقوب الذين تنسب لهم أرض اليعقوبية ، ولهم خمسة عشر فرعا منها: ذوي منيع ، أولاد ردّاد ، أولاد عطّاف ، أولاد سليم ...(2) . والثالث هم بنو حميد . وذكر المشرفي بأنهم ينقسمون إلى ستة وستين بطنا ذكرهم في كتابه بهجة الناظر ومنهم : أولاد أحمد ، أولاد زيان ، أولاد مقران ، أولاد يعقوب ، أولاد يحي ، أولاد علي ، أولاد موسى ، أولاد ماضي ، ملوك ...(3) .

وقد ذكر ابن سحنون في الثغر الجماني أن اغلب بني عامر مغاطيس ، حيث قال عنهم : " وقد رضع أكابرهم لبان الكفر في المهد وآباؤهم كانوا أنصارا للكفرة ، وأكثر أمهاتهم بافتراش العلوج لها مشتهرة ..." ،كما أن بني عامر كانوا أشدّ النّاس عداوة للطلبة و حرّضوا الكفّار عليهم في العديد من الأحيان (4) .

والواضح من خلال ما قاله ابن سحنون أنّ العلاقة بين أفراد قبائل بني عامر والنصارى تبدأ منذ الصغر، بحيث يعملون على تدريبهم وتنصيرهم مبكرا لكي يصبحوا مجندين في صفوف الجيش الاسباني للإغارة على المناطق المجاورة ، بالإضافة إلى أنّ كبار بني عامر وشيوخهم وحتى نساؤهم كانوا مناصرين للإسبان ، وكانت النساء يبعن أنفسهن للنّصارى على حد قول ابن سحنون ، وسنحاول التحقق من هذا القول في العناصر الموالية .

ومن القبائل الأخرى التي تحالفت مع النصارى في الغرب الجزائري ، و التي كانت معظمها فروع من بني عامر ، منها :

1- المشرفي : المصدر السابق ، ص 26 .

2- مختار حساني : **تاريخ الدولة الزيانية (الأحوال الاجتماعية)** ، ج3 ، دار الحضارة ، الجزائر ، 2007 ، ص 49- 50 .

3- الشرفي : المصدر السابق ، ص ص 16- 24 .

4- ابن سحنون : المصدر السابق ، ص ص 243- 245 .

❖ قيزة:

يقال لهم " جيدزة" وهم فرقة من بني عامر من أولاد عامر بن إبراهيم نسبة إلى جدهم قيزة بن عامر بن إبراهيم... ويزيد عددهم عن ثلاثة عشر قرية . وقد ذكر المشرفي بأنهم كانوا أشدّ النّاس نصرة للإسبان ، فقد عرف عنهم التجسس على المسلمين وتقديم أخبارهم إلى النصارى ، كما أنهم كانوا يسرقون صبيان ورجال المسلمين ويبيعونهم للإسبان [1] . وقد كان شأنهم في ذلك شأن أفراد قبيلة كرشتل التي سبق الحديث عنها .

وتعود البدايات الأولى لظهور علاقات التحالف بين الإسبان وأفراد قبيلة جيزة الواقعة بين المرسى الكبير ومدينة وهران إلى عام 913ه /1507م أين حاول الدون دييغو غزو قرية مسرغين كما سلف ، حيث أن الطريق الآمن الذي يؤدي إلى هذه القرية لم يكن معروفا بالنسبة للغزاة الجدد ،وهنا يمكن الإجابة على السؤال الذي طرحناه سابقا ، حيث أن هؤلاء تمكنوا من عبور الطريق بدعم من أفراد قبيلة قيزة الذين تحولوا إلى أدلاء للحاكم الاسباني ومنحوا له المساعدة بعد أن اشترى ذمتهم ببعض المال ، كما أنّ شيوخ تلك القبيلة دعموا القائد دييغو بعد نجاته من الموت في الإعداد للحملة على مدينة وهران [2] . وكان لهذا الموقف أثرا واضحا على المسلمين الذين كانوا معارضين للاحتلال ورضخوا لهذا الأخير بعد أن تيقنوا من أن الأمل في النصر ضعيف و أن غارات النصارى لن تتوقف بسبب الدعم الذي تلقوه من طرف إخوانهم الذين تحولوا إلى جماعة من الخونة [3] .

❖ قبيلة حميان :

تقع أراضي هذه القبيلة في جنوب تلمسان وينسب أفرادها إلى جدهم حميان بن عقبة ، وقد كانوا من جند الإسبان والتابعين لهم . ويعتبر أهلها من الأعراب المتنصرة وأصبح الداخلون في

1- المشرفي : المصدر السابق ، ص 28-29 .

2- كليل : المرجع السابق ، ص 46-47 . وكذلك المدني : **حرب الثلاثمائة سنة ...** ، المرجع السابق ، ص 103 .

3- المدني : نفس المرجع ، ص 108 .

طاعة الإسبان من كبار هذه القبيلة شيعتهم الذين ينصروهم ويعتمدون عليهم في جلب الأخبار والسير بهم في الليل والنهار . ولهذا قويت شوكة النصارى وأصبحوا يسيطرون على البلاد بمساعدة هؤلاء وأمثالهم كثيرون [1] .

وقد ذكر الزياني بأن ولاء قوم حميان للاسبان استمر على مدى طويل ، فبعد الغزو الأول لوهران من طرف إبراهيم باشا في أواسط القرن 11ه / 17م صعب حال الاسبان فيها وتعذّر عليهم الوصول إلى الماء ، وقد كان شيخ حميان أول من قدم لهم يد العون [2] ، كما ورد لدى المشرفي بأن شيخ حميان هو الذي دبّر على الإسبان بناء برج مرجاجو ، وهو الحصن المعوف بقلعة سانت كروز Santa Gruz ، وقد قتل هذا الشيخ من طرف الاسبان بعد خشيتهم من أن يدبر طريقة أخرى للقضاء عليهم كما دبّر لمساعدتهم من قبل .

❖ **قبيلة غمرة:**

وهي قبيلة بربرية تتكون من ستة دواوير ، تنسب إلى جدها غمرة البربري وأصلهم من برقة ، وقد قال عنهم المشرفي : بأنهم أشد الناس نصرة للإسبان ، وكانوا لهم سندا في كل شيء .

❖ **قبيلة أولاد عبد الله التالي :**

نسبة إلى جدهم عبد الله التالي بن سقير بن عامر ... وهم فرقة من بني عامر ومن جملة رعية الإسبان بوهران ، وبلغ عددهم ستين دوارا ، وكانوا أشد الناس نصحا وإعانة للإسبان بكل شيء، كما أنهم كانوا مساندين لليهود وتصاهروا معهم ، وقد وصفهم المشرفي قائلا : " ... فلا ترى إلا العامرية في بيت الكافر تجول وأهلها في غاية الفرح ، ولأولاد عبد الله نكاية شديدة للمسلمين " [3] .

1- المزاري : المصدر السابق ، ص 209 .

2- الزياني : المصدر سابق ، ص 146 . وكذلك : **تاريخ تحرير** ... ، المصدر السابق ، ص 142 .

3- المشرفي : المصدر السابق ، ص ص 28-30 .

❖ أولاد علي :

هم فرقة من بني عامر نسبة لجدهم علي بن عامر موطنهم في بلاد ماخوخ [1] ، التي تحتوي على سبعين دوارا ويتميزون بالقوة والشد ، وبالرغم من ذلك رضخوا للإسبان وقدموا لهم العون ، كما شاركوا معهم في عدة معارك ضد الكرط [2] . وبرز دور هذه القبيلة في الجوسسة بصفة خاصة على خلاف القبائل الأخرى التي شاركت بقوتها في الجيوش الاسبانية [3] ،كما قدموا الدعم للإسبان عن طريق ما يملكونه من التبن والحطب والسمن والعسل والخيل و الألبان ، ومن شدة غضب المشرفي على هؤلاء قال عنهم : " أخزاهم الله ولعنهم وأخلى منهم الأرض وصيرهم حطبا لجهنم ..." [4] .

❖ قبيلة الونزارة :

تعتبر هذه القبيلة من القبائل التي رضيت بالتحالف مع الإسبان وهي بطن من بطون أولاد عبد الله نسبة إلى جدهم ونزار بن عبد الله ، يتكون هذا البطن من ستة دواوير تسكن وادي سنان بنواحي تيموشنت ، ثم انتقلوا إلى نواحي تارقة وسكنوا فيها مع قبيلة قيزة ، وقد كانوا يتصفون بالشجاعة والبسالة [5] ، وعندما جاء الإسبان إلى مدينة وهران أصبح الونزارة من جملة جنودهم الذين يعتمدون عليهم كأعوان في الجيش ، وكانوا لصوصا يعتمد عليهم في النهب والسلب [6] .

هذه هي أهم القبائل التي ذكرها المشرفي في مؤلفه بهجة الناظر ومن الملاحظ بأن معظمها قبائل عربية قادمة إلى المغرب الأوسط عبر هجرات مختلفة ، وقد اختارت هذه القبائل بأن تعلن

1- تعرف بثنية ماخوخ وهي اليوم تحمل اسم عين الباردة ، تقع في الطريق العام الذي يؤدي إلى سيدي بلعباس ، وهناك قرية أولاد علي التي تقع في الشمال ببضع كيلومترات ، كما أنها لا تبعد كثيرا عن سيدي بلعباس . ينظر: فكاير : المرجع السابق ، ص 360 .

2- قرية أسست بجبل كان يحمل هذا الاسم من قبل ... للمزيد . ينظر المشرفي : المصدر السابق ، ص 31 .

3- حساني : المرجع السابق ، ج3 ، ص 73 .

4- المصدر السابق ، ص 36- 37 .

5- فكاير : المرجع السابق ، ص 349 .

6- المشرفي : المصدر السابق ، ص 35 .

ولاؤها وتبعيتها للإسبان ، بعد أن استقدمهم يغمراسن بن زيان وأقطعهم الصحراء المحيطة بتلمسان ، جاعلا منهم حواجز بشرية لحماية عاصمته . وبالتالي فقد كانت تمثل خط دفاع وحماية لتلمسان من غارات الحفصيين والمرينين واستمرت في نفس الدور فيما بعد ، حيث أصبحت تعرقل الأتراك عن التقدم إلى الغرب بدعمها للإسبان [1] .

2 – دوافع انضمام قبائل الغرب إلى الإسبان :

يرجع المشرفي سبب خضوع القبائل إلى الطمع وضعف الإيمان . ويقول فكاير أن ذلك راجع إلى تركيبة القبائل وطبيعة العلاقات التي كانت بينها ، حيث نجد أن هناك صراعا قائما بينها تعود جذوره إلى الزمن الذي زحفت فيه قبائل بني هلال من الواحات إلى التلال في القرن 6ه / 12م ، وهذا الصراع أثمر عن وجود إمارات ظلت في قتال دائم وانقسام فيما بينها ، وقد نتج عن ذلك ظهور الخطر الأجنبي البرتغالي والاسباني كما سبق [2].

بينما ذكر حساني بأن الظروف السياسية للدولة الزيانية منذ تأسيسها ، والتي تميزت بالانقسام والصراع مع المرينين والحفصيين، أثرت على قبائل بني هلال التي انتقلت إلى موطن القبائل البربرية كبني توجين وزناتة ، فنشأ بينهما الصراع الذي غذّته القوة الأجنبية لأجل دعم مصالحها . وهذا ما أدى إلى بروز متحالفين معها من الأطراف الداخلية من جهة ، ومن جهة أخرى ، فقد ذكر نفس المؤرخ بأن المناطق التي تتواجد بها هذه القبائل أغلبها أراضي منبسطة لم تسمح لهم بالدفاع عنها لعدم وجود الحصانة الطبيعية ، مما جعلها عرضة للغارات الاسبانية المتكررة ، والتي أجبرتها على الخضوع خوفا من القسوة التي كانوا يعاملون بها [3] .

1- دراج : المرجع السابق ، ص 143 .

2- ينظر ، المشرفي : المصدر السابق ، ص 12 . وفكاير : المرجع السابق ، ص 350 .

3- **تاريخ تحرير** ... ، المصدر السابق ، ص 21- 22 .

كما أرجع دراج أسباب خضوع هذه القبائل إلى : رغبتها في كسب بعض الممتلكات من المحتل بعد تقديم المساعدة أو الخوف من الأذى الذي سيمسها إن لم تعلن تبعيتها ، لكن الملاحظ للدور الذي لعبته هذه القبائل يجد أن عنصر الإكراه لم يكن وحده الدافع لما قاموا به ، وإنما النظرة الضيقة للمصالح المادية والسياسية هي التي جعلتهم يتنازلون ويضحون بالمصلحة الإسلامية . كما أن هوس تلك القبائل في الانتقام من بعضها يعد أحد أهم العوامل الرئيسية التي دفعت القبائل المذكورة إلى أن تقوم بدور العميل الخائن لبلاده [1] .

واستنادا إلى ما تقدم يمكن لنا أن نرجع دوافع انضمام خضوع القبائل السالفة الذكر للإسبان إلى ما يلي :

1 – الموقع الجغرافي القريب من مراكز الوجود الاسباني – وهران والمرسى الكبير – ، ففضلت البقاء في أراضيها لضمان العيش .

2 – الاستفادة من التعامل التجاري مع الإسبان ، وأخذ نصيب من الغنائم المترتبة عن حملات الإسبان على القبائل المحلية .

3 – خشية تلك القبائل من الوقوع تحت السيطرة العثمانية ، وتكون بذلك مرغمة على التحول إلى قبائل الرعية ، مما يجعلها تدفع الضرائب والغرامات .

ولهذه الأسباب ، فضلت تلك القبائل أن تتعامل مع الإسبان ، وتضع نفسها تحت خدمتهم . لكن هذه الأسباب ، تبقى مجرد مبررات فقط للفعل الذي قامت به تلك القبائل ، والذي كانت له نتائج سلبية على البلاد .

ب – صور وملامح العلاقات بين الإسبان والقوى المحلية والنتائج المترتبة عن ذلك :

1– أهم الرسائل المتبادلة بين شيوخ القبائل المتحالفة والنصارى:

[1]- دراج : المرجع السابق ، ص 144 .

بعد أن تعرفنا على بعض القبائل التي كانت موالية للإسبان ارتأينا أنه من الضروري الاعتماد على بعض الرسائل التي تعرض لنا صور العلاقات بين حكام النصارى في مدينة وهران ، وشيوخ وأعيان القبائل التابعة لهم . وتعتبر وثيقة الاستسلام التي كتبها شيوخ وأعيان مدينة مستغانم ومزغران في 917ه/ 11 ماي 1511م [1] ، من أول الوثائق التي تثبت ولاء القوى للسلطة الاسبانية في مدينة وهران ، حيث تبين لنا من خلالها مدى خضوع شيوخ وكبار القبائل للإسبان وتقبلهم لدفع الضرائب بمختلف أشكالها لفترة طويلة من الزمن .

ثم وردت لدى بعض الباحثين في فترة الدراسة بعض الرسائل التي بعثها شيوخ وكبار القبائل المجاورة لمدينة وهران وتلمسان إلى حكام الإسبان المتواجدين في وهران . وتبين لنا من خلالها مدى ولاء هؤلاء للنصارى ، وأهم العروض المقدمة كدليل على خدمتهم وخضوعهم .

وتعتبر هذه الرسائل كمصدر من المصادر التي تدرس العلاقات بين القوى المحلية والإسبان . وقد ترجم المدني بعض الوثائق ، ونشرها في كتاب حرب الثلاثمائة سنة وأخذنا منها بعض الرسائل التي تفيدنا في البحث [2] ، بالإضافة إلى الوثائق الذي ترجمها لبريمودي إلى الفرنسية من الأرشيف الإسباني ونشرها في المجلة الإفريقية [3] .كما اعتمدنا على بعض الرسائل الأخرى المنشورة في المجلة الإفريقية ، والتي تعود جذورها إلى عام 938ه / 1535م وهي تخدم فترة الدراسة [4] .

ولقد أخذنا منها نماذجا لإبراز طبيعة العلاقات بين القوى المحلية المتحالفة ، وحكام الإسبان في الغرب الجزائري .

---

[1]- ينظر نص الوثيقة في الملحق رقم 02 .

[2]- ينظر: المدني : **حرب الثلاثمائة سنة** ... ، المرجع السابق ص ص 251- 268 .

[3]- De La Primaudaie : ***"Document …***", op.cit , pp. 62-77 . pp. 148 - 157 . pp .160 - 193 . pp . 265 - 288 . pp . 337 - 360 . pp .483 - 496 .

[4]- Charles Féraud : ***"Lettre arabes de l'époque de l'occupation espagnole en Algérie "***, R.A , t17, 1873 , p p. 314 -320.

ومن بين الرسائل ما كتبه الرعيل الأول للإمبراطور شارلكان يطلبون فيها المكافأة على أعمالهم وهي كما يقول المدني : " تمثل أقذر ما يمكن أن تنطوي عليه النفس البشرية من سقوط وانحطاط ورذيلة ..." [1] .

وتبين لنا من خلالها بأن الوفد الذي سافر إلى اسبانيا مبعوث من طرف سلطان تنس المعروف بحميدة العبد ، وكافة أولاد أبو بكر وأولاد محمد ، مما يبين بأن هناك عائلات كثيرة رضيت بحكم السلطان شارلكان ، وهذا ما يدعم قول روف : " نعرف أسماء عائلات كبيرة مثل : أولاد عبد الله ، وأولاد موسى ، وأولاد براهن أو إبراهيم ، وعائلة عبد الرحمان بن أسرور ، فهذه العائلات من النبلاء كانت تشمل عددا كبيرا من الرعايا والخدم وقد كانت هذه العائلات الحليفة تزود سكان وهران بالمواد الغذائية وبالمواشي والفحم..." [2] . وقد أعلن هؤلاء بأنهم جند وخدم للإسبان ، ومستعديين للموت من أجل خدمة النصارى ، وهذا ما يبدو واضحا من خلال ما ورد في الرسالة [3] .

❖ رسالة من ابن رضوان إلى الحاكم الإسباني في مدينة وهران :

يعتبر عبد الرحمان بن رضوان أحد شيوخ بني عامر وهو جد الأمير عبد الله من أمه ، وبعد أن حصل صراع بين هذا الأخير وأخيه الملك محمد السابع حول العرش ، وقف الشيخ ابن رضوان مع حفيده وحاول أن يتوسط له لدى الإسبان لكونه حليفا لهم [4] .

ففي الوقت الذي جاءته أخبار عن سفر حاكم مدينة وهران الدون مارتين دي قرطبة بعث له رسالة يستفسر فيها عن سبب سفره ، وتبين لنا من خلالها بأن شيخ بني عامر كان تحت إمرة الإسبان ويعمل لحسابهم ، بالإضافة إلى الأعراب الذين كان يستعملهم كجنود لخدمة حكام

1- المدني : المرجع السابق ، ص 266 .

2- P .Ruff : op.cit , pp .19- 20 .

3- ينظر نص الرسالة في الملحق رقم 04 .

4- المدني : **حرب الثلاثمائة سنة** ... ، المرجع السابق ص 248 .

الإسبان والذين قدموا لهم الكثير من الخدمات ، ويبدو كذلك بأن العلاقة كانت وطيدة بين الدون مارتين وبن رضوان لدرجة أن هذا الأخير تجرأ على أن يبعث برسالة يسأله فيها عن سبب ذهابه إلى إسبانيا .

كما يتضح لنا بأن عائلة بن رضوان كانت كلها موالية للإسبان . وقد ذكر على سبيل المثال ابنه أحمد بن عبد الرحمان بن رضوان ، ومن الملاحظ أيضا بأن الأعراب الذين كانوا تحت إمرة عبد الرحمن بن رضوان كانوا طرفا في تلك العلاقات ، حيث أنهم كانوا تحت خدمة شيخهم الذي يستخدمهم كجنود في صفوف الجيش الإسباني [1] .

بالإضافة إلى هذا فقد كان ابن رضوان يتعاون مع الإسبان في المعارك التي خاضوها ضد القوى المعارضة . وقد وردت لدى لبريمودي إحدى الرسائل التي بعثها هذا الخائن إلى الكونت داكوديت حاكم مدينة وهران ، مؤرخة ب: 2 أو 3 جويلية 1535 م ، وهو يصف المعركة التي خاضها ضد قائد قلعة بني راشد الذي وقع معه في اشتباك على وادي يسر [2] ، أسفر عن هزيمة قائد قلعة بني راشد وانتصار ابن رضوان ومن معه من الجنود الإسبان والعرب ، ويذكر ابن رضوان في هذه الرسالة أيضا بأن الانتصار شرف للإسبان وكان بمساعدتهم له ولأعوانه .

كما نشر نفس المؤرخ من الكونت دالكوديت إلى شارل الخامس ، ذكر فيها بأن ابن رضوان أرسل له رسولا يزوده بمعلومات عن العرب المعادين للإسبان ، ويخبرهم بأنهم تحصلوا على بعض المعلومات المتعلقة بمعسكر المسيحين [3] .

1- ينظر نص الرسالة كاملا في الملحق رقم 05 .

2- ذكر في الرسالة بإسم تفيدة Tifida ، كما يسميه الاسبان ، وهي عبارة عن مدينة صغيرة تعرف تيبدة . ينظر : : La Primaudaie ***Document …, Lettre de Ben Redouan au comte D'Alcaudéte , 2 ou 3 juillet 1535*** , op.cit, pp. 258- 259.

3- De La Primaudaie *:* ***" Document … " , Lettre du comte D'Alcaudéte a sa Majesté , 6 juillet 1535*** , p . 360 .

بالإضافة إلى هذا ، ذكر حساني بأن الجامعي قد اطلع على الرسائل التي كان يحملها الجواسيس من القبائل الموالية للإسبان . ولكنه لم يورد لنا بعض هذه الرسائل في مخطوط فتح مدينة وهران و اكتفى فقط بالقول بأن كتّاب هذه الرسائل هم شيوخ القبائل والأعراش [1] . وهذا ما يفسر الأخطاء اللغوية التي وردت في معظم الرسائل التي اعتمدنا عليها ، فهي مكتوبة بنص بدوي عامي وهذا ما أشار إليه المدني عندما نشر بعض الرسائل المتبادلة بين القبائل وحكام مدينة وهران [2] . ولكن هذا لا ينقص من قيمة ما ورد فيها من حقائق تعتبر مصدرا أساسيا لمعرفة العلاقات التي كانت تربط بين زعماء القبائل والإسبان في منطقة الدراسة والإطار الزماني المدروس .

2 – أهم النتائج المترتبة عن خضوع القبائل :

خلفت التبعية والخضوع الذي أبدته بعض القبائل في الغرب الجزائري للاحتلال الاسباني نتائج كثيرة نذكر منها :

الضرائب المفروضة على المتعاملين مع الإسبان ، والتي كان شيوخ القبائل يدفعونها كمقابل للولاء ، وهذا ما يتضح لنا من خلال الضرائب التي التزم شيوخ ومرابطو مدينة مستغانم ومزغران بدفعها للإسبان مباشرة بعد توقيع وثيقة الاستسلام في 917ه / 1511م [3] .

ولعل من أهم أنواع الضرائب المفروضة عليهم : ضريبة السيغور Seguro، أي المؤن ، وضريبة الثمن Temin ، والأمان Aman ، والرومية Rumia ، وكذا الترجمانية Trujumania ، وكلها ضرائب فرضها الإسبان على القبائل التي أعلنت ولاءها لهؤلاء وكانت ملزمة على دفعها في أوقاتها المحددة . وقد أطلق اسم Moro de paz أو Arabes de paix والتي تعني عرب السلام ، على القبائل الموالية للإسبان والمتحالفة معهم والراضية بدفع الضرائب لهم [4] . كما أن هذا

1- **تاريخ تحرير** ... ، المصدر السابق ، ص 23-24 .

2- المدني : **حرب الثلاثمائة سنة** ... ، المرجع السابق ، ص 252 .

3- De La Primaudaie **:** ***"Document..." ، la capitulation de Mostaganem*** , p . 73.

4- Malki : op. cit , p . 153 .

التعاون ساهم في تعزيز نفوذ الإسبان في المنطقة ، بالإضافة إلى أن تلك القبائل كانت معرضة للإفلاس مباشرة بعد موسم الحصاد لأن معظم المنتوج يوجه إلى اسبانيا كضريبة ،كما عمل الإسبان على إثارة الفتن بين مختلف القبائل العربية المتحالفة عن طريق تحريض طرف على آخر . بالإضافة إلى أن الشيوخ المكلفين بجمع الضرائب وإيصالها إلى الإسبان كانوا ملزمين بتأمين أنفسهم عن طريق تقديم الرهائن التي عادة ما تشمل أولاد الشيوخ أو ذوي قرابتهم (1) .

المبحث الثاني :

علاقات الإسبان بالقبائل المتعاونة .

في الوقت الذي اختارت قبائل بني عامر وغيرها التبعية للإسبان ، فضّلت بعض القبائل الأخرى بأن تتعاون مع الإسبان في حالة قوتهم ، ومع الأتراك أيضا ، وكلا الطرفين متنافسين على منطقة الغرب الجزائري ، وسنحاول أن نذكر بعض هذه القبائل ، ونبرز الدور الذي لعبته في تفعيل الأحداث في المنطقة خاصة قبل سقوط مملكة تلمسان .

أ- نماذج عن بعض المتعاونين مع الإسبان :

1- فكاير : المرجع السابق ، ص 243 . ص 250- 251 .

1- مدينة تنس [1] ، ومستغانم :

تعتبر تنس أول المناطق في الغرب الجزائري التي أعلنت تعاونها مع الإسبان ، وذلك بعد أن تبين لأعيانها وكبارها عدم قدرتهم على مواجهة القوة التي يتمتع بها هؤلاء .

ولقد سبق وأشرنا إلى أن الفترة الأولى من القرن السادس عشر ميلادي تميزت بالفوضى السياسية وصراع الإخوة الزيانيين حول العرش ، ففي الوقت الذي كانت فيه اسبانيا تستعمر البلاد وقعت أزمة داخلية بين أفراد الأسرة الحاكمة في مملكة تلمسان .

وبعد وفاة الملك محمد [2] خلفه ثلاثة أبناء . وقد كان أكبرهم عبد الله وهو الذي آل إليه الحكم [3] . وثانيهم أبو زيان والآخر يحي ، وقد تآمر هذان الأخيران على أخيهما الأكبر لاغتياله ، لكن المؤامرة اكتشفت ، فألقي القبض على أبي زيان وزج به في السجن ، بينما فر أخوه يحي إلى فاس محتميا بملكها ، واستغل الإسبان الفرصة وبسطوا سلطتهم على الأمير الفار يحي الثابتي ، بعد أن قدموا له المساعدة في الوصول إلى عرش تنس وبذلك فقد أصبحت هذه الأخيرة تابعة للاسبان دون مقاومة [4] .

وتعتبر مدينة مستغانم من أهم المدن الساحلية في الغرب الجزائري ، وقد كانت قريبة من وهران ومحصنة بأسوار منيعة ، مما جعل أنظار الإسبان تتوجه إليها منذ احتلالهم لوهران عام 915ه/ 1509م [5] . ونتيجة للأوضاع التي عاشتها البلاد بعد الصراع حول العرش جعل المنطقة معرضة للتهديد الاسباني ، مما أدى بأهالي مستغانم إلى توقيع اتفاقية سلام مع حاكم وهران .

1- تقع على مسافة قريبة من البحر المتوسط ، يحيط بها سور ، وأصلها مستودع تجاري قرطاجي قديم أقام الرومان مكانه مدينة (كارطيناس) كارط- تنس ، ومنها جاء الاسم المتداول حتى اليوم تنس .ينظر: الوزان : المصدر السابق ، ص 35 .

2- يقصد به محمد السابع المعروف بالثابتي نسبة إلى جده بن ثابت محمد الخامس ، وقد تولى الحكم عام 902ه/1492م وتوفي عام 914ه / 1503 " . ينظر : نفس المصدر ، ص 35 .

3- مجهول : **غزوات** ... ، المصدر السابق ، ص 30 .

4- دراج : المرجع السابق ، ص 106.

5- حجي : المرجع السابق ، ص 36. وكذلك . Belhamissi : op.cit , p. 73

وكان ذلك في 26 ماي 917ه/ 1511م يلتزم فيها بمجموعة من الشروط منها : أن يلتزم شيوخ وسكان مستغانم ومزغران [1] بخدمة الملك والملكة بكل وفاء وإخلاص ، وأن يلتزموا بدفع الضرائب في كل أول جوان من كل عام لأمين مخزن مدينة وهران والمرسى الكبير ، وذلك عن طريق البر والبحر [2] .

ولقد كانت هذه الاتفاقية بمثابة الورقة الرابحة للإسبان الذين كسبوا طرفا آخر متعاونا معهم إلى جانب القبائل التي رضيت بالخضوع لهم . وبذلك أصبحت كل من تنس ومستغانم تابعة للإسبان وتقدم المساعدة بموجب الاتفاقية الممضاة بين الطرفين .

2 – أهم الشيوخ المتعاونين مع الإسبان:

برزت العديد من الأسماء التي عرفت بولائها للإسبان ومنهم : شيخ وكبير سويد مولاي عبد الله الزياني المدعو حميده العبد ([3]) ، الذي وصل إلى عرش مدينة تنس بعد أن أعلن ولاءه للنصارى . وكانت بلده أول بلد في الغرب الجزائري تظهر الولاء للإسبان منذ دخولهم ، بحيث توجه حاكمها بنفسه لمواجهة عروج في الشلف لكنه هزم هناك . وبالرغم من ذلك استمر في دعم الإسبان بعد استشهاد عروج ، وتعتبر حركته من أولى الحركات المدعمة للإسبان في الغرب الجزائري [4] .

وذكر المزاري بأن حميده العبد قد حرّض ابنه أحمد بن حميده العبد على غزو هبرة بإعانة من الإسبان ، وهذا ما يدل على أن أفراد عائلة حميده العبد كانت إلى جانب الإسبان [5] . كما ذكر

[1]- تقع على شاطئ البحر المتوسط قريبا من نهر الشلف ، وهي قريبة من مستغانم . وقد شن الإسبان عليها حملة بقيادة بيدرو نفارو أبدى فيها الشعب مقاومة عنيفة لكنها غير متكافئة القوى ، وبدون قيادة حكيمة مما دفع بسكانها إلى توقيع معاهدة الاستسلام مع مستغانم في 26 ماي 1511م . ينظر: الوزان : المصدر السابق ، ص 32. ابن حلوش : المرجع السابق ، ص 38 .

[2]- De La Primaudaie **: Document … " la capitulation… "** , op.cit, , p . 73 .

[3]- معناها حميد الزنجي Amid le Négre ، وذلك لأن بشرته كانت شديدة السواد وهو مولاي أبو عبد الله ، الذي أعلن الولاء للإسبان منذ دخولهم إلى الغرب الجزائري . ينظر : . Heado : op.cit , p. 26

[4]- دراج : المرجع السابق ، ص 331 ، ص 334-335 . وكذا شويتام : **المجتمع** ...، المرجع السابق ، ص 293 .

[5]- المزاري : المصدر السابق ، ص 211 .

فكاير أسماء أخرى كانت متعاونة مع الإسبان ، ومن بينها : أحمد بن علي وأحمد بن بواري ... من الكناستيل بالإضافة إلى محمد بن سحنون ، وإبراهيم بن إهين من مستغانم ...وكلها أسماء لشيوخ قبائل مجاورة لوهران ومدينة تلمسان قدموا مساعدات كبيرة للاحتلال الاسباني [1] .

بالإضافة إلى بعض التجار الذين كانوا يتعاملون مع هؤلاء منهم : الشيخ سليمان الذي أحضر 119 خروفا و 12 بقرة في 12 جوان 917ه / 1511م . بالإضافة إلى الشيخ أحمد المعروف في المصادر الاسبانية ب: Durrahmet ، والشيخ موسى ... وفي عام 922ه / 1516م ، أصبحت مدينة وهران تموّن من طرف شيخين عربيين هما : أبو هاني وأحمد أبو القاسم وبعض الأفراد من قبيلة بني عقبة ، على رأسهم شيخهم . وبعد هذه الفترة تندر الوثائق التي تحتوي على أسماء من السكان المحليين لهم علاقة مباشرة مع الإسبان في وهران [2] .

ومن الشخصيات الأخرى التي كانت تتعامل مع الإسبان شيخ قبيلة الصواولة والمعروف برابح بن صولة العلياوي . وقد ذكر الزياني بأنه كان مع الإسبان عند غزو الرابطة والكرط وهي من القبائل التي كانت معارضة للإسبان ، وقد كان برفقته أولاده الذين أثخنوا في أهل الرابطة والكرط قتلا وتشريدا ولم يرحموا النساء والأطفال ... [3] .

ويعتبر الرايس بورقبة من الرؤساء الذين يتمتعون بنفوذ قوي بجوار تلمسان . وقد كان بدوره من المتعاونين مع الإسبان ، حيث التجأ إلى القائد الاسباني ماركس دي غوماريس وطلب منه مساعدة عسكرية لمواجهة الأتراك وقطع طريق خير الدين المتوجه لمساعدة أخيه عروج ، وبذلك فقد تمكن الإسبان من التقدم إلى قلعة بني راشد [4] .

ب – أهم القبائل المتعاونة مع الإسبان :

1- فكاير : المرجع السابق ، ص 240 .

2- نفس المرجع ، ص 242 .

3- الزياني : المصدر السابق ، ص 142 .

4- إلتر : المرجع السابق ، ص 64 .

1 – تظاهر بعض القبائل بالولاء للإسبان :

لقد انحازت بعض القبائل في الغرب الجزائري إلى الطرف الأقوى سواء كان إسبانيا أو عثمانيا . وقد ذكر شويتام بأن الكثير من القبائل التي كانت موالية للإسبان كانت تتظاهر بذلك فقط ، فالواقع أنها كانت معادية لهم ، وكانت تشن الغارات على المراكز الاسبانية من حين إلى آخر. ولكن الخصومات التي كانت بين تلك القبائل ، جعلت الإسبان يستغلون الفرص لضرب كل طرف على آخر [1] .

وقد ورد لدى المدني تقرير يدعم الكلام الذي ذكره شويتام ، وهذا التقرير موجه من الكونت دالكوديت إلى الإمبراطور وهو مؤرخ في 12 جويلية 942ه / 1535م حيث يقول فيه : " يظهر لي أن العرب الذين كان ابن رضوان يثق بهم ثقة مطلقة والذين لديهم عدته إلى ساعة الحاجة إليها ، لم يكتفوا بخيانته وقلب ظهر المجن له فقط ، بل أنهم قد انضموا لأعدائه ..." [2] .

ويتضح من هذا النص بأن بعض القبائل كانت موالية للإسبان ظاهريا فقط ، ولم تكن مستعدة لدعمهم وحلفائهم من شيوخ القبائل عند ضعفهم ، وإنما كانوا يستغلون ذلك لخدمة مصالحهم . بالإضافة إلى أن هؤلاء كانوا يتّصلون بالقوى المناوئة للإسبان مستغلين في ذلك ضعف حلفائهم ، وإذا عدنا إلى الرسالة التي أرسلها ابن رضوان نجده يقرّ بأن العرب لم يكونوا راضخين له في كل الأوقات ، كما ذكر بأنه في الوقت الذي كان في أمس الحاجة إليهم خذلوه ورفضوا أن يقدموا له الدعم الكافي ... [3] .

وأقرّ روف أيضا بضعف دعم القبائل من خلال قوله : " ... بالرغم من الدعم الذي كان يمنحه العرب المتعاونون مع الإسبان ، إلاّ أنه لم يكن كاف لتغطية كل حاجيات الجنود الإسبان

---

[1]- شويتام : **المجتمع** ... ، المرجع السابق ، ص 296 .

[2]- المدني : **حرب الثلاثمائة سنة** ... ، المرجع السابق ، ص 254 .

[3]- ينظر نص الرسالة في الملحق رقم ، 05 .

وحامية مدينة وهران . وبالتالي فقد كانت اسبانيا هي التي تدفع حاجيات المستعمرة ورسائل الحكام الإسبان مليئة بالمطالب المتعلقة بهذا الموضوع ... " [1] .

ويفهم من هذا النص بأن الدعم الذي كان يقدمه شيوخ القبائل المتعاونة مع الإسبان من غنائم وضرائب كانت غير كافية للإسبان ، وهذا إما يدل على أن متطلبات الجنود كثيرة لم تستطع القوى المحلية تلبيتها ، أو أن هذه الأخيرة كانت مقصرة في تقديمها للعون ، وقد ذكر الميلي بأن الشئ الذي قاله روف شهادة واضحة على عنف المقاومة الشعبية التي اصطدم بها الإسبان حتى من طرف القوى التي كانت متحالفة معها [2] .

2 – قبائل بني راشد :

ذكر حساني نقلا عن الجامعي ، أسماء لبعض القبائل التي لم يكن لها موقف واحد من الغزو الاسباني ، ومن بينها قبائل زناتة وبني راشد ومن عاداهم من الأعراب البعيدة ، فيقول : تارة يدخلون تحت ذمة النصارى وتارة يفرّون ويظهرون عداوتهم ، والإسبان يدسّون فيهم الجواسيس والطلائع المعروفين بالمغاطيس حتى يرصدوا لهم ما يمكن من الأخبار [3] .

ولقد كانت قبائل بني راشد تتعاون مع الإسبان منذ دخولهم إلى الغرب الجزائري ، وهذا ما أكده المشرفي من خلال القصيدة التي نقلها عن ابن القاضي ، حيث تبين بأن بني راشد كانوا إلى جانب بني عامر ، وطلحة ، وسويد وغيرها من القبائل المذكورة في القصيدة [4] . وبعد أن هاجم عروج هذه القبائل أعلنت له الولاء والطاعة دون قتال . وقد منعها من تزويد أسواق مدينة وهران بالمواد الغذائية وبقيت فترة من الزمن تحت قيادة إسحاق أخ عروج إلى غاية مهاجمتها من طرف

1- P . Ruff : op.cit , p. 34 .

2- الميلي : المرجع السابق ، ج3 ، ص 30 .

3- **تاريخ تحرير** ... ، المصدر السابق ، ص 37 .

4- ينظر ، المشرفي : المصدر السابق ، ص 33 .

الإسبان والسلطان أبو حمو ، فتحولت قلعة بني راشد والقبائل الزناتية المجاورة إلى التعاون مع النصارى من جديد (1) .

وبعد الدعوة التي تلقاها خير الدين من طرف الملك عبد الله تمكن من الاستيلاء على مستغانم ومنها توجه إلى قلعة بني راشد التي كانت تابعة للإسبان بعد مقتل إسحاق . وقد تحولت قبائل بني راشد إلى التعاون مع العثمانيين في عهد خير الدين الذي تمكن من استعادة القلعة من الإسبان . وبذلك قطع الطريق البري والبحري ومنع التقدم الاسباني نحو تلمسان (2) .

واستمرت هذه القبائل في ولائها للعثمانيين إلى غاية 950ه / 1543م حيث تبين ذلك بعدما توجه الإسبان لمهاجمة تلمسان بطلب من أبي عبد الله كما سبق ، وعندما وصلت قوات النصارى إلى وادي يسر القريب من المدينة كان هذا الأخير في حالة فيضان بسبب هطول أمطار غزيرة . وفي هذا الوقت كان قائد قلعة بني راشد المعروف بالمنصور بن بوغانة (3) ، ومعه حوالي عشرين ألف مقاتل قد كمنوا للعدو بالقرب من ممر النهر . وفي الثاني من شهر فيفري حدث قتال بين الطرفين ، وبالرغم من البسالة التي أبداها المجاهدون برفقة قائدهم في الدفاع عن أرضهم إلا أن قوة الإسبان مكنتهم من عبور الوادي والتّحصن في إحدى القرى القريبة والتي كانت تابعة للملك الزياني ، وقد كان ذلك في الخامس من فيفري950ه/ 1543 م (4) .

وبالرغم من الخلل الذي أصاب جيش المنصور ، إلا أن عزيمته لم تتوقف عند ذلك فلما كان القائد الاسباني إلفونسو معسكرا في تيبدة أرسل يهوديا يطلب من المنصور بوغاني أن يخلي له الممر إلى تلمسان . ولما تيقن هذا الأخير من ضعف الإسبان توجه إلى تيبدة مع عدد من الأعراب لطلب

1- شويتام : **المجتمع** ... ، المرجع السابق ، ص 293 .

2- دراج : المرجع السابق ، ص 246 .

3- يدعى ابن بوغاني في الروايات الاسبانية والمراسلات الرسمية الاسبانية . وكان عاملا لبني عراش وهو صهر الملك الزياني أبو زيان أحمد . ينظر ، مارمول : المصدر السابق ، ج2 ، ص 313 ، والمدني: **حرب الثلاثمائة سنة** ...، المرجع السابق ، ص 256 .

4- ينظر الميلي : المرجع السابق ، ج 3 ، ص 70 . إلتر : المرجع السابق ، ص 169 . وكذا De Grammont : op.cit , p. 69.

التفاوض ، وفي أثناء ذلك دخل جيش المنصور إلى صفوف المسيحيين وغدر بهم ، وأسر قائد الحامية الاسبانية في تلك المعركة [1] .

لكن قائد قلعة بني راشد غير موقفه من الإسبان ومناصريهم من بني عامر وعلى رأسهم شيخهم وجده عبد الرحمان بن رضوان . ويظهر لنا تغير موقفه من خلال الرسالة التي بعثها إلى السلطان أبو عبد الله في مدينة وهران ، والتي تدل على تخوف المنصور من سوء العاقبة ، وأنه أراد أن يخفف من وطأة الهزيمة التي ألحقها بالكونت دالكوديت ، كما يدعوه إلى التفاوض والاتفاق معه [2] .

وطلب ابن بوغاني في رسالته بأن يجتمع بالسلطان أبي عبد الله ويعرف أحواله في مدينة وهران ،كما أراد أن يستفسر عن مدى إمكانية التفاهم مع الكونت ، وتبين الرسالة أيضا بأنه أعلن عن استعداده للتعاون مع الإسبان في حالة قبولهم للعرض المقدم لهم [3] . وقد رحب الكونت بذلك ، لكونه كان ينتظر مثل هذه الفرصة ليكسب المزيد من الحلفاء خاصة وأنه لم يتبقى إلى جانبه من الأعراب سوى قبائل بني عامر . وبالتالي فإنه سيضمن حليفا آخر يتمثل في بني راشد إلى جانب بني عامر [4] .

ولذلك جهز جيشه وعمل على قيادة الحملة بنفسه على مدينة تلمسان ، ويقول مارمول بأنه التقى بجيش المنصور الذي كانت ترافقه بعض البنات الحسان اللواتي رحّبن بالكونت دالكوديت بقولّهن : " مرحبا بمصلح الإمارة ، حامي اليتامى ، الفارس البطل ... " ، وخاطبنه بعبارات المجاملة يترجمها له أحد أعوانه ثم توجه القائد المنصور بنفسه لمعانقة الكونت ، وتوجها معا إلى تلمسان بعد الانتصار على جيش العثمانيين في تلمسان كما سلف الذكر [5] .

1- مارمول : المصدر السابق ، ج2 ، ص 313 .

2- المدني : **حرب الثلاثمائة سنة ...** ، المرجع السابق ، ص 256 .

3- ينظر نص الرسالة في الملحق رقم 06 .

4- الميلي : المرجع السابق ، ج 3 ، ص 74 .

5- مارمول : المصدر السابق ، ج 2 ، ص 317 .

ومما سبق يمكن القول بان قبائل بني راشد وغيرها من القبائل المذكورة في متن هذا المبحث ، لم تعلن عن خضوعها مباشرة إلى الإسبان كما فعل أقرانهم من بني عامر . وإنما فضلت التعاون مع هؤلاء في حالات القوة ، والانقلاب ضدهم في مراحل الضعف ، وكان الهدف من إظهار هذه المواقف هو خدمة مصالح تلك القبائل في البلاد .

المبحث الثالث :

علاقات الإسبان مع القبائل المعارضة .

بالرغم من أن الاحتلال الاسباني سعى عن طريق حكام النصارى في منطقة الغرب الجزائري إلى تكوين علاقات تحالف مع القوى المحلية التي كانت آنذاك تسيطر على الحكم في البلاد . وقد تمكن من استمالة البعض من ذوي الهمة الضعيفة كما سلف الذكر، إلا أن هناك من رفض الوجود الاستعماري للإسبان في بلادهم ، وقد أبدى هؤلاء معارضة شديدة تجسدت في معارك بين الطرفين من أجل الدفاع عن أرضهم التي سلبت منهم عنوة ودون أي مقابل .

أ – أهم القبائل والقوى المناوئة للإسبان :

1 – نماذج عن بعض القبائل المعارضة وعلاقتها مع الإسبان :

لقد أطلق الإسبان اسم : les moro de guerra والذي يعني العرب المعادية أو عرب الحرب على المجاهدين الذين رفضوا الرضوخ للإسبان ولشروطه ، ورفضوا التحالف معه ، ولم يقبلوا بدفع ضريبة السيغور أو أية ضريبة أخرى . وقد كان هؤلاء هم الأعداء الرئيسيون للنصارى لأن عدم الالتزام بدفع الضرائب يعني عدم الاعتراف بالسيادة الاسبانية [1] .

وذكرت لنا المصادر الدارسة للفترة نماذج عن بعض القبائل التي رفضت الغزو الاسباني وأبدت مقاومة شديدة له ، وسنحاول أن نذكرها حسب ما توفر لدينا من مصادر ومراجع . ويبدو بأن الرفض والمعارضة للإسبان بدأ منذ أن جاء الغزاة إلى المرسى الكبير في عام 911ه / 1505م ، وذلك من خلال المقاومة الشديدة التي دامت لثلاثة أيام بالرغم من قلة عدد المسلمين والتي أدت إلى استشهاد قائد الحامية وشيخها . وقد ذكر لنا المدني اسم أحد الشبان الذين شاركوا في المعركة ، وهو موسى بن علي الذي كان يحمّس ويحفّز السكان على الدفاع عن البلاد لكن دون جدوى [2] .

---

[1]- Malki : op.cit , p. 154 .

[2]- المدني : **حرب الثلاثمائة سنة** ... ، المرجع السابق ، ص 97 .

وبعد أن دخل الإسبان قرية مسرغين وسمع أهل القرى المجاورة بذلك ، عمل شيوخها على جمع جنودهم من أجل حماية إخوانهم المسلمين ، الذين أسرعوا بروح قتالية عالية لمواجهة الخطر الداهم ، و أسفر القتال عن أول هزيمة للإسبان على أرض الغرب الجزائري وعودة قائدهم مذلولا إلى وكره في المرسى الكبير [1] .

وقد ذكر لنا المزاري أسماء لبعض القبائل والقرى [2] ، التي كانت رافضة للإسبان ، وأهمها قبيلة مخيس والرفاقة ، التي تقع بين البحر وجبل هيدور مع جبل جيزة المجاور لمدينة وهران ، وتعتبر هذه القبائل خارجة عن طاعة الإسبان ورفضت الخضوع لهم [3] .

كما ذكر لنا المشرفي بأن قبائل هبرة [4] ، والبرجية ومجاهر وغيرها لم تدخل تحت طاعة النصارى الاسبانيين أصلا . وقد كان لهبرة حروب عظيمة مع الاسبانيين وأعوانهم من أهالي سويد على رأسهم شيخهم حميدة العبد كما سلف.

وقال عنهم المزاري ما يلي : " ... هؤلاء من أولاد مقداد بن مهاجر بن سويد بن عمارة بن مالك بن زغبة ..." . وقد كان هؤلاء معارضون للإسبان و لم يتقبلوا الخضوع للاحتلال من البداية ، وتتكون قبائل هبرة من تسعة بطون وكلها معارضة للإسبان وهي : أولاد دعماش ، أولاد مكثر ، أولاد هداج ، أولاد ملال ، أولاد فطاس ، أولاد عنان ، وأولاد داود صواق بن هبرة ، أولاد عزيزة ، الدواودية ، وأولاد بن هبرة ...، وذكر نفس المؤلف بعض شيوخ هذه القبائل المعارضين للإسبان ومنهم : محمد بن داود آغة الدوايري وأخوه السيد عبد القادر بن داود آغة سعيدة ، وأبنائهما الذين كانوا أعيان المخزن وقتئذ بوهران . وقد كان لهبرة قتال عنيف مع الإسبان وأحلافهم من قبيلة سويد ولشدة القتال الذي أبداه سكان هبرة فقد شبههم المزاري

1- ينظر الفصل الثاني ، ص 66 – 67 .

2- ينظر موقع القبائل في الملحق رقم : 04 .

3- المزاري : المصدر السابق ، ص 209 .

4- هم فرقة من السويد ، يعتبرون أنفسهم من أصل مجاهر بن سويد ، وتوجد قبيلة السويد في الجنوب الشرقي من زمورة عمالة وهران . ينظر المشرفي: المصدر السابق ، ص 36.

بالأسود الهائجة ، وشاركهم في ذلك فرع من أولاد هداج بن هبرة ، بالإضافة إلى بني شقران الذين دعموا أهالي هبرة في التصدي للإسبان الذين كانوا مدعمين من طرف أولاد علي من بني عامر ،كما كان لهبرة دور في نجدة إخوانهم في مسرغين وتمكنوا من تحرير الأسرى الذين كانوا لدى الاسبان آنذاك [1] .

وذكر سعيدوني بعض القبائل المخزنية الأخرى التي كانت تتمركز في السهول الوهرانية مما عرقل حركة تقدم الإسبان وعلى رأسها قبيلة الزمالة والدواير التي ذكرنا أحد شيوخها من قبل . وكان لهذه القبائل دور في تحرير مدينة وهران من الاحتلال الاسباني منذ القرن السادس عشر إلى غاية الطرد الأول لهؤلاء من المدينة عام 1121ه / 1708م [2] .

بالإضافة إلى هؤلاء ، أهالي جبل ونشريس [3] ، الذي يضم قبائل مغراوة الذين كانوا من أشد المحاربين لملوك بني زيان . وقد ذكر الوزان بأن لسكان الجبل دور كبير في تنصيب الأمير الزياني يحي الثابتي على حكم تنس ، ولكنهم ثاروا ضد السلطان الجديد بعد أن أعلن ولاءه للإسبان ، وهذا يدل على أنهم كانوا معارضين للإسبان في المنطقة [4].

كما قال حساني بأن قبيلة بني زروال التي توجد مضاربها في جبل الونشريس كذلك كانت موالية للعثمانيين منذ بداية القرن العاشر الهجري / السادس عشر ميلادي ومعارضة للإسبان . وكان لهذه لقبيلة دور فعال في المشاركة في تحرير مدينة وهران [5] .

وذكر مارمول كذلك بأن قبيلة أنقاد ، ومطغرة ، وترارة كانت من القبائل التي اتحدت يدا واحدة لمواجهة ملوك تلمسان الضعاف والعرب المتحالفين معهم ومع الإسبان . ومن الملاحظ بأن

1- المزاري : المصدر السابق ، ص ص 210- 213 . للمزيد حول وقائع هبرة مع الاسبان ينظر ، كتاب القول اليقين في وقائع هبرة مع الاسبانيين للحافظ أبي إلياس أحمد بن محمد الشقراني .

2- ناصر الدين سعيدوني : **دراسات وأبحاث في تاريخ الجزائر في العهد العثماني** ، م و ف م ج ، الجزائر ،1985 ، ص 110 .

3- يقع هذا الجبل على بعد مائة وأربعة كيلومترات عن مستغانم ، وستة وخمسين كيلومترا عن مدينة تنس .

4- الوزان : المصدر السابق ، ج2 ، ص45 .

5- **تاريخ تحرير** ... ، المصدر السابق ، ص 12 .

مواقع هذه القبائل كلها في مناطق صعبة ، وقد أبدت معارضة للسلطة المركزية التي كان أغلب حكامها موالين للإسبان . وبالتالي يمكن اعتبارها من القبائل المعارضة للإسبان في المنطقة نتيجة لما بدر عنها من مقاومة لهذا الأخير في العديد من المراحل [1] .

ومن القبائل التي كانت معارضة للاحتلال أيضا الشراقة ، فقد ذكر المزاري بأن الإسبان قد خرجوا إليهم وقتلوا منهم الكثير من الرجال والنساء والأطفال الذين زاد عددهم عن سبعمائة وبعض الجرحى كما أخد لهم النصارى جميع ما وجدوه عندهم من الدواب وغيرها [2] . وكان هذا في ظل الحملات الداخلية التي شنها الإسبان للتوغل في داخل البلاد ، بالإضافة إلى الحملات التي سبق ذكرها . ويمكن اعتبار هذا العمل كرد فعل عن المقاومة التي أبداها أفراد هذه القبيلة وغيرها من القبائل .

2 – أهم العلماء والشيوخ المعارضين للغزو الاسباني :

كانت المعارضة التي أبدتها القبائل المذكورة بدعم من القيادات المتمثلة في العلماء والشيوخ الذين لعبوا دورا في تحريض السكان لمقاومة الإسبان في بلادهم ، وكان ذلك قبل وصول الأتراك إلى سواحل شمال إفريقيا . وبعد أن تبين لهم عجز ملوك الدولة الزيانية عن مقاومة الاحتلال ، وإعلان تبعيتهم له تيقن الشيوخ والعلماء بأن الإسبان لن يتوقفوا عند ما حققوه بعد سقوط غرناطة ، وإنما سيمتد نفوذهم إلى ممالك شمال إفريقيا ، ومن هذا المنطلق عمل هؤلاء على تحريض السكان من أجل أخذ الحيطة والحذر والاستعداد لرد الاستعمار [3] .

[1]- تقع قبيلة أنقاد أو انكاد في أرض فسيحة ، في الطريق المؤدية من تلمسان إلى فاس . أما مطغرة ففي جبل قاسي البرودة وكانت لهم مودة مع ندرومة . قبيلة ترارة تتمركز في جبل بالقرب من هنين . ينظر: مارمول : المصدر السابق ،ج 2 ، ص 292-293 ، ص 251 -252 .

[2]- المزاري : المصدر السابق ، ص 210 .

[3]- ابن سحنون : المصدر السابق ، ص 14 – 15 .

ويظهر دور العلماء وشيوخ القبائل في مقاومة الاحتلال الاسباني من خلال تشكيلهم للوفد الذي توجه لطلب النجدة من عروج ضد أبو حمو المتحالف مع الإسبان ، ثم استمر العلماء في معارضتهم للإسبان ، وظهر ذلك من خلال إفتائهم بخلع آخر أمراء بني زيان كما سيأتي .

فالدور الذي لعبه العلماء بالإضافة إلى شيوخ القبائل المذكورة كان مشرفا في الجهاد ضد النصارى الإسبان . حيث لعب العلماء دورا كبيرا في تحرير وهران والمرسى الكبير ، وعلى رأسهم : الشيخ أحمد بن أبي جمعة المغراوي ، والشيخ محمد بن أبي جمعة المغراوي ، وهما حفيدا الشيخ الهواري ظهرا في القرن 9- 10 / 15- 16م ، وهذا الأخير هو الذي أفتى بجواز هجرة المورسكيين إلى المغرب الإسلامي هربا من الاضطهاد كما سلف . وقد توفي هذان العلمان في مطلع القرن السادس عشر ميلادي [1] .

وإلى جانبهما نجد الشيخ محمد التواتي البجائي الذي يعتبر من المحذرين الأوائل من الاحتلال الاسباني . وقد خاطب هذا الأخير أهالي مدينة وهران يحذرهم من الاستمرار في دعم النصارى كما دعاهم إلى الاعتماد على الأندلسيين في الجهاد ضد الإسبان . ونضم بعض الأبيات التي تعتبر من صور المعارضة للاحتلال سنتطرق إليها في العنصر الموالي [2] .

وبعد سقوط مدينة وهران مباشرة في عام 915ه / 1509م في يد الإسبان ، ظهر أحد العلماء الذين بدؤوا في استثارة المسلمين للوقوف في وجه الطامعين في أراضيهم . وهذا الشيخ سجلماسي عرف بأحمد بن القاضي [3] ، وكان شاعرا هزّته الغيرة على بنات المسلمين ، وهنّ في يد اليهود بوهران . وبذلك كتب قصيدة إلى بني عامر ليستثير نخوتهم وكرماتهم ويحثهم فيها على معارضة الإسبان الذين يستغلون ضعفهم لأجل مصالحهم الشخصية . وسنذكر بعض الأبيات من

1- بوعزيز : **موضوعات وقضايا** ... ، المرجع السابق ، ص 133 .

2- فكاير : المرجع السابق ، ص 395 .

3- هو أحمد بن القاضي بن سيدي عبد الله بن أبي محلى السجلماسي المساوري . وهو شيخ العلامة أبي عثمان سيدي سعيد قدورة الجزائري ، وقد ذكر المشرفي بأن هذا العالم من العلماء الأوائل الذين دعوا قبائل بني عامر إلى الكف عن التعاون مع الاسبان . ينظر المشرفي : المصدر السابق ، ص 32 .

تلك القصيدة في العنصر الموالي [1] . ومن أجل نفس الغرض ظهر أحد العلماء الذين اتصلوا بجماعة من بني عامر يطالبهم بضرورة مواجهة الاحتلال لكن ذلك كان دون جدوى ، وهذا العالم هو محمد بن سليمان [2] ، الذي ألف قصيدة وجهها إلى عرب وهران على غرار بني عامر يحذرهم فيها من التعامل مع الكفار سواء كانوا إسبانا أو يهودا ، وانذرهم من عاقبة التعامل مع هؤلاء .

وبعد أن استفحل الظلم والعدوان لدى حكام مملكة تلمسان ، برز أحد علمائها وشيوخها الذي عرف بأحمد بن يوسف الملياني الراشدي [3] ، هذا الأخير الذي قام بثورة في عهد الأمير الزياني أبي قلمون عبد الله بعد أن أعلن ولائه للإسبان ، واستمرت ثورته إلى عهد أبي حمو الثالث والمسعود . وقد كان هذا الشيخ من المقربين للقصر الزياني ، لذلك كانت ثورته أكبر خطر على الزيانين الخاضعين للإسبان بحكم المعرفة والدراية الكافية لهذا العالم بالأحوال الداخلية للمملكة [4] . ولقد أشار البوعبدلي في مقدمة تحقيقه لكتاب الثغر الجماني بأن عروج كان كثير الاتصال بالشخصيات الدينية ، ومن ذلك أنه قابل الشيخ الولي أحمد بن يوسف الملياني الراشدي في شرق وهران ، وبالتالي فأن هذا الأخير كانت له علاقة مع العثمانيين أثناء قيادته لحركة المعارضة ضد سلاطين الدولة الزيانية وضد الإسبان ، مما يعني بأن عروج كانت له اتصالات مع المنطقة قبل استقراره فيها [5] .

1- الجمل : المرجع السابق ، ص 81 .

2- هو محمد بن سليمان الصائم التلمساني المعروف بالجزولي ، تلميذ صاحب قصيدة حزب العارفين المعروف بمحمد بن علي بن موسى التلمساني . وقد شرحها تلميذه محمد بن سليمان ، وأصبحت كتابا معروفا ب : **كعبة الطائفين وبهجة العاكفين في الكلام عن قصيدة حزب العارفين .** ينظر فكاير : المرجع السابق ، ص 408 .

3- هو من ابرز علماء الدولة الزيانية ، وقد تتلمذ على يد العديد من العلماء من بينهم سيدي محمد بن عبد الجبار الذي كان يدعم الفقراء وبنى زاوية لتعليمهم . ينظر: عبد الله محمد بن أحمد الملقب بابن مريم الشريف المليتي المديوني التلمساني : **البستان في ذكر الأولياء والعلماء بتلمسان** ، تح : محمد بن أبي شنب ، المطبعة الثعالبية ، الجزائر ، 1908 ، ص 287- 288 .

4- محمد السعيد بوبكر :" ***العلاقات السياسية الجزائرية الاسبانية خلال القرن 12ه / 18م ، (1119- 1206ه / 1708- 1792م)*** " ، مذكرة ماجستير تاريخ حديث ، جامعة الجزائر ، بوزريعة ، 2011 ، ص 37 .

5- ابن سحنون : المصدر السابق ، ص 15- 16 .

بالإضافة إلى هؤلاء ، ذكر ابن حلوش أحد العلماء الذين ظهروا في مدينة مستغانم يعرف بلخضر بن خلوف [1] الذي ألف قصيدة من الشعر الشعبي يصف فيها معركة بين الاسبان والعثمانيين في مدينة مستغانم . وتعتبر هذه القصيدة التي عنوانها — قصة مزغران معلومة – المصدر العربي الوحيد الذي سجل لنا الوقائع التي حدثت في المعركة .

ومن العلماء الذين رفضوا الاحتلال الاسباني في مدينة وهران وغيرها من الغرب الجزائري ، الشيخ سيدي عبد الرحمان بن محمد بن محمد بن موسى ، الذي كتب قصيدة يبارك فيها الباشا حسن بن خير الدين لتهديمه حصن المرسى عام 969ه / 1563م [2] .

ب – صور المعارضة للاحتلال الاسباني من قبل القوى المحلية :

لقد عبر العلماء والشيوخ عن رفضهم للاحتلال الاسباني بطرق مختلفة وبرز موقفهم من ذلك قبل وصول الإسبان إلى سواحل الجزائر، حيث عمل هؤلاء على نقل الكتب التي كانت تملأ خزينة مدينة وهران ، بالإضافة إلى هجرة الكثير منهم إلى البلدان المجاورة خاصة إلى المغرب الأقصى ، وهذه الهجرة تعتبر كدليل على معارضة العلماء للاحتلال الاسباني منذ بداية الأمر.كما هاجرت العديد من العائلات الغنية إلى المغرب ، فرارا من الإسبان الذين بدؤوا يتدخلون في شؤون الدولة الزيانية منذ دخولهم إلى البلاد ، ومن بينها : عائلة الونشريسي والمقري ، التي رفضت الرضوخ للظلم والطغيان المفروض عليها سواء من قبل الإسبان أو حكام بني زيان التابعين لهم [3]

.

1- هو مغراوي الأصل نشأ في ناحية مغراوة ، ويقال بان اسمه الأكحل حسبما ورد في بعض قصائده ، وقد جعله الأخضر في قصائد أخرى بدل الأكحل للتفاؤل ، ينظر: ابن حلوش : المرجع السابق ، ص 48 .

2- تميز بتعدد العلوم التي درسها ومكارم أخلاقه ، وقد أخذ العلم عن والده سيدي محمد بن محمد بن موسى الوجديجي ، ولد في حدود التسعة والعشرين وتسعمائة 929ه/ 1523م ، وقال ابن مريم بأنه سمع ذلك عنه مشافهة وتوفي في يوم الجمعة تاسع عشر شعبان عام أحد عشر وألف 1011ه / 1603م ، ابن مريم : المصدر السابق ، ص 129 ، ص 132 .

3- أبو القاسم سعد الله : **تاريخ الجزائر الثقافي من القرن العاشر إلى الرابع عشر ه / السادس عشر إلى العشرين م** ، ج1 ، ش و ن ت ، الجزائر ، 1980 ، ص 286 . ص 172 .

وقد كانت طبقة العلماء هي أسوء الطبقات حالا نظرا لسوء المعاملة التي تلقاها هؤلاء من قبل الإسبان . وأكد الوزان ذلك عندما زار مدينة تلمسان في النصف الأول من القرن السادس عشر 923ه / 1516م ، بقوله : "... أما الطلبة فهم أفقر الناس لأنهم يعيشون عيشة بائسة في مدارسهم ، وعندما يرتقون إلى درجة فقهاء يعين كل واحد منهم أستاذا أو عدلا أو إماما... " [1] .

أي أن الطبقة المثقفة تعيش حياة بائسة داخل المدارس وعندما تتخرج لا يحق لها ممارسة وظائف تزيد عن التدريس أو السلك الديني . ومن هذا يمكن القول بأن طبقة العلماء كانت محرومة حتى من التجمع مع السكان وتحشر داخل المدارس ، والهدف من ذلك ، هو عزل هؤلاء لمنعهم من إثارة السكان ضد الإسبان ، وصدهم عن ممارسة أي عمل قد يفسد مخططاتهم في الاستيلاء على العاصمة تلمسان كما يتضح بأن الموقف الذي اتخذه هؤلاء ضد العلماء يدل على أن هذه الطبقة كانت من أشد الطبقات المعارضة للاحتلال .

1- القصائد الداعية إلى مواجهة الاحتلال الاسباني :

إن الدارس لفترة الوجود الاسباني في الغرب الجزائري يجد مجموعة من القصائد التي تتعلق بموضوع المقاومة ضد الاحتلال ، ومن بينها تلك التي كتبها العلماء الذين سبق ذكرهم . مثل العالم الأديب محمد التواتي الذي خاطب أهل وهران بقصيدة طويلة أوردها ابن سحنون في الثغر الجماني ، ومن أبياتها ما يلي :

يا أهل وهران انظروا نظر   شفقة لبلدتكم قبل أن تردت ...

فيا قادرا عن دفع ذلك مقصرا   فما الغدر يا ذا الطول يوم القيامة

ولا يحمي مرساكم ضعاف رجالكم   ولا البدو بل تحميه أهل الجزيرة [2] .

1- الوزان : المصدر السابق ، ج2 ، ص 21 .

2- ينظر باقي الأبيات في ابن سحنون : المصدر السابق ، ص 439 .

ويبدو لقارئ هذه الأبيات بأنها كتبت قبيل الاحتلال الاسباني لمدينة وهران ، حيث كان هؤلاء في صراع مع الأندلسيين قبل ذلك [1] . ويتضح لنا بأن صاحب القصيدة يدعو جميع القادرين على مواجهة الاحتلال ، بأن لا يتهاونوا في الدفاع عن بلادهم لسوء العاقبة التي سيتلقونها يوم القيامة . كما يدعوهم إلى الاعتماد على المهاجرين الأندلسيين في جهادهم ضد الإسبان وذلك بحكم خبرتهم في مواجهة هؤلاء أثناء حروبهم معهم .

واستمر العلماء في دعوة القبائل إلى الجهاد عن طريق قصائدهم ، فبعد أن بدأ اليهود يتلاعبون ببنات المسلمين استنكر العلماء ذلك ،كما رفضوا سكوت بني عامر وتقبلهم لما كان يفعله الغزاة ببناتهم . وقد حفظ لنا التاريخ قصيدة لأحد شعراء البلاد يذلُّ فيها القبائل الخاضعة للإسبان والراضية بالوضع المزري لهم . وشاعر هذه القصيدة هو الشيخ ابن القاضي الذي سبق ذكره [2] . وقد ذكر المشرفي نص القصيدة كاملا في كتابه بهجة الناظر ومن أبياتها ما يلي :

فمن مبلغ عني قبائل بني عامر ولا سيما من قد ثوى تحت كافر .

وكل كمي من صناديد راشد بتيجانها مع رأسها عبد قادر...

وطلحة والأحلاف في عرف هذه وشيخ سويد وكل مفاخر...

أذلّكم الجبّار كيف رضيتم بسبي العذارى من بنات الأكابر [3] .

وقد قال صاحب القصيدة هذا الكلام ظنا منه بأن القبائل المذكورة في متنها مثل بني عامر ، وطلحة ، وسويد سوف ينتهون عن التعاون مع الإسبان ، لكن ذلك كان دون جدوى ، فقد قال المشرفي بأن تلك القبائل لم تلتفت إلى ما قاله ابن القاضي ، بل ازدادوا تعنتا وواصلوا دعمهم للنصارى على مدى طويل [4] .

1- فكاير : المرجع السابق ، ص 395 .

2- المدني : **حرب الثلاثمائة سنة** ... ، المرجع السابق ، ص 117 .

3- ينظر الأبيات الباقية من القصيدة في المشرفي : المصدر السابق ، ص 33- 34 . وكذا : **تاريخ تحرير** ... ، المصدر السابق ، ص 39 .

4- المشرفي : المصدر السابق ، ص 34 .

ويظهر من خلال أبيات القصيدة بأن الشاعر يدعو العثمانيين المتواجدين في مدينة الجزائر في تلك الفترة إلى القدوم لنجدتهم من أيدي الكفار ، كما أنه يذلّ ويذمُّ تلك القبائل على عدم تحركها للدفاع عن عرضها وشرفها المنتهك من طرف اليهود والنصارى ، الذين وصل بهم الحال إلى سبي البنات والنساء دون أن يحرك المسلمون ساكنا.

كما نضم بعض الأدباء المعارضين للإسبان والقبائل التي رضيت بالتحالف معهم ، بعض الأبيات الشعرية يذمون فيها شيخ قبيلة حميان الذي دعم الإسبان كما سلف الذكر . ومن هذه الأبيات ما يلي:

لا تكب الماء من قربة   لمن يقول أنا حمياني .

ادفع الكلب من ريبة   وقل قلبه مازال نصراني .

وقد قال غيرهم :

قيزة وشافع وحميان   جارهم ما يتهنى وميتهم ما يدخل جنة [1] .

لم يذكر الزياني صاحب هذه الأبيات ، لكن الواضح من خلال ما ورد فيها بأنها من الشعر الشعبي بالنظر إلى كلمات البيت الأخير ، ويظهر لنا بأن هؤلاء الأدباء لم يكونوا راضين عن الفعل الذي قام به شيخ حميان ، ودعوا إلى معارضتهم وعدم تقديم يد العون لهؤلاء الذين تحولوا من الإسلام إلى المسيحية .

وبالتالي فإن دور العلماء في مواجهة الاحتلال الاسباني يظهر من خلال الرسائل التي بعثها هؤلاء إلى القبائل الخاضعة والمتعاونة مع الإسبان ، والتي تمثلت في قصائدهم الداعية إلى إيقاظ الضمير العربي الذي مات وتحول إلى لعبة في يد الاستعمار الاسباني . وتعتبر هذه القصائد بمثابة صورة من صور الصراع ضد الاحتلال ، بالإضافة إلى هذا النوع من المقاومة عمل العلماء ورجال

[1]- الزياني : المصدر السابق ، ص 146 .

الدين على إنشاء مراكز دفاعية يتم من خلالها الرد على هجمات العدو وهذه المراكز تسمى بالرباطات .

2-الرباطات [1] ودورها في الدفاع عن البلاد ضد الاحتلال :

يطلق علماء الدين هذا الاسم على الأماكن التي بنيت في المواقع الحربية لحماية البلاد من هجمات الأعداء ، أما المرابط فهو الشخص الذي يلازم المكان والثغر فترة طويلة من الزمن من أجل حراسة المسلمين [2] . ولقد وجدت الرباطات في الغرب الجزائري قبل الاحتلال الاسباني ، وذكر بوعزيز بعضها مثل : رباط الأمحال أو القصر الأحمر الذي بني منذ النصف الأول من القرن الرابع عشر ميلادي . وقد كان هذا الرباط هو النواة الأولى لبناء قصر الأمحال والذي عمل الأتراك على مصادرة أملاكه وأملاك قبيلة الأمحال المعارضة للسلطة العثمانية منذ النصف الأول من القرن السادس عشر ميلادي . وبذلك تحول هذا الرباط إلى مركز دفاع يستعمله العثمانيون لصد هجمات الإسبان ، بالإضافة إلى رباط صلب الفتح الذي أسس على شاطئ البحر بين مدينتي وهران والمرسى الكبير ، وقد كان يرابط فيه الناس للدفاع عن المدينة من الهجومات القادمة من البحر المتوسط [3] .

ثم تطورت الرباطات ونظّمت بعد الاحتلال الاسباني لسواحل الجزائر ، وذلك بإشراف علماء الدين ورؤسائه ، فهم الذين عملوا على تأسيسها وذلك بعد أن تبين ضعف الملوك الزيانيين عن

---

[1]- جمع رباط وهو الملازمة في سبيل الله وأصلها من ربط الحبل . ثم سمي كل ملازم لثغر من ثغور الإسلام مرابطا ، واللفظة مأخوذة من الربط بمعنى : أقام ولازم المكان ، ينظر ، المهدي البوعبدلي : ***" الرباط والفداء في وهران والقبائل الكبرى"*** ، الأصالة ، ع 13 ، الجزائر ، 1973 ، ص 20 .

[2]- ابن سحنون : المصدر السابق ، ص 195 .

[3]- بوعزيز : **موضوعات** ... ، المرجع السابق ، ص 129 .

المقاومة ، وذكر البوعبدلي بأن هناك وثائق تثبت كيفية إنشاء الرباطات وتحدث عن وثيقة مؤرخه سنة 954ه / 1548م بخط الشيخ عبد الرحمان اليعقوبي بنواحي ندرومة . لكننا لم نتمكن من الحصول على هذه الوثيقة [1] .

ومن أهم الرباطات التي ظهرت بعد الاحتلال الاسباني نجد رباط وادي مسرغين . فقد تم الاهتمام بهذا الرباط من طرف العلماء وطلبة العلم الذين أظهروا بسالة في مواجهة الاحتلال [2] ، بالإضافة إلى الرباطات التي زاد انتشارها خاصة في مدينتي تنس وتلمسان وذلك بدعم من زعماء القبائل الكبرى . حيث عملت قبائل أنقاد وبنو سنوسن ، وترارة ومدغرة ، بالإضافة إلى بعض علماء تلمسان على عقد مؤتمر كبير من أجل التنسيق والتعاون بين هذه الرباطات ، كما تعهد أعيان تلمسان وكبارها على إمداد الرباطات بالمال والرجال [3] .

وقد عملت هذه الرباطات على إبراز الدور المشرف للعلماء وطلبة العلم في مواجهة الخطر الاسباني وتوجيه الطبقات الشعبية ضد الاحتلال . وكان ذلك من خلال اللقاءات التوعوية في تلك الرباطات التي تمثلت في مراكز جهادية لم تكن منتشرة في الغرب الجزائري فقط وإنما في مختلف أنحاء الجزائر ، وذلك منذ بداية الاحتلال الاسباني للمدن الساحلية . وقد كان لها دور كبير في تحرير مدينة وهران [4] .

وبالتالي ، فإن الأمانة التاريخية تقتضي الاعتراف بالدور الذي لعبه العلماء ورجال الدّين في تعبئة السكان باسم الدين للدفاع عن البلاد وعرقلة الإسبان عن النفوذ إلى المناطق الداخلية وحصرهم داخل القلاع التي تحصنوا فيها [5] .

1- البوعبدلي : المرجع السابق ، ص 25 .

2- بوعزيز : المرجع السابق ، ص 130 .

3- دراج : المرجع السابق ، ص 142 .

4- **تاريخ تحرير** ... ، المصدر السابق ، ص 17 .

5- دراج :المرجع السابق ، ص 135 .

وبذلك يمكن القول بأن هذه الأعمال التي قام بها هؤلاء ، هي التفسير الأوجه لبقاء الإسبان متمركزين في المدن الساحلية ، بالرغم من محاولاتهم العديدة كما سبق الذكر .

المبحث الرابع :

علاقات الإسبان بحكام تلمسان .

كانت مملكة تلمسان مسرحا للأحداث التي مرت بها الجزائر منذ النصف الأول من القرن السادس عشر ، باعتبارها عاصمة البلاد ، ومركز السلطة الحاكمة التي مثلها أمراء بني زيان . ولقد تباينت المواقف التي أبداها هؤلاء ، بين مساند للإسبان ومعارض لهم ، حيث سعى كل طرف إلى الحفاظ على العرش دون الانتباه إلى الدسائس المحاكة ضدهم من طرف الإسبان .

أ – موقف حكام مملكة تلمسان من الإسبان :

لم يتبع أمراء بني زيان سياسة واضحة تبين موقفهم من الاحتلال الاسباني ، وكانت تحركاتهم وفقا لمصالح شخصية تمكنهم من الوصول إلى العرش والبقاء فيه ، ومن هذا وجدنا أن هؤلاء الملوك يؤيدون الأتراك تارة إذا كانت مصلحتهم تقتضي ذلك ثم ينقلبون للتحالف مع الإسبان مرة أخرى ، وبعدها يعتذرون للأتراك عن أفعالهم ويتحالفون معهم لأجل ذلك ، حتى أنه لم يعد بإمكان الباحث إحصاء عدد المرات التي خانوا فيها عهودهم وطلبوا العفو من الأتراك أو الإسبان [1] .

[1]- المدني : **حرب الثلاثمائة سنة ...** ، المرجع السابق ، ص ص 245- 247 . وعبدلي : المرجع السابق ، ص 277 .

فلم تكن السنوات الأخيرة من 915 إلى 960ه / 1509 إلى 1552م ، من تاريخ مملكة تلمسان سوى سلسلة من الفتن والاضطرابات التي أضرمها الإسبان بعد أن ضعف بنو زيان على مقاومتهم ، وقد كان هذا سببا في لجوئهم إلى سياسة التقرب والخضوع والمسالمة [1] .

و لم يكن هذا السلوك جديدا على حكام المملكة وإنما اعتمدوا عليه منذ زمن بعيد . فقد كانت استعانة أطراف الصراع في البيت الزياني ببعض خصومهم سلوكا طبيعيا وبدى ذلك من خلال صراعهم ضد المرينيين والحفصيين ، حيث كان أمراء العرش الزياني يستعينون بالحفصيين ضد الزيانيين والعكس . وفي حالة استقرار الوضع ، يستعملون سياسة الاستقلال عن كلا الطرفين [2] . وفي الفترة التي نقوم بدراستها تميزت سياسة ملوك بني زيان بالتذبذب في مواقفهم بين الإعلان عن التبعية للأتراك في الجزائر تارة ، وللإسبان في وهران تارة أخرى .

ب – علاقة حكام تلمسان بالإسبان والأتراك في أواخر عهدهم :

يعتبر السلطان أبو حمو الثالث من أوائل سلاطين بني زيان الذين أعلنوا الولاء والطاعة للإسبان . وقد ظهر ذلك مباشرة بعد احتلال مدينة وهران في عام 915ه / 1509م حيث توجه إلى إسبانيا واجتمع بالملك فردناند الكاثوليكي ، وكان ذلك في مدينة بورغوس Burgos باسبانيا وأعلن له الولاء مقابل إبقائه على عرش تلمسان ،كما تعهد السلطان أبو حمو على دفع ضريبة سنوية للإسبان مقدارها اثنتي عشر ألف دوقة واثنا عشر فرسا من جياد الخيل ، وستة من طيور الباز الجارحة ...، وقد ظلت هذه الضريبة مفروضة على أبي حمو إلى غاية وفاته [3] .

وبعد قدوم الأتراك إلى شمال إفريقيا أصبحت الأرض محرمة على الإسبان ، فشعر السلطان أبو حمو بالخطر لذلك عمل على الاتصال بهم واتفق معهم سرا على طرد الأتراك من الجزائر قبل أن

1- بلحميسي : المرجع السابق ، ص 32 .

2- ينظر : مدخل المذكرة ص ص 10 – 17 .

3- الطمار : المرجع السابق ، ص 233 . والمدني : **حرب الثلاثمائة سنة** ... ، المرجع السابق ص 113 . ومارمول : المصدر السابق ،ج 2 ، ص 310 .

يتوغل هؤلاء إلى منطقة حكمه . وقد قطع وعدا للإسبان بأن يهاجم الأتراك من ناحية البر ، بينما يتولون مهاجمتهم من البحر ،كما أعلن التزاما بدفع ضرائب أخرى للإسبان مقابل هذه الخدمة [1] .

وبعد الهزيمة التي تلقاها أبو حمو على يد عروج كما سلف ، التجأ إلى وهران لأول مرة وزود قائدها دي غوماريس بتقرير ليقدمه إلى الملك الإسباني وكتب فيه ما يلي : " إنّ المصلحة الاسبانية تقتضي بضرورة احتلال تلمسان أو إقامة حكومة عربية فيها موالية للعرش الإسباني ، وبقيام هذه الحكومة يتعزز الوجود الإسباني في المنطقة ، ويتسع نفوذه ليشمل كافة السواحل الإفريقية ..." [2] .

وقد ورد لدى ابن سحنون بأن السلطان أبو حمو راسل شارل الخامس يشكو له ما قام به أهالي تلمسان بقوله : " ... انظروا كيف قطع عروج عنكم ما كنا نصلكم به من الميرة ، وضيّق عنكم ما كنا نوسعه عليكم ، فلو أعنتمونا عليهم بالمال والجند لرجع لكم جميع ما فقدتم مع مزيد من الإحسان " [3] .

ويبدو من خلال ما ورد في هذه التقارير ، بأن السلطان أبو حمو قد كان يدعم المصلحة الإسبانية ، وقد اقترح عليهم حلا يمكنهم من الاستيلاء على المملكة دون أن يتوجهوا إليها ، والمتمثل في إقامة حكومة عربية موالية لهم ، وهذا ما كان الإسبان يرمون إليه منذ وصولهم إلى الغرب الجزائري وإلا فما هو الدافع الذي جعلهم يؤسسون علاقات مع شيوخ القبائل العربية كما سلف .

والواضح هو أن المجلس الملكي الاسباني قد اقتنع بالكلام الذي قاله السلطان أبو حمو وأرسل له دعما تمكن من خلاله من غزو قلعة بني راشد ، التي كانت تحت قيادة الأتراك في الوقت الذي

1- مارمول : المصدر السابق ، ص ص 306- 310 .

2- إلتر : المرجع السابق ، ص 63 .

3- ابن سحنون : المصدر السابق ، ص 440 .

كان فيه عروج ينصب السلطان أبا زيان حاكما على تلمسان بعد أن أطلق سراحه ، لكن هذا الأخير خان العهد وتحول إلى صف الإسبان فاضطر عروج لقتله [1] . واستمر أبو حمو في التقدم إلى تلمسان بدعم من الإسبان إلى أن قتل عروج في إحدى المعارك مع الإسبان في عام924ه/ 1518م كما سلف . وبعد هذا أبرم السلطان أبو حمو معاهدة ولاء مع هؤلاء إلى غاية وفاته [2] .

وبعد وفاة عروج واصل خير الدين حركة الجهاد ضد النصارى في الغرب الجزائري ، ففي الوقت الذي تقدم فيه هذا الأخير إلى مدينة تنس التي أعلنت انقطاعها مرة أخرى بعد وفاة عروج ، كانت تلمسان تشهد صراعا بين أخوين لأبي حمو . ففي الوقت الذي أطلق فيه عروج سراح السلطان أبي زيان ، كان معه عبد الله والمسعود وهما أخوين للسلطان أبو حمو [3] . وبعد عزل هذا الأخير ، خلفه أخوه الأكبر عبد الله الثاني ، وقد حاول أن يتبع سياسة الحياد ، ورفض أن يؤدي أي شيء مما كان يدفعه أخوه للإسبان [4] .

ووصل عبد الله إلى العرش بدعم من طرف خير الدين الذي أخضع قلعة بني راشد ، أين تعرض لمواجهة من طرف المسعود السابق الذكر . فاضطر إلى دعم أخيه عبد الله الذي أعلن ولاءه للعثمانيين ومنح رواتب عالية لجنودهم ،كما وافق على إعلان الخطبة باسم السلطان العثماني [5] ، أما أخوه المسعود ، فقد فر إلى فاس وراسل خير الدين يطلب العفو عما بدر عنه . وتمكن المسعود من جلب المساعدة من الجزائر وحقق النصر على أخيه الذي أعلن عصيانه للعثمانيين وفر إلى وهران لطلب النجدة من الإسبان .

1- مارمول : المصدر السابق ، ج2 ، ص 306 .

2- الميلي : المرجع السابق ، ج3 ، ص 58 . وكذا بلحميسي : المرجع السابق ، ص 34 .

3- دراج : المرجع السابق ، ص 245 .

4- عبدلي : المرجع السابق ، ص 283 .

5- التر : المرجع السابق ، ص 92 . ، الميلي : المرجع السابق ، ص 57 .

وتمكن المسعود من دخول تلمسان دون قتال في عام 925ه / 1519م ،كما كافأ السلطان المذكور جنود الأتراك والعرب المتحدين معه وبعث إلى خير الدين مبلغا قدره في مذكراته بخمسين ألف دينارا كضريبة سنوية . وقد وجه خير الدين خطابا إلى المسعود يهدده بأن لا يخرج عن طاعته وعدم ظلم الناس [1] .

وبعد أن حقق المسعود مراده غير فكرته وموقفه تجاه العثمانيين ، وفي أثناء ذهاب خير الدين لمعاقبة الخائن ، جاءه أحد مراسلي عبد الله الفار إلى وهران ، يطلب العفو ويتوسله أن يعيد سيده إلى العرش [2] .

و لم يكن خير الدين في موقف يسمح له بالرفض لأنه كان بحاجة إلى ضرب الإسبان وقد توجه بقوة إلى مستغانم أين التقى بعبد الله ومنحه عددا من الجنود الذين توجه بهم إلى غزو تلمسان ، أما خير الدين فقد بقي في مستغانم لكي يسكن بعض المهاجرين الأندلسيين في البلاد [3] . وتمكن عبد الله من استلام تلمسان مرة ثانية وأعلن ولاءه لخير الدين ، لكنه أعلن التمرد فيما بعد وقطع الضريبة التي كان يدفعها ، كما أنه صرف الخطبة إليه بدلا من السلطان العثماني وضرب السكة باسمه مستغلا انشغال خير الدين في إخماد الثورات الداخلية . وقد توجه خير الدين لتأديبه وعزله عن منصبه ووضع ابنه محمد بدلا منه [4] . فأعلن هذا الأخير ولاءه للبايلرباي خاصة بعد الانتصار الذي حققه في عام 936ه / 1529م بتحريره لحصن البنيون ، ولكن موقفه كان متذبذبا في ولائه بين العثمانيين في الجزائر والنصارى الإسبان في وهران . فبعد الهزيمة التي تلقاها خير الدين في تونس أمام شارلكان عام 942ه / 1535م أعلن الأمير أبو عبد الله ولاءه للإسبان [5] . وقد تبين ولاؤه من خلال الرسالة التي بعثها إلى الدون مارتين حاكم وهران ، يطلب فيها

1- **مذكرات** ... ، المصدر السابق ، ص 103 .

2- إلتر : المرجع السابق ، ص 91 .

3- **مذكرات** ...، لمصدر السابق ، ص 104- 105 .

4- مجهول : **غزوات**... ، المصدر السابق ، ص 64 .

5- La Primaudaie : ***Document …*** , op.cit , p. 341 .

استعطافه ويؤكد بأنه مستعد لخدمته وخدمة السلطان الاسباني شارلكان [1] ، ولكن الانتصار الذي حققه العثمانيون في صد الحملة التي قادها شارلكان عام 948ه / 1541م جعله يراجع موقفه ، حيث أبدى ميولا للتعاون مع حسن آغا خليفة خير الدين ، حيث أرسل أبو عبد الله هدايا ثمينة إلى الحاكم العثماني يهنئه على النصر ويعلن له الولاء [2] .

وبعد أن توجه حسن آغا إلى تلمسان في عام 949ه / 1542م لم تكن له ثقة بولاء الملك عبد الله ولذلك قرر عزله عن منصبه ، ووضع أخاه أبو زيان أحمد مكانه مما جعل السلطان السابق يفر إلى وهران مستنجدا بالإسبان الذين كانوا ينتظرون الفرصة للقضاء على مملكة تلمسان . وقد تلقى الملك أبو عبد الله دعما من طرف الكونت دالكوديت حاكم وهران آنذاك [3] ، حيث أمده بقوة عسكرية قوامها ألف جندي اسباني وأربعمائة من العرب ، وتمكن بذلك من قيادة الحملة على تلمسان برفقة الكونت ، وكان ذلك في جانفي 950ه / 1543م كما سلف الذكر [4] . حيث هزم السلطان السابق ونصب مكانه أبو عبد الله الذي أعلن له يمن الولاء للامبراطور الاسباني في 26 فيفري 1543م وفي هذا الوقت كان أبو زيان المتحالف مع الأتراك يجهز قواته لقطع الطريق أمام الكونت العائد إلى وهران كما سلف ، وتمكنت قواته من إلحاق هزيمة نكراء بالاسبان ، ثم توجه السلطان أبو زيان إلى تلمسان لاستعادة عرشه . وقد استمر في ولائه لحسن آغا إلى أن توفي وخلفه أخوه مولاي حسن الذي يعتبر آخر سلاطين الدولة الزيانية [5] .

ومن خلال هذا يمكن القول بأن موقف أمراء العرش الزياني بيّن ضعفهم سواء بالنسبة للاسبان المتمركزين في دائرة حكمهم والذين عززوا الشقاق بينهم خدمة لمصالحهم ، أو بالنسبة للأتراك الذين تلقوا صرخاتهم في العديد من المرات طالبين النجدة والعون للبقاء على العرش ،

1- ينظر نص الرسالة في الملحق رقم 07 .

2- E. Mercier : op.cit , t3 , p. 58 .

3- الميلي : المرجع السابق ، ج2 ، ص 70 .

4- Mercier : op.cit , p . 58 .

5- De Grammont : op.cit , p . 70 .

وبالتالي فإن نهاية الدولة الزيانية كانت متوقعة منذ أن بدأ حكامها في الاستعانة بالأطراف الخارجية .

واستنادا إلى ما تقدم في هذا الفصل ، يمكن القول بأن الموقف الذي أبدته القوى المحلية في الغرب الجزائري سواءً الخاضعة للاحتلال أو المعارضة له ، أو التي لم تبرز موقفا واضحا منه ، قد أثّر على مجرى الأحداث في المنطقة خاصة في النصف الأول من القرن السادس عشر ميلادي ، أي قبل ضم مدينة تلمسان إلى السلطة العثمانية . حيث أن لجوء حكامها إلى الأطراف المتنازعة على المنطقة سواءً من الأتراك أو الاسبان جعل هاتين القوتين تسعيان إلى استخدام ما أتيح لهما من الإمكانيات لكسب تأييد الحكام والقوى المحلية المتحالفة معهم ، وبالتالي فقد كان ذلك الاستنجاد بمثابة فرصة منحها ملوك آل زيان لتوغل الأطراف الخارجية في بلادهم وهذا ما تحقق فعلا .

المبحث الأول :

التصدي للحملات الاسبانية ، وبسط النفوذ العثماني في الغرب الجزائري .

بعد وفاة عروج في عام 1518م ، واصل خير الدين مواجهة الاسبانيين في مختلف أنحاء الجزائر ، وكانت تلمسان هدفا لكل من الإسبان ، والأتراك منذ دخولهم إلى الجزائر ، وقد حاول كل من الطرفين المتصارعين في المنطقة إخضاع المملكة باعتبارها عاصمة البلاد ، ومركز الحركات الجهادية سواء المعادية أو المساندة لهم ، كما أنها مركز الحكم . ولقد استغل الأتراك بدورهم انشغال حكام بني زيان في الصراع على السلطة ، وتوجهوا إلى تلمسان بطلب من هؤلاء للدفاع عنها ضد التوسع الاسباني .

وقد بدأت حركة العثمانيين في الغرب الجزائري منذ توجه عروج إلى تحرير تلمسان ووفاته هناك في عام 1518م ، وبعد ذلك توجه خير الدين إلى المنطقة لمواصلة حركة الجهاد ضد النصارى الإسبان ، وكان ذلك بدعوة من حكام مملكة تلمسان أيضا كما سبق الذكر .

أ – مواجهة حركات التمرد المدعمة من طرف الإسبان في الغرب الجزائري :

لقد تبين موقف العثمانيين من الاحتلال الاسباني للغرب الجزائري ، من خلال محاولاتهم لقمع حركات التمرد التي قادتها القبائل الخاضعة للإسبان ، بالإضافة إلى إفشال العمليات التي قام بها حكام مملكة تلمسان المواليين للإسبان .

وكانت بداية التحركات العثمانية بقيادة عروج الذي توجه إلى الغرب الجزائري للقضاء على إحدى حركات التمرد التي قادها أمير مدينة تنس الذي أعلن ولاءه للإسبان . وقد تمكن عروج من إحباط تمرده وطرده من مدينة تنس بعد أن أفتاه العلماء بجواز قتله ، وكان ذلك في صيف عام 923ه / 1517 م [1] .

---

[1]- مجهول : **غزوات** ... ، المصدر السابق ، ص 32 .

وتوجه عروج بعد ذلك إلى تلمسان لاستبعاد الأمير الزياني أبو حمو الثالث المتحالف مع الإسبان كما سلف الذكر . ثم إيقافه للتمرد الذي قام به أبو زيان أحمد بتحريضه لسكان تلمسان على الانقلاب ضد عروج ، فبالرغم من أن هذا الأخير هو الذي فك أسره وأعاده إلى السلطة إلا أبا زيان استغل خروج عروج من تلمسان لنجدة أخيه إسحاق في قلعة بني راشد وأعلن التمرد . وبعد أن سمع عروج بذلك عاد إلى تلمسان ، وأمر بإعدام الخائن مع عدد من أمراء البيت الزياني الذين اشتركوا معه ، وكان ذلك بناء على فتوى علماء تلمسان في أواخر عام 923ه / 1517 م [1] .

وبعد أن أخذ خير الدين على عاتقه مواصلة حركة الجهاد ضد النصارى الإسبان والمتحالفين معهم من القبائل ، توجه بدوره إلى الغرب الجزائري لمعاقبة أمير تنس المعروف بيحيى الثابتي ، الذي أعلن التمرد مباشرة بعد وفاة عروج ، حيث عاد إلى تنس وأعلن تعاونه مع الإسبان ، وقد اضطر خير الدين إلى إعدام الخائن بعد استفتاء العلماء في ما يجب عمله بشأنه ، وهكذا تم وضع نهاية له ولفتنه في مدينة تنس بعدما يئس من استقامته وكفه عن التعامل مع الإسبان [2] .

بالإضافة إلى استعمال العنف في مواجهة حركات التمرد كما سلف . اكتفى خير الدين بإضعاف زعيم التمرد دون القضاء عليه ، لكسب ولاء قبيلته وأنصاره والانتهاء عن مساندتهم للاسبان ، الذين بدأت تتعاظم قوتهم في الغرب الجزائري بفضل تزايد حلفائهم من القبائل وملوك الدولة الزيانية .

وقد بدا ذلك من خلال تعامل خير الدين مع السلطان الزياني مولاي عبد الله الذي قام بتحريض الإسبان ضد الأتراك ، فما كان من خير الدين إلا أن قام بالتوجه إليه في عام 930ه / 1524م ، وتمكن من الانتصار عليه في ساحة الحرب ، وبعدها فرّ الملك الخائن إلى تلمسان محتميا بأسوارها ، ولحق به خير الدين . إلا أن عبد الله أرسل إليه كبار أهل مدينته يلتمس منه الصلح

1- مارمول : المصدر السابق ، ص 306 .

2- دراج : المرجع السابق ، ص 335 .

كما جرت عادته ، وبعث معهم إلى خير الدين بثلاثين ألف دينار ، فلم يقبلها هذا الأخير وقال: " إن هذا الرجل لا دين له ولا إيمان ، ينقض العهد المرة بعد المرة بما تسول عليه نفسه تارة ، وتارة بإغراء النصارى ، فليس له مني أمان أبدا ". ولما بلغ السلطان الزياني أمر رفض خير الدين للصلح ، خرج بنفسه إليه يطلب العفو فعفا عنه ، ورجع خير الدين بعدها إلى الجزائر [1] .

وقد اتبع خير الدين هذا الأسلوب لإضعاف موقف الزعماء المحليين ودفعهم إلى الخضوع والتبعية للإدارة العثمانية في الجزائر .

واستمر حكام مدينة الجزائر في قمع الحركات المعادية لهم ، والمدعمة من طرف الإسبان . ففي فترة حكم حسن آغا توجه إلى تلمسان في عام 1542 م ، بعد أن صد حملة شارلكان على الجزائر قبل ذلك بعام كما سبق الذكر . وقد كان الهدف من توجه حسن آغا إلى تلمسان هو صد الملك الزياني محمد ابن عبد الله الذي عينه خير الدين بدل والده عبد الله ، هذا الأخير الذي اتبع سياسة المراوغة لكسب مساعدة الأطراف القوية في تلك الفترة ، ففي الوقت الذي يحقق فيه الأتراك انتصارا يعلن لهم الولاء ، والعكس .

وبعد أن وصل حسن آغا إلى تلمسان عزل هذا الملك عن منصبه ، وعين مكانه حاكما مواليا للعثمانيين كما سبق وذكرنا . فاستنجد بالإسبان لإعلان التمرد على هؤلاء في تلمسان ، وكان ذلك في عام 1543م ، ولكنه لم يصمد أمام قوة الجنود الأتراك العثمانيين الذين ألحقوا هزيمة نكراء بجيش دالكوديت العائد إلى وهران في نفس السنة [2] .

ولقد تواصلت حملات الرد العثماني على حركات التمرد التي كان الإسبان يغذونها بالدعم العسكري والمادي ، وذلك بهدف إضعاف حركة الأتراك العثمانيين ، التي بدأت تشكل خطرا على مستقبل الوجود الاسباني في الغرب الجزائري بعد أن انهزموا في العديد من المعارك أمام صلابة الأتراك ، وكانت أكبر هزيمة لهؤلاء في عام 1541 م بعد حملة شارلكان . وهذا ما زاد من عزيمة

1- مجهول : **غزوات** ... ، المصدر السابق ، ص 80 .

2- Mercier : op .cit , t3 , p. 58 . et , De Grammont : op.cit , p . 70 . et , Ruff : op.cit , p. 93 .

العثمانيين في مواصلة حملاتهم ضد الإسبان الذين اتبعوا سياسة محكمة للتوسع في الداخل ،والتي تتمثل في استمالة شيوخ القبائل العربية ، وكسب أكبر عدد من المتحالفين معهم في الغرب الجزائري .

وكان تخوف العثمانيين من نجاح سياسة الإسبان في المنطقة هو الدافع الأساسي الذي دفعهم إلى التوجه نحو الغرب الجزائري ومواجهة الإسبان هناك . واتبعوا لذلك سياسة التقرب من العلماء باعتبارهم من الطبقات المعارضة والرافضة للوجود الاسباني سواء في الغرب الجزائري أو في مختلف مدن الجزائر بصفة عامة ،كما دعموا ملوك الدولة الزيانية المعارضين للإسبان لكسب ود هؤلاء والقبائل التابعة لهم . ومن هذا فقد تمكن العثمانيون من إنشاء قوة مدعمة من طرف السلاطين في استانبول ، ومن بعض المعارضين للإسبان في الجزائر ، وتمكنوا بذلك من التوغل في البلاد ومواجهة الاحتلال الاسباني وإخضاع بعض المدن في المنطقة .

ب – التدخل العثماني لإخضاع بعض مدن الغرب الجزائري :

1- تلمسان :

بعد أن تمادى الإسبان في استعمال القوة والظلم والاضطهاد ضد المسلمين عامة ورجال الدين من شيوخ وعلماء خاصة ، تولد لدى هؤلاء عداوة شديدة للاحتلال ، مما جعل الأتراك ينتبهون إلى أن مواجهة الإسبان لن تتم إلا بإقامة اتفاقيات مع الحكومات الصغيرة ، والأهالي المعادين للحكومة الاسبانية . وقد تمسك الأتراك بهذا الهدف بحيث عمل الريس عروج على إقامة علاقات ودية مع علماء تلمسان كما سبق الذكر ، وواصل خير الدين على نهجه في الارتباط مع المرابطين والعلماء وقرّبهم منه إلى درجة أنه جعلهم كمستشارين له فيما يتعلق بالأوضاع الداخلية للبلاد [1] .

---

[1]- التر : المرجع السابق ، ص 107- 108 .

وقد تبين ذلك من خلال الاستفتاء الذي طلبه هذا الأخير في أمر ملك تنس فأفتوه بإباحة دم الفاسد وأمثاله [1] . كما واصل حكام الأتراك على نهج الأخوين بربروس في استشارة العلماء المعادين للإسبان ، ويظهر ذلك من خلال خلع آخر أمراء مملكة تلمسان بإفتاء من طرف علمائها في عهد صالح رايس كما سيأتي .

بالإضافة إلى هذا اتبع حكام مدينة الجزائر أسلوبا آخر متمثلاً في مناصرة حكام بني زيان من أجل جعلهم تابعين لهم ، وهو نفس الأسلوب الذي اتبعه الإسبان في استمالة حكام المملكة . واستمروا في دعم أمراء بني زيان لتعزيز نفوذهم في المنطقة . وقد تطرقنا إلى الدور الذي لعبه العثمانيون في مساعدة حكام بني زيان في الوصول إلى العرش ومن أمثلة ذلك : الدور الذي لعبه خير الدين في دعم الملك أبو عبد الله في الوصول إلى العرش الزياني ، وذلك بهدف إخضاع تلمسان . وبعدها دعم ابنه محمد الذي أعلن ولاءه للأتراك ، رغم تراجعه عن ذلك في العديد من المرات .

و لم يأتي عام 949ه /1542 م ، حتى أصبح العثمانيون يتدخلون في سلطة تلمسان عن طريق عزل الأمراء المعارضين لهم وتنصيب حكام موالين لهم ، مثلما قام حسن آغا بمساعدة أبي زيان في الوصول إلى الحكم ، وطرد الملك الموالي للإسبان والمعروف بعبد الله [2] .

وبعد هزيمة دالكوديت في عام 1543 م ، أمام قوات الملك الزياني أبو زيان أحمد أثناء عودته إلى وهران . وفي الوقت الذي كان فيه دالكوديت يعد قواته لمهاجمة تلمسان مرة أخرى عام 953ه / 1546م ،كان سكانها قد استنجدوا بحسن بن خير الدين باشا ، الذي وصل إلى مدينة الجزائر بأمر من والده خير الدين باشا ، في 20 جوان 952ه / 1545م [3] .

1- دراج : المرجع السابق ، ص 351 . والميلي : المرجع السابق ، ج3 ، ص 52 .
2- ينظر : المبحث الرابع من الفصل الثالث ، ص 131 – 132 .
3- الميلي : المرجع السابق ، ص 73 .

وقد توجه حسن بن خير الدين إلى مدينة تلمسان ، بعد أن مر على مدينة تنس أين تمكن من استمالة حاكمها المعروف بحميده العبد ، والذي كان متعاونا مع الإسبان من قبل . وقد قدم له هذا الأخير ألفي فارس عربي ضمها السلطان حسن إلى قواته ، وبذلك تمكن من دخول مدينة تلمسان دون مقاومة بعد أن فرّ أميرها عبد الله إلى وهران ليستنجد بالإسبان كعادته ، بالرغم من الدعم الذي كان يتلقاه من طرف حاكم قلعة بني راشد المعروف بالمنصور بن بوغانم ، بينما نصب حسن باشا الملك أحمد الزياني ، الذي أعلن ولاءه للأتراك العثمانيين [1] .

وبعد أن سمع الكونت دالكوديت بوجود السلطان حسن بن خير الدين في مملكة تلمسان برفقة عدد كبير من الجنود الأتراك ، بالإضافة إلى العرب الذين تمكن من استمالتهم . قرر سحب قواته المتوجهة إلى تلمسان . وقد حاول دالكوديت باتخاذه لهذه الخطوة أن يستدرج القوات العثمانية المتواجدة في تلمسان إلى مكان بعيد عنها . وبذلك يسهل عليه مواجهتها ، وفي ذلك الوقت سمع حسن بن خير الدين خبر وفاة والده ، فاضطر إلى إيقاف الحملة وترك تلمسان عائدا إلى مدينة الجزائر [2] . بعد أن بلغه ما أحدثه النبأ من اضطراب في نفوس الخاصة والعامة في الجزائر ، فخشي أن يقع تمرد في المدينة ، لذلك قرر العودة في الحال إليها لتهدئة الأوضاع هناك [3] .

2- مستغانم :

بقيت مدينة مستغانم تتعاون مع الإسبان بحكم الاتفاقية التي وقعها شيوخ وكبار المدينة مع هؤلاء منذ عام 1511م . ولقد استمر الضغط الاسباني على مزغران ومستغانم ، إلى غاية توجه البايلرباي خير الدين إليها ليمهد الطريق أمام الأمير عبد الله الذي طلب التحالف مع الأتراك كما سبق وذكرنا [4] .

---

[1] - Ruff : op.cit , p. 129 .

[2] - الميلي : المرجع السابق ،ج 3 ، ص 74 .

[3] - المدني : **حرب الثلاثمائة سنة** ... ، المرجع السابق ، ص 322 .

[4] - ينظر : الفصل الثالث ، ص ص 128 – 129 .

وقد قرر خير الدين إخضاع مدينة مستغانم لموقعها القريب من تلمسان ، وليتمكن من التحرك منها إلى المملكة ، وبذلك وجه خير الدين 28 سفينة على متنها عدد كبير من الجنود والعتاد وفرض عليها حصارا بريا وبحريا اضطرها إلى الاستسلام بعد فترة قصيرة من الحصار [1] . وبعد هذا دخل خير الدين إلى المدينة ، وبقي منشغلا بإسكان 2285 مهاجرا أندلسيا في نواحي المدينة ، وهذا العدد من المهاجرين كان قد جلبهم معه من اسبانيا ، ولذلك منح لهم أرضا يقومون باستصلاحها والعمل فيها ، وقد أقر خير الدين بهذا العمل الذي قام به في مذكراته [2] .

ولقد استمر سكان مستغانم في الولاء للعثمانيين ولخير الدين إلى غاية وفاته ، وبعد أن غادر حسن باشا مدينة تلمسان بعد وفاة والده ، توجه إلى مدينة مستغانم قبل أن يذهب إلى الجزائر ، وقد اتفق مع أهل المدينة المجاهدين على الدفاع عنها وصد العدو مهما كان الثمن . وبذلك فقد راسل أهل مستغانم العرب المجاورين لهم يطلبون الدعم ، كما أنهم سهلوا الطريق أمام الحامية العثمانية المتواجدة في تلمسان للتوجه إلى مستغانم [3] .

وقد قام حسن بن خير الدين بهذه الخطوة لأنه كان يعلم بأن الكونت دالكوديت قد سمع بوفاة والده ، وأنه يتتبع أثره متوهما بأن الطريق أصبحت فارغة ، ولذلك قام الكونت بمهاجمة مدينة مزغران وتمكن من احتلالها لثلاثة أيام ، ثم توجه إلى مستغانم وكان ذلك عام 953ه / 1546 م ، لكن الأوامر التي أصدرها حسن باشا إلى قواته المتواجدة في تلمسان بالتوجه إلى مستغانم والاتحاد مع سكانها ، جعلتهم يدافعون عن المدينة إلى غاية الثامن والعشرين من شهر أوت من نفس العام [4].

وبعد هذا ، توجه حسن بن خير الدين على رأس ألف وخمسمائة من المشاة وثلاثة آلاف من الفرسان ، بالإضافة إلى عدد كبير من سكان القبائل المجاورة لمدينة مستغانم ، الذين انضموا إليه

1- دراج : المرجع السابق ، ص 246 .

2- **مذكرات** ... ، المصدر السابق ، **ص 105** .

3- المدني : **حرب الثلاثمائة سنة** ... ، المرجع السابق ، ص 322 – 323 .

4 - M .Belhamissi : op.cit , p .75 .

في طريقه إلى المدينة . وبالتالي فقد فاق تعداد جيشه عشرين ألف مجاهد ([1]) ، ولما وصلت أخبار تحرك حسن بن خير الدين إلى دالكوديت ، أمر قائد الحامية العسكرية بمدينة مستغانم بالتحرك والعودة إلى مدينة وهران على جناح السرعة ، لكن الجنود الإسبان لم يتمكنوا من دخول مدينة وهران مع قائدهم دالكوديت إلا بعد متاعب وخسائر كبيرة [(2)] .

وبالرغم من هذا إلا أن دالكوديت لم يفقد عزيمته وبدأ في التحضير من جديد لغزو تلمسان ، خاصة بعد الدعم الذي تلقاه من اسبانيا ، حيث أرسل عددا من قواته إلى المدينة ، وتمكنوا من إعادة تنصيب الملك المخلوع أبو عبد الله في عام 954ه / 1547م مستغلين في ذلك غياب حسن بن خير الدين الذي عاد إلى مدينة الجزائر ليواصل تنظيم أمور البلاد [(3)] .

ومن خلال هذا ، يمكن القول أن موقف السلطة العثمانية من الوجود الاسباني في الغرب الجزائري تبين منذ أن توجه عروج إلى المنطقة ليصد حملات التوغل الداخلي التي شنها الإسبان على البلاد منذ بداية الاحتلال .حيث رفض الأتراك تقدم الإسبان نحو الداخل لأن ذلك يهدد وجودهم في البلاد على غض النظر عن مصلحة القوى الداخلية المتحكمة في المنطقة من كبار شيوخ القبائل ، وحكام مملكة تلمسان .

[1] - Fey : op.cit , p . 90 .

[2] - De Grammont : op.cit , p . 75 .

[3]- إلتر : المرجع السابق ، ص 175 .

المبحث الثاني :

إلحاق مدينة تلمسان بالسلطنة العثمانية في عام 1554 م .

استمرت سياسة الدولة الجزائرية في دعم زعماء تلمسان الذين أبدوا استعدادا للتعاون معها ضد الإسبان دون أن تعمل على إزالة دولة بني زيان ، إلا أن ظهور خطر جديد مهدد للمدينة متمثل في الدولة السعدية [1] ، الناشئة في المغرب الأقصى والتي كانت تسعى إلى توسيع نفوذها على تلمسان ، دفع بقادة الجزائر إلى ضمها إلى سيادة العثمانيين في الجزائر ووضع حد نهائي للدولة الزيانية [2] .

أ – مواجهة الخطر السعدي المهدد لتلمسان :

بعد أن توجه السلطان حسن بن خير الدين إلى تنظيم أموره في الجزائر ، بدأت التحركات الاسبانية في الغرب الجزائري ، حيث عمل الكونت دالكوديت على إعادة تنصيب الملك الخاضع للإسبان والمعروف بعبد الله المذكور سابقا ، وبقيت مملكة تلمسان دون دفاع لانشغال الملك في

---

[1]- يقول المدني : " أعلم أن هؤلاء السعديين كانوا يقولون : أن أصل سلفهم من ينبع النخل من أرض الحجاز ، وأنهم أشراف من ولد محمد النفس الزكية ، وإليه يرفعون نسبهم "، ينظر : المدني : **حرب الثلاثمائة سنة** ... ، المرجع السابق ، ص 325 .

[2] - D .Heado : op.cit , p. 84 .

أموره الشخصية . واستمر الوضع كذلك إلى أن تمكن الملك الزياني أبو زيان أحمد الموالي للعثمانيين من الوصول إلى العرش ، لكن الوضع في تلمسان لم يتغير [1] .

وقد ضاق حال السكان من الأوضاع في المملكة ، فأرسلوا في طلب النجدة من حاكم مدينة فاس وأول سلاطين الدولة السعدية في المغرب الأقصى ، ليسدوا الطريق أمام الإسبان [2] . ففي الوقت الذي وصل فيه سلطان الدولة السعدية المعروف بمحمد المهدي [3] ، إلى الحكم في فاس كان وضع تلمسان متأزما والحرب قائمة بين الإسبان والعثمانيين هناك ، ومن جهة أخرى بروز قوة السعديين الفتية التي هدمت سلطان الدولة الوطاسية ، ولذلك فقد خشي الزيانيون من تقدم السعديين إلى دائرة حكمهم كما كانت عليه أيام بني مرين ، خاصة وأن هؤلاء يجمعون بين صفات عديدة تؤهلهم للملك وتجعلهم مقبولين في تلمسان أكثر من الاتراك و الاسبان ، فهم أولا من الأشراف ومن المجاهدين ، ومدعمين من طرف الشاذلية التي كان لها أتباع كثيرون في مدينة تلمسان ثانيا [4] .

ولذلك توجه وفد من بعض علماء تلمسان وفقهائها يطلبون النجدة من السلطان السعدي ، وقد أراد السعديون أن يستغلوا هذه الفرصة للسيطرة على تلمسان [5] ، فجهّز الشريف محمد المهدي جيشا ولّى قيادته إلى ولديه محمد الحرّان ومولاي عبد القادر اللّذين توجها إلى تلمسان وضربا عليها حصارا دام تسعة أشهر ، وقد تمكنا من الاستيلاء عليها دون مقاومة لأن ملكها أحمد الموالي للأتراك فرّ من المملكة بعد سماعه بتوجه السعديين إليها وكان ذلك في عام 957ه / 1550م [6] .

1- المدني : المرجع السابق ، ص 324 .

2- إلتر: المرجع السابق ، ص 175 .

3- هو من أصل حسني شريف . كان يقيم مع أسرته بالقرب من تارودانت على نهر السوس ، ويسمى أبا عبد الله محمد ، الملقب بالشريف ، ولما تمت له البيعة لقب بالقائم بأمر الله ... ، ينظر : ضيف : المرجع السابق ، ص 291 .

4- ابن خروف : المرجع السابق ، ص 79 .

5- الطمار : المرجع السابق ، ص 237 . وبوعزيز : *" المراحل و الأدوار ... "* ، المرجع السابق ، ص 27 .

6- Heado : op.cit , p. 85 .

وقبل أن يتوجه جيش الحرّان وأخيه إلى تلمسان ،كان حسن بن خير الدين قد راسل الملك السعدي محمد المهدي ، وتعاهدا على ضرورة التحالف ضد أعداء الإسلام ، و تواعدا على الهجوم على مدينة وهران وتم ذلك في نفس العام . ولكن ابن المهدي المعروف بالحرّان خالف العهد الذي قطعه والده و قرر التوجه إلى غزو تلمسان كما سبق الذكر .

وفي الوقت الذي كان فيه حسن باشا يجهز جيشا قوامه خمسة آلاف مجاهد من الجزائريين رماة البنادق ، وألف فارس ، وثمانية آلاف من مجاهدي زواوة بقيادة سلطان قلعة بني عباس ، وخرج الجيش من مدينة الجزائر في عام 957ه / 1550م لمحاربة الإسبان في وهران ، خاصة بعد الهزيمة التي تلقاها دالكوديت في مستغانم كما سلف الذكر [1] . و لما كان الجيش متوجها إلى وهران ، سمع حسن بن خير الدين بخيانة الحرّان ، فقرر أن يتوجه إلى مستغانم على أمل أن ينضم إليه بنو عامر والقبائل المجاورة لها [2] .

وبعد أن تمكن حسن بن خير الدين من استمالة بعض القبائل توجهوا إلى مدينة تلمسان ، أين تمكن من التغلب على جيش الحرّان وأخيه ، وبعدها انسحب المغاربة يرافقهم بعض الذين عملوا على الاستنجاد بهم ، وكان على رأسهم المنصور بن بوغانم ، قائد بني راشد ، هذا الأخير الذي تحالف معهم على أمل أن يعود إلى منصبه [3] .

وقد كانت نتائج هذه المعركة لصالح العثمانيين ، والمتحالفين معهم من القبائل في الغرب الجزائري ، حيث تمكن هؤلاء من قتل ابن السلطان السعدي عبد القادر ، وهو أحد المكلفين بقيادة الحملة على تلمسان [4] .

1- الميلي : المرجع السابق ، ج3 ، ص 75 – 76 .

2- المدني : **حرب الثلاثمائة سنة** ... ، المرجع السابق ، ص 328 .

3- عباد : المرجع السابق ، ص 73 .

4 - Ruff : op.cit , pp . 144 –145 .

بالإضافة إلى أنهم أفشلوا مخطط الملك الزياني أحمد الفار إلى طلب العون من الإسبان بالاتفاق مع مزواره ابن غانم ، وأحد إخوة محمد الشيخ السعدي المتصارع هو الآخر على حكم فاس والمعروف بأحمد الأعرج ، حيث يذكر بن خروف أن هناك وثيقة اسبانية مؤرخة في 17 جويلية 1549م تثبت أن هؤلاء طلبوا الدعم من الإسبان ضد العثمانيين ، لكن مخططهم لم ينجح ، وبقي السلطان الزياني أحمد مشردا في بادية تلمسان إلى أن مات في عام 957ه / 1550م [1].

وفي ذلك الوقت توجه حسن بن خير الدين إلى تلمسان مع جنوده وتمكن من إلحاق هزيمة بالجيش المغربي وطرده من تلمسان . وبعد الهزيمة أرسل الشريف المهدي قوة أخرى مع ولديه مولاي عبد الله وعبد الرحمان لمواجهة العثمانيين ، وقد وصلوا في نهاية أكتوبر ومطلع شهر نوفمبر إلى مستغانم في محاولة لإخضاع القبائل التي امتنعت عن الدخول في طاعتهم في الغرب الجزائري ، والتي استقرت معظمها في ضواحي مستغانم ، وبعد مناوشات كبيرة مع تلك القبائل تلقى الجيش السعدي بعض الخسائر التي أجبرته على الانسحاب إلى مدينة تلمسان [2] . وانهزم مرة أخرى أمام نيران المدافع العثمانية التي لم تتحملها سيوفهم وأسلحتهم الضعيفة ، وقتل في هذه المعركة ابن آخر للمهدي ، وهو عبد الله و فرّ أخوه مهزوما من المعركة .

وبعد إفشال محاولة المغاربة في احتلال تلمسان ، توجه حسن بن خير الدين إلى المدينة التي بقيت دون حاكم بسبب فرار الملك أبو زيان أحمد ، و لذلك فقد أمر بتنصيب الأمير الحسن بن عبد الله الزياني سلطانا يأتمر بأوامره ، وكان ذلك في عام 958ه / 1551م ، ويعتبر الأمير حسن آخر حكام الدولة الزيانية .

وبعدها توجه حسن بن خير الدين إلى مدينة الجزائر ، لكنه قرر في هذه المرة أن يترك في مدينة تلمسان حامية عسكرية قوية لصد أي هجمات خارجية ، ولذلك ترك قوة عسكرية كبيرة

1- ابن خروف : المرجع السابق ، ص 80 .

2- ابن خروف : المرجع السابق ، ص 144 .

تتكون من خمسة آلاف جندي لحماية المدينة تحت قيادة صفا [1] ، وهو قائد الجيش العثماني الذي ألحق هزيمة نكراء بالجيش السعدي في أواخر عام 1551م ، وهو نفسه الذي عين كخليفة لحسن باشا بعد أن تم استدعاؤه إلى إسطنبول [2] .

وبالتالي ، فإن الهجومات التي قادها السعديون على مدينة تلمسان قد أفشلت المحاولة الأولى لتحرير مدينة وهران ، بالإضافة إلى أنها فتحت المجال للعثمانيين للتوغل أكثر في مملكة تلمسان وإلحاقها بالسيادة الجزائرية ، كما أنها فتحت باب التدخل الثماني المباشر في المغرب الأقصى .

والسؤال المطروح في هذه الحالة هو : ما موقف الإسبان من هذه الأحداث ؟ .

لقد ذكر المؤرخ إلتر بأنه إزاء تطور الأحداث بين الجزائريين والفاسيين ، عمد الإسبان إلى التزام الصمت لأن تحركات الشريف بدت وكأنها تنفيذ لأوامرهم وتتناسب مع مصالحهم في المنطقة ، خاصة وأن السعديين لم يتوقفوا عن مهاجمة تلمسان والرغبة في توسيع حدودهم على حسابها ، وسنحاول توضيح ذلك في العنصر الموالي من البحث [3] .

ب – ضم مدينة تلمسان إلى الوحدة الجزائرية في عام 962ه / 1554م :

أصبحت مملكة تلمسان منذ نهاية عام 1547م مهددة من طرف السعديين الذين بدأت قوتهم تنشأ في مدينة فاس . وبالتالي فالخطر لم يعد اسبانيا فقط ، وإنما تعداه إلى المغاربة الذين أرادوا مواصلة الحملات التي بدأها المرينيون لضم تلمسان من قبلهم . وهذا ما جعل الأتراك العثمانيين المتواجدين في الجزائر ومدينة تلمسان ،يكثفون جهودهم للدفاع عن المملكة . وقرر صالح رايس الذي خلف حسن بن خير الدين على ولاية الجزائر أن يضم مملكة تلمسان إلى السيادة

1- هو تركي الأصل من بلاد الأناضول . وقد كان يتمتع بثقة كبيرة لدى حسن بن خير الدين ، والسلطان العثماني سليمان القانوني ، حيث كلفه حسن بن خير الدين بمهمة الاتفاق مع السلطان السعدي لتحرير مدينة وهران من الاحتلال الاسباني ، وأوكل إليه مهمة قيادة هذه الحملة في نهاية عام 1551م . ينظر : Heado : op.cit , p p. 83 – 84 .

2- Ruff : op.cit , p . 144 .

3- إلتر : المرجع السابق ، ص 178 .

العثمانية ، وذلك بعد أن اكتشف المؤامرات التي حيكت ضد العثمانيين من طرف الزيانيين وأتباعهم من القبائل المحلية كما سيأتي .

فبعد أن نصب الأمير الزياني الحسن بن عبد الله الثاني ، لم يكن بيده شيء من السلطة ، إذ أن الحكم كان في يد القائد العثماني صفطة ، والذي عين كخليفة لحسن بن خير الدين بعد أن استدعي إلى اسطنبول ، وأوكلت إلى القائد مهمة حماية مملكة تلمسان وإدارة أمور الجزائر ، وبالتالي فقد بقي الملك الزياني رهين قصره ، ولجأ لذلك إلى استعمال العنف والتعسف ضمن نطاق حكمه الضيق ، ولذلك ضاق السكان ، واجتمع مجلس العلماء والفقهاء ، وأعلنوا خلعه كما سيأتي [1] . ولقد بقي صفطة أو صفا في تلمسان وواصل تنظيم أمور البلاد إلى أن وصل صالح رايس [2] إلى الجزائر في نهاية شهر أفريل 960ه / 1552م ، وأصبح حاكما على المدينة بأمر من السلطان العثماني ، كما منح لقب بايلرباي ، وكان هدفه الأول هو تحقيق الوحدة بصفة مطلقة بين كل أجزاء الجزائر ، ثم ضم بلاد الجنوب إلى المدينة ، ولذلك قام شن حملات عسكرية على مدينتي توقرت وورقلة بهدف ضمها إلى السيادة العثمانية [3] .

لكن ابتعاد خير الدين عن إدارة الجزائر وانشغاله بحوادث تلمسان والمغرب الأقصى ثم موته فيما بعد ، جعل شيوخ المدينتين يقلعون عن دفع بعض الضرائب إلى خزينة الدولة ، وتعدى الأمر إلى إعلان الاستقلال عن الحكم العثماني .

وبعد المراسلات الموجهة إليهم من طرف صالح رايس والتي لم تجدي نفعا ، تحرك الجيش الجزائري بقيادة هذا الأخير في شهر أكتوبر عام 1552م قاصدا ناحية الجنوب ، وهاجم مدينة توقرت وتمكن صالح رايس وجنوده من إخضاعها بعد مقاومة كانت نتائجها لصالح الأتراك . ثم أعلن شيوخ وارجلان (ورقلة) خضوعهم للوحدة الجزائرية دون قتال خوفا من النتائج ، وبذلك

---

[1]- المدني : **حرب الثلاثمائة سنة** ... ، المرجع السابق ، ص 329 .

[2]- يحمل لقب بايلرباي إفريقيا واصله من سردينيا ، ولد في الإسكندرية ، وأمضى شبابه مع الجنود الأتراك أثناء فتح السلطان سليم لمصر في عام 1517م ، تعلم أساليب البحرية في سفراته الكثيرة مع عروج وخير الدين ... ينظر : Heado : op.cit , p. 85 .

[3] - De Grammont : op.cit , p .78 .

انضمت المدينتين إلى السيادة الجزائرية ، الذين تعهدوا لشيوخهما باحترام المذهب الإباضي وحرية تطبيقه [1] .

وبالتالي ، فقد عاد صالح رايس منتصرا إلى الجزائر ، لكنه لم يكافئ سلطان قلعة بني عباس المعروف بعبد العزيز على الدعم الذي قدمه له هذا الأخير في حملته على الجنوب ، وخشية من ردة فعله ، قرر صالح رايس أن يقمع السلطان المذكور قبل أن يتحرك ضده ، ولكن فطنة عبد العزيز مكنته من صد حملات صالح رايس على إمارة بني العباس ، وتمكن من الحفاظ على حدود مملكته دون أن يعلن التمرد على الأتراك .

وقد ترك صالح رايس أمر سلطان إمارة بني العباس إلى وقت آخر . وتوجه إلى المغرب الأقصى في شهر ذي القعدة 961ه / سبتمبر عام 1553م ، لتأديب السلطان أبو حسون الوطاسي ابن مؤسس مملكة المرينيين ، الذي بدأ يتصل بالإسبان والبرتغاليين لإعانته على استرجاع للعرش ، فتوجه صالح رايس إلى المغرب الأقصى وألقى القبض عليه ، ولهذا اضطر أبو حسون إلى التحالف مع الأتراك العثمانيين بعد الهزيمة التي تلقاها [2] .

بالإضافة إلى هذا فان سياسة صالح رايس الحربية تميزت بمحاولاته لإبعاد الإسبان عن أرض الجزائر ، ووضع حد نهائي لمحاولات التوغل السعدي نحو الغرب الجزائري التي لم تنفك بعد الحوادث التي أسلفنا ذكرها والتي كانت مدعمة من طرف الاسبانيين المتواجدين في مدينة وهران وعلى رأسهم الكونت دالكوديت حاكم المدينة .

حيث لم يتوقف السعديون عند الهزيمة التي تلقاها محمد المهدي وأولاده في تلمسان على يد حسن بن خير الدين والقائد العثماني صفا ، وإنما كان محمد الشيخ من طرفه يرقب بعين القلق سيطرة الأتراك العثمانيين على تلمسان وتنصيبهم للحسن بن عبد الله الثاني ، كما كان يرقب تحركات أخيه المتحالف مع الملك الزياني أحمد قبل وفاته ، ولذلك قرر التقرب من هذا الأخير ،

1- المدني : **حرب الثلاثمائة سنة ...** ، المرجع السابق ، ص 338 – 339 .

2- الميلي : المرجع السابق ، ج3 ، ص 82 – 83 .

وتمكن من استمالته لولا تدخل دالكوديت الذي أفشل التحالف بينهما بعد أن قدم هذا الأخير وعدا إلى الملك الزياني أحمد بان يساعده في العودة إلى العرش ، لكن أجل الملك قد حان قبل أن يحصل على المساعدة المرجوة من دالكوديت . و لم تتوقف مساعي محمد الشيخ في استمالة المنصور بن بوغانم حليف السلطان أحمد المتوفي وقد نجح في ذلك ، حيث أصبح هذا الأخير من المقربين لسلاطين السعديين ، وأدى لهم خدمات كبيرة في حملاتهم على الغرب الجزائري ، ومنها المساعد التي قدما إلى محمد الشيخ للقبض على السلطان الزياني الحسن بن عبد الله الموالي للعثمانيين [1] ، بالإضافة إلى هذا فقد عمل محمد الشيخ على الاستعداد لمباغتة حملة الجزائريين المتوجهة لتأديب أبي حسون ، وقد كان الهدف من وراء ذلك هو إضعاف العثمانيين لتسهيل مهمة إخضاع تلمسان [2] .

وبعد أن أدرك صالح رايس خطورة التهديدات السعدية للمناطق الغربية للبلاد ، توجه إلى تلمسان عام 961ه / 1553م ، وأثناء تواجده هناك اكتشف وجود علاقات سرية تجمع بين الإسبان ومولاي الحسن ملك تلمسان الذي عينه حسن بن خير الدين قبل ذلك ، فبالرغم من أن هذا الأخير أحكم محاصرة تلمسان قبل ذهابه إلى اسطنبول ، حيث عين القائد صفا لإدارة الحكم هناك كما سلف الذكر. إلا أن هذا لم يمنع من وجود اتصالات بين حاكم المملكة مولاي حسن ودالكوديت الحاكم الإسباني في مدينة وهران ، وقد بدأت هذه العلاقات بعد أربع سنوات من تنصيب ذلك الملك في 1551م [3] .

ولإبعاد الخطر الاسباني قرر صالح رايس أن يضم المملكة نهائيا إلى مدينة الجزائر ووضع حدا نهائيا لبني زيان ، وذلك بعد استشارة علماء تلمسان وأعيانهم في أمر الملك الزياني ، فأفتوه بخلعه ، وكان ذلك في عام 962ه / 1554 م ومنذ ذلك أصبحت تلمسان قاعدة للأتراك العثمانيين ،

1- ابن خروف : المرجع السابق ، ص 80 .

2- نفس المرجع ، ص 150 .

3- مارمول : المصدر السابق ، ص 320 .

كما أنها تحولت إلى مركز للهجمات العثمانية على الإسبان في مدينة وهران كما سنوضح ذلك في العنصر الموالي من العمل [1] . وقد كان مصير مولاي الحسن بعد عزله عن منصبه أن فرّ إلى وهران أين توفي بمرض الطاعون بعد ثلاث سنوات من محاولاته لاستعادة عرشه ، وترك ابنا له عمره ست سنوات ، وذكر مارمول بأن هذا الأخير تنصر وسمي دم كارلوس ، كما منح إقطاعا في مدينة قشتالة الاسبانية من طرف الملك فليب الأول ، أثناء وصوله إلى الحكم في عام 1556 م [2] .

وبذلك انتهى أمد الدولة الزيانية التي استمر حكامها في إدارة البلاد لأكثر من ثلاثة قرون [3] ، بالرغم من أنها لم تعرف الاستقرار إلا في فترات قليلة جدا كما رأينا ، وقد كان ذلك بسبب استسلام حكامها إلى الأطراف الخارجية منذ بداية تأسيس المملكة ، وإتباعهم أسلوب التأييد والمعارضة للأجانب ، بدل الدفاع عن منطقة حكمهم ، وبذلك كانت النهاية حتمية لدولتهم .

وفي الوقت الذي كان فيه صالح رايس ينظم أمور البلاد في مدينة الجزائر بعد عودته من الحملة على المغرب في عام 1553م ، كان محمد الشيخ السعدي قد جهز لحملة على مدينة فاس أين يتواجد السلطان الوطاسي أبو حسون ، وتمكن محمد الشيخ من استرجاع مدينة فاس من جديد ، واتجه بعدها إلى مراكش التي اتخذها مقرا لدولته [4] .

1- المدني : **حرب الثلاثمائة سنة** ...، المرجع السابق ، ص 243 .

2- مارمول : المصدر السابق ، ج2 ، ص 322 .

3- لم يتفق جل المؤرخين الدارسين لفترة الحكم الزياني في الجزائر على السنة الحقيقية لنهاية صرح دولة بني زيان ، فقد أشار المزاري مثلا إلى أن مملكة تلمسان انضمت إلى الجزائر في عام 1543 ، 1535م ، بينما قال ابن خروف بأن نهاية الحكم الزياني في تلمسان ، كان في فترة حكم حسن ين خير الدين ، وكان ذلك بعد تمكنه من صد الحملة السعدية التي شنها الشريف محمد المهدي على المدينة في حدود عام 1551م ، وبعد أن عين حسن بن خير الدين القائد صفا المذكور سابقا في مملكة تلمسان ، أعلن بذلك نهاية الحكم الزياني فيها . كما قال ابن خروف أيضا بأن التسليم بنهاية الدولة = = الزيانية في عام 1554م ، كما هو وارد في مختلف المصادر ، هو خطأ تاريخي لأنه لاتوجد أية وثائق تثبت ذلك ... للمزيد ينظر ،: المزاري : المصدر السابق ، ص ص 249 – 250 ، وكذا : ابن خروف : المرجع السابق ، ص 145 .

4- المدني : **حرب الثلاثمائة سنة** ... ، المرجع السابق ، ص 342 .

وبعد إفشال مخطط الاسبان في إخضاع مملكة تلمسان ، عمد دالكوديت الحاكم الاسباني في مدينة وهران إلى تحقيق التقارب مع السعدين الذين يتشاركون معه في العداء للأتراك العثمانيين ، خاصة وأن هؤلاء تمكنوا من ضم تلمسان إلى دائرة حكمهم . ولأجل ذلك وجه حاكم وهران رسائل في نهاية عام 1554م إلى عبد الله بن محمد الشيخ ، والمنصور بن بوغانم الذي أصبح من المقربين للسلطان السعدي محمد الشيخ بعد انضمامه إليه كما سبق وأشرنا .

ولقد كان رد السلطان السعدي واضحا بقبوله للتفاوض مع الإسبان ، وكان ذلك من خلال رسائل موجهة إلى دالكوديت مؤرخة بنهاية جانفي 1555م ، وبعد دراسته للرسائل ، قرر هذا الأخير بأن يرسل بعثة إلى ابنة ونائبة الملك الاسباني شارلكان مرفقة بتقرير عن المفاوضات في التاسع من أوت من نفس العام ، وطلب منها أن تحصل له على التفويض من الإمبراطور بإبرام الاتفاق لمدى أهميته [1] .

ولكن مخططات الاسبان والسعديين فشلت ، وذلك بسبب افشاء أمر الاتفاق ، ووصول الأخبار إلى صالح رايس عن طريق فئة اليهود المقربين منه ، والذين كانوا كأطراف مترجمين بين الوفدين [2] ، ولذلك أسرع صالح رايس إلى اتخاذ التدابير اللّازمة لمواجهة الحلف الاسباني السعدي ضده ، فقام بإعداد جيش ضخم متكون من 22 سفينة مجهزة بكل المعدات الحربية ، وأمره بالتوجه إلى تحرير مدينة بجاية التي احتلت منذ عام 1511م ، من طرف الإسبان ولم يتمكن الأتراك العثمانيون من تحريرها بالرغم من المحاولات التي قام بها عروج وخير الدين من قبل [3] ، وكان انطلاق الجيش من مدينة الجزائر في حدود جوان 1555 ، وبعد قتال بين الحامية الإسبانية في بجاية والأتراك العثمانيين ، تمكن صالح رايس من تحرير المدينة نهائيا في يوم 28 سبتمبر 963ه / 1555م [4] .

1- ابن خروف : المرجع السابق ، ص 163 ، ص 166 .

2- المدني : المرجع السابق ، ص 359 .

3- ينظر : المبحث الثالث من الفصل الثاني ، ص ص 84 – 87 .

4 - Heado : op.cit , p p. 93 – 94 . et , Mercier : op.cit , p p. 80 – 81 .

وبتمكن صالح رايس من تحرير بجاية أمن ظهره ، ووجه ضربة قوية للإسبان ولعبد العزيز سلطان إمارة بني العباس الذي سبق الحديث عنه ، حيث أصبح هذا الأخير محروما من الدعم الاسباني ،كما أن انتصار صالح رايس جعله يكسب مناصرين له من عامة الناس ليس في الجزائر فقط ، وإنما في المغرب أيضا ، وهؤلاء قاموا بثورات عديدة ضد السعديين المتحالفين مع الإسبان ، ولا يستبعد أن يكون الأتراك العثمانيون هم الذين حرضوهم على الانقلاب .

بالإضافة إلى هذا ، فإن تحرير بجاية ووصول استعدادات صالح رايس للتوجه إلى الغرب الجزائري جعل الشريف محمد السعدي يقدم عروضا أخرى إلى الإسبان في نهاية أكتوبر عام 1555م ، لكن هؤلاء لم يردّوا على طلباته بسبب عدم وصول التفويض من اسبانيا إلى دالكوديت ، إلا عند اعتلاء فليب الثاني للعرش في عام 1556م ، وهذا ما أثار مخاوف الشريف السعدي في عدم جدية دالكوديت ، مما جعله يميل إلى الدخول في مفاوضات مع العثمانيين مستهدفا الحفاظ على مملكته المهددة [1] .

ومن خلال ما تقدم ، يمكن القول بأن ضم تلمسان إلى مدينة الجزائر ، أظهر تراجع قوة الإسبان وتأكد ذلك من خلال لجوئهم إلى التحالف مع السعديين ، مما يبين بأن الدعم الذي كان يقدم لهم من طرف القبائل الخاضعة في الغرب الجزائري قد قل بسبب تدخل العثمانيين وإخضاع الكثير منها إلى السيادة العثمانية في الجزائر .

وبعد ما حققه صالح رايس من انتصارات سواء على الإسبان أو السعديين تطلع إلى مواصلة مشروعه في تحقيق الوحدة الجزائرية ، وقد استهدف مدينة وهران التي تعتبر مقر التواجد الاسباني ، ومركز الحملات العسكرية المهددة للوجود العثماني في الغرب الجزائري .

[1]- ابن خروف : المرجع السابق ، ص ص 166 – 167 .

المبحث الثالث :

الصراع العثماني الاسباني في الغرب الجزائري بعد ضم تلمسان .

بعد أن تمكن العثمانيون من ضم مملكة تلمسان ، التي كانت هدفا لكل من الطرفين المتصارعين في الغرب الجزائري سواء الاسباني أو العثماني . وقد كان ذلك بمثابة أول انتصار لصالح الطرف الأخير على الإسبان ، وبداية الانطلاق في حلقة الصراع حول المنطقة . وبعد هذا أصبحت مدينة تلمسان مركزا للهجمات العثمانية على مدينة وهران بهدف تحريرها من الاحتلال

الاسباني . بينما كانت المدينة الأخيرة مركزا أساسيا للهجمات الاسبانية على الغرب الجزائري ، ومقرا لحكامها وجنودها .

أ – الحملات العثمانية لتحرير مدينة وهران :

تعود البدايات الأولى لتحرير مدينة وهران من الاحتلال الإسباني إلى عهد حسن باشا بن خير الدين ، الذي جهزا جيشا في بداية عام 1550م ، وتوجه به إلى مهاجمة المدينة قبل أن يسمع بأمر الخيانة السعدية من طرف محمد الحرّان وعبد القادر المذكورين سابقا . ولأجل ذلك أوقف حسن بن خير الدين مشروع مهاجمة مدينة وهران ، وتوجه إلى تلمسان لإيقاف الحملة عليها كما سبق الذكر ، وبذلك فقد فشلت المحاولة الأولى لتحرير المدينة .

وبعد ضم مدينة تلمسان إلى السلطة العثمانية ، وتحرير مدينة بجاية من الاحتلال الاسباني نهائيا في عام 963ه / 1555م ، تطلع صالح رايس إلى فتح مدينة وهران ، فقام بإرسال بعض الهدايا إلى السلطان العثماني سليمان مع رسالة يطلب فيها مساعدة عسكرية لكي يتمكن من ضرب الإسبان في وهران ، ويؤكد على مدى أهمية موقع هذه الأخيرة وإمكانية استعمالها كمنطلق بحري لمهاجمة مملكة الأشراف السعديين [1] ، خاصة بعد اكتشافه للمحادثات التي جرت بين حاكم مملكة فاس محمد الشيخ والكونت دالكوديت ، وقد أرسل السلطان العثماني أربعين سفينة على ظهرها ستة آلاف جندي تركي ضمها صالح رايس إلى قواته في مدينة الجزائر والمؤلفة من ثلاثين سفينة ، وعمل على تنظيم هجوم إلى مدينة وهران عبر البر والبحر أيضا [2] ، و وقد قرر صالح رايس بأن يكون على رأس الجيش المتوجه إلى مدينة وهران ، لكنه أصيب بمرض الطاعون قبل أن يصل إلى المدينة لذلك عاد إلى مقره في الجزائر أين مات بعد ثلاثة أيام من عودته ، وكان ذلك في جوان 964ه / 1556م بعد أن ناهز السبعين عاما من عمره .

1- الميلي : المرجع سابق ، ج3 ، ص 86 .

2- رضوان : المرجع السابق ، ص 250 – 251 .

وقد توفي صالح رايس بعد أن تمكن من تحقيق العديد من الانتصارات في الجزائر أهمها إخضاع مدينتي ورقلة ، وتقرت ، ثم ضم مدينة تلمسان ، وبعدها إخضاع مدينة فاس لفترة من الزمن بعد الرفض الذي أبداه حكام المدينة للخضوع للأتراك ، وواصل انتصاراته على الإسبان بتحريره لبجاية ، ثم تحضيره لحملة كبرى على وهران ، ولولا وفاته لربما تمكن من استرجاعها من الاسبان [1] .

بالإضافة إلى هذا ، قام صالح رايس قبل وفاته بتعين حسان قورصو ([2]) ، كقائد عام على السفن والذي قرر بأن يواصل قيادة الحملة الموجهة إلى مدينة وهران تنفيذا للوصية التي تركها له صالح رايس ، وللثقة التي منحها إياه هذا الأخير قبل وفاته ([3]) ، ولكن الظروف التي كانت تعيشها الدولة العثمانية جعلت السلطان العثماني سليمان يرسل فرمانا إلى حسان قورصو وهو في طريقه إلى مدينة وهران ، يطلب فيه أن يعيد الدعم الذي بعثه من قبل إلى صالح رايس ، لكي يرد على هجمات أندري دوريا على مضيق الدردنيل ، وبهذا فقد فشلت المحاولة الثانية لاسترجاع وهران ([4]) .

وفي الوقت الذي توقفت فيه الحملة على مدينة وهران ، كان دالكوديت يخطط إلى إبرام اتفاق أخر مع السعديين خوفا من تحالفهم مع الأتراك العثمانيين ، خاصة بعد ميول السعدي محمد الشيخ إلى ذلك كما سبق الذكر . وقد استغل دالكوديت وفاة صالح رايس في جوان 1556م ، وبدأ في التحضير للاتفاق مع السعديين بداية من شهر جويلية من نفس العام ، وذلك بعد أن تلقى تعليمات من ملك اسبانيا فليب الأول ، تنص على ضرورة إبرام اتفاق سلم مع السعديين لعشر سنوات . وقد رحب محمد الشيخ السعدي بالاتفاق وصادق عليه منذ بداية مارس 1557 م ،

---

[1] - Fey : op.cit , p . 92 .

[2]- بعد وفاة صالح رايس قام الجيش الانكشاري بمبايعة حسان قورصو على ولاية الجزائر في انتظار أوامر السلطان العثماني ، وقد كان هذا القائد من المقربين إلى صالح رايس ، كما كان من القادة الشجعان في الجيش العثماني ... ، للمزيد ينظر : Heado : op.cit , p. 98 .

[3]- مارمول : المصدر السابق ، ج2 ، ص 332 .

[4]- إلتر : المرجع السابق ، ص 196 . و رضوان : المرجع السابق ، ص 252 .

بينما رفض الاتفاق مع الأتراك العثمانيين في نفس السنة [1] . وهذا ما جعل السلطان السعدي محمد االشيخ ينتهز الفرصة في إرسال جيوشه إلى تلمسان ، وتمكن من غزوها بسهولة ، وقبل عودته إلى فاس وضع على رأس الحامية في تلمسان القائد المنصور بن بوغانم زعيم بني راشد المتحالف معه ، وكان ذلك في شهر جوان 1557م [2] .

وفي هذه الأثناء عاد حسن بن خير الدين باشا إلى مدينة الجزائر للمرة الثانية ، وقد جلب مع عشرين سفينة مجهزة حربيا ، وبعد أيام من وصوله إلى البلاد سمع بأمر الحملة التي قادها الشريف السعدي على مدينة تلمسان للمرة الثانية ، بعد أن بقيت فيها حامية عثمانية تتكون من خمسمائة جندي فقط بقيادة القائد العثماني صفا وبعد أن شهدت مدينة الجزائر بعض الاضطرابات في تلك الفترة لم تصمد الحامية العثمانية أمام الجيش السعدي فتمكن من دخول تلمسان بسهولة [3] .

ولما وصلت الأخبار إلى محمد الشيخ بوصول حسن بن خير الدين إلى الجزائر وبقرار هذا الأخير في التوجه إلى تلمسان ، وبعد أن يئس من التعاون الاسباني والدعم المنتظر من دالكوديت ، قرر محمد الشيخ فك الحصار عن تلمسان في أوت عام 1557م ، وذلك قبل أن تصل القوات المرافقة لحسن بن خير الدين ، لكن هذا الأخير لم يرحم محمد الشيخ وأرسل بعض رجاله المخلصين له لتعقب السلطان السعدي وقتله ، وقد تمكنوا من ذلك بعد أن دخلوا في صفوف جيشه مع علمهم بأن محمد الشيخ كان يحبّذ تجنيد الأتراك الراغبين في الانضمام إليه ، ولذلك انضموا إلى جيشه على هذا الأساس وتمكنوا من قتله في أكتوبر 1557 م [4] .

وبهذا تمكن الأتراك العثمانيون من صد المؤامرات المحاكة ضدهم من طرف السعديين ، ويبدو بأن دور الإسبان في هذه الحالة كان تحريض السعديين وتحفيزهم على مواجهة العثمانيين ، وذلك لاسترجاع تلمسان ، وقد أوضح هذا حنكة الكونت دالكوديت الذي كان يبادر إلى طلب

1- ابن خروف : المرجع السابق ، ص ص 167 – 169 .

2- إلتر : المرجع السابق ، ص 196 .

3 - Heado : op.cit , pp. 114 – 115 .

4 - Mercier : op.cit , p . 85 .

التحالف مع السعديين كلما أحس بتقدم العثمانيين نحو منطقة حكمه ، ثم يتملص من تقديم المساعدة للسعديين أثناء دخولهم في معارك مع العثمانيين . وسياسة المراوغة هذه بدت واضحة منذ أن بادر الكونت إلى طلب التحالف مع محمد الشيخ في عام 1554 م ، كما سبق الذكر . وبالتالي كان يستخدم السعديين فقط كوسيلة ضغط على العثمانيين ، وقد استعمل هذا الأسلوب لكسب الوقت حتى يصله الدعم من اسبانيا لضرب الأتراك العثمانيين . وهذا ما تأكد من خلال المحاولة التي قام بها في عام 1558 م ، لاحتلال مدينة مستغانم كما سيأتي .

ب – هزيمة الإسبان في مزغران 965ه / 1558م ومواصلة الحملات العثمانية لتحرير وهران من الاحتلال الاسباني :

بعد أن أخذ الأتراك العثمانيون في تضييق الخناق على مدينة وهران توجه الكونت دالكوديت إلى اسبانيا لطلب الدعم والمساعدة ، لكن الظروف التي عاشتها في تلك الفترة من حروبها مع الدول الأوروبية والتي جعلت شارلكان ينسحب من منصبه عام 957ه / 1550م مكّنت الأتراك العثمانيين من تشديد الحصار على مدينة وهران وغيرها من مراكز الاسبان في الغرب الجزائري [1] ، وبالرغم من الخسائر التي تلقاها هؤلاء خاصة بعد ضم مدينة تلمسان إلى العثمانيين ، إلا أن دالكوديت بقي يسعى إلى كسب الدعم من طرف الأعراب الخاضعين له ، إلى أن تمكن من الحصول على المساعدة المرجوة ، وقد كان ذلك واضحا من خلال الدعم الذي تلقاه لاحتلال مستغانم فبالرغم من محاولات العثمانيين قام بتحريض الفقهاء والعلماء المعارضين للإسبان ، إلا أن الكونت منح ما طلبه في نهاية المطاف وخرج من مدينة وهران متوجها إلى مستغانم مع عدد كبير من جنوده ومن القوى العربية [2] ، وقد كان هذا بعد عودة دالكوديت من اسبانيا بدعم يقدر بستة آلاف جندي وكان ذلك في السادس من جويلية عام 1558م ، وقد بقي في مدينة وهران مدة ستة أيام أين تمكن من استمالة العديد من القبائل المجاورة للمدينة وكان على رأسها قائد بني

1- الجمل : المرجع السابق ، ص 88 .

2- مارمول : المصدر السابق ، ج2 ، ص 333 .

راشد المنصور بن بوغانم ومعه بني عامر الذين بقوا على اتصال بالإسبان بالرغم من توغل العثمانيين في البلاد [1] .

وبعدها قاد دالكوديت حملة ضخمة ووصل في حدود 22 أوت 1558 إلى مدينة مزغران القريبة من مستغانم ، ودخل جنوده في مناوشات مع سكان المدينة الذين قرر البعض منهم التوجه إلى مستغانم ، أين شكلوا وفدا مع أهالي المدينة الأخيرة وتوجهوا إلى السلطان حسن باشا في الجزائر يعلنون له الولاء ويدعونه إلى تخليصهم من حكم الإسبان [2] ، وبعدها مباشرة توجه حسن بن خير الدين على رأس قوة من الجيش نحو المدينتين وتمكن من إلحاق هزيمة بدالكوديت وجيشه بعد معركة دامت ثلاثة أيام ، خسر فيها الجيش الاسباني عدد كبيرا من جنوده ،كما انتهت المعركة بموت قائدها دالكوديت وعودة عدد قليل من جنوده خائبة إلى مدينة وهران في 26 أوت 965ه / 1558م بعد المتاعب التي تلقوها في طريق العودة [3] .

وبالتالي تعتبر معركة مزغران من المعارك الهامة التي حقق فيها العثمانيون انتصارا كبيرا على الإسبان ، وجعل شعراء المدينة يتغنون بما أنجزه الأتراك العثمانيون في عام 1558م ، وكان الأخضر بن خلوف المذكور سابقا من بين الشعراء المشاركين في هذه المعركة في سبيل الدفاع عن بلاده ضد الاحتلال ، ونضم قصيدته المشهورة ، ومن أبياتها ما يلي :

يا سايلني عن طرد الروم   قصة مزغران معلومة ...

الأمير حسن يوم مزغران   أخلف الثار ما لعدو وتحقيق .

ارجع للبهجة عاصمة البلدان   بغنايم شتى ونصر البيق [4].

1- Ruff : op.cit , pp. 162 – 163 .

2- رضوان : المرجع السابق ، ص 254 . وابن حلوش : المرجع السابق ، ص 46 .

3- Heado : op.cit , pp. 117 – 119 .

4- ينظر نص القصيدة في قنان : المرجع السابق ، ص ص 47- 49 . وكذا: ابن حلوش : المرجع السابق ، ص ص 55- 59 .

وقد سجل هذا الشاعر جهود حسن باشا الذي قاد الجيش الجزائري في المعركة ، ودور السكان فيها كما ذكر الجيش الاسباني الذي كان يقوده الكونت دالكوديت ، وتحدث عن الطريق الذي سلكه ووصف معنويات الجيش في المعركة لكلا الطرفين كما تعرض لنتيجة المعركة التي قتل فيها القائد الاسباني وعودة الأمير حسن باشا منتصرا إلى الجزائر [1] .

وبعد أن تمكن حسن باشا من الاستيلاء على مزغران تطلع إلى فتح مدينة وهران والمرسى الكبير وبدأ يعد لذلك مباشرة بعد عودته إلى الجزائر مرة ثالثة في عام 1562 م ، بعد أن تمكن من تبرئة نفسه أمام السلطان العثماني من التهم الموجهة ضده من طرف الانكشاريين [2] ، وباشر في إصلاح السفن كما طلب الدعم من طرف القوى المحلية المجاورة لمدينة الجزائر مثل : إمارة بني عباس وأمير إمارة كوكو ...، بالإضافة إلى أنه جمع القوات المجاورة لمملكة تلمسان ، وتوجه إلى مدينة مستغانم في 15 ماي 971ه / 1563م أين انضم إليه الآلاف من رجال القبائل المجاورة ، وبعد مناوشات وقتال مرير بين القوات الاسبانية وجيش حسن بن خير الدين ، تمكن هذا الأخير من إسقاط حصن المرسى الكبير في نفس العام ، وبذلك ضم العثمانيون منطقة أخرى إلى الجزائر [3] .

وقد لقي هذا الانتصار أيضا حفاوة كبيرة لدى شعراء البلاد ، ومن ذلك الشيخ عبد الرحمان بن محمد بن موسى الذي سبق ذكره من قبل ، والذي نظم من الشعر قصيدة يصف فيها يوم هدم الباشا حسن حصن المرسى الكبير عام 971ه / 1563م ، وتتألف القصيدة من أربعة عشر بيتا منها :

هنيئا لك يا باشا الجزائر والغرب   بفتح أساس الكفر مرسى قرى الكلب

1- فكاير : المرجع السابق ، ص 403 .

2- للمزيد من التفاصيل في الحادثة ينظر : Heado : op .cit , pp. 121 – 122 .

3- للمزيد حول الموضوع ينظر ، مارمول : المصدر السابق ، ج2 ، ص 337- 348 .

ستفتح وهرانا ومرساها التي أضرّت بذا الإقليم طرا بلا ريب [1] .

وعزم حسن بن خير الدين بأن يكمل هذا الانتصار بقيادة حملة على مدينة وهران ، ولكن بلغته أخبار من جواسيسه بقرب وصول الدعم من اسبانيا ، فأمر جيشه بالانسحاب بعد أن أهك في المعارك الأولى ، وعاد إلى مدينة الجزائر للاستعداد من جديد لضرب وهران . وهكذا انتهت الحملة الرابعة على مدينة وهران بالفشل أمام الإسبانيين الذين صمدوا في الدفاع إلى أن وصلتهم النجدة من اسبانيا [2] .

ولكن صمودهم هذا لم يدم طويلا ، فلم ينتهي القرن السادس عشر الميلادي ، حتى أخذ نشاط الإسبان في الشمال الإفريقي يضعف شيئا فشيئا واهتمامهم بهذه الجهات يقل فاكتفوا بما استولوا عليه من ثغور ساحلية ، ولم يحاولوا التوغل إلى الداخل وكان ذلك لعدة أسباب منها : انشغالهم بالجهات المستكشفة ، وعلاقاتهم بالدول الأوروبية ، وتوغل العثمانيين في قلب القارة الإفريقية ...، وقد كانت هذه المشاكل كفيلة باستتراف جهود الإسبان وصرف أنظارهم عن القيام بمزيد من المغامرات في القارة الإفريقية [3] .

وهذا ما جعل العثمانيين يواصلون الهجمات على الإسبان في مدينة وهران إلى أن تمكنوا من تحريرها في عام 1708 م ، إلا أن الإسبان تمكنوا من احتلالها مرة ثانية في عام 1732 م ، إلى غاية وصول الباي محمد الكبير الذي تمكن من تحريرها نهائيا في عام 1207ه / 1792م في أواخر العهد العثماني في الجزائر .

واستنادا إلى ما تقدم يمكن القول ، بأن موقف العثمانيين من الوجود الاسباني في الغرب الجزائري بدا واضحا منذ قبولهم لحمل راية الجهاد ضد النصارى في العالم بصفة عامة ، وليس في الجزائر فقط . فقد رفض العثمانيون تقدم الإسبان نحو الداخل وبدؤوا في مقاومتهم منذ أول حملة

1- ينظر باقي أبيات القصيدة في : ابن مريم : المصدر السابق ، ص 132 .

2- المدني : **حرب الثلاثمائة سنة** ... ، المرجع السابق ، ص 383 .

3- الجمل : المرجع السابق ، ص 90 .

على مدينة تلمسان في عام 1518م ، وتواصلت جهود العثمانيين لطرد الإسبان من المنطقة فيما بعد باستعمالهم مختلف الطرق والوسائل المتاحة في تلك الفترة ، وقد لاحظنا من خلال تتبعنا لمسار الأحداث بأن العثمانيين كانوا الطرف الأقوى في هذه المنافسة ، بحكم الانتصارات المتواصلة التي حققوها منذ توجههم إلى الغرب الجزائري خاصة بعد ضمهم لمملكة تلمسان ، واستعمالها كمركز للهجمات على الإسبان ، فلم تأتي نهاية القرن السادس عشر حتى تمكن العثمانيون من استرجاع العديد من المدن في المنطقة ، بالرغم من أنها كانت مهددة ليس فقط من طرف الإسبان فقط ، وإنما من طرف السعديين أيضا كما سبق وأشرنا .

الخاتمة:

في ختام هذه الدراسة يمكننا أن نلخص ما توصلنا إليه فيما يلي :

أن الاحتلال الاسباني للمغرب الأوسط في بداية القرن العاشر للهجرة / السادس عشر ميلادي جاء بعد توحيد اسبانيا والقضاء على الوجود الإسلامي في الأندلس خاصة بعد سقوط غرناطة سنة 1492م ، مما حفز البلاد على تحقيق العديد من الأهداف السياسية والدينية والاقتصادية عن طريق غزو بلاد المغرب عموما والأوسط منها على الخصوص .

أن التطورات التي حدثت في الجزائر عموما والغرب الجزائري بصفة خاصة ، باعتباره يمثل مركز السلطة الزيانية ، مرتبطة بشكل وثيق بسقوط آخر معاقل الإسلام في الأندلس خاصة بعد الهجرة المورسكية التي اتخذت كحجة من طرف الإسبان للتوغل في المنطقة .

أن الأوضاع المتردية التي عاشها الجزائر سهلت من مهمة الإسبان في غزو البلاد ، وذلك بعد أن تأكدوا بفضل التقارير التجسسية من ضعف الزيانيين وعدم قدرتهم على التصدي للحملات الاسبانية ، وهذا ما ثبت فيما بعد ، فبالرغم من نجاح الإسبان في احتلال بعض المدن الساحلية كالمرسى الكبير ووهران ، ووضع بعضها تحت سلطتهم بواسطة فرض المعاهدات ، إلا أن سلاطين بني زيان لم يحركوا ساكنا لوقف ذلك الخطر مما يدل على مقدار ما وصلوا إليه من ضعف واضطراب.

أن الفترة الأخيرة للدولة الزيانية فترة اضطرابات ونزاع جعلت الإسبان ينتهزون الفرص السانحة للتوغل إلى الداخل مستعملين في ذلك المنافسة القائمة بين الحكام والقبائل الساخطين على ملوك تلمسان ، وبعد أن كانت سيطرة الإسبان لا تتعدى حدود وهران وضواحيها امتدت إلى أبعد من ذلك لا بقوة السلاح بل بانقسام المسلمين وتفرقهم .

أن الحملات التي شنها الإسبان على بعض المناطق الداخلية خاصة مملكة تلمسان التي أصبحت هدفهم منذ دخولهم إلى الغرب الجزائري ومحاولاتهم لإقامة علاقات تحالف مع القوى الداخلية ،

دليل على رغبتهم في التوغل إلى الداخل وعدم اكتفائهم باحتلال المدن الساحلية . وبالتالي هذا ينفي الفكرة التي ترجع أسباب عدم نجاح الإسبان في التوغل إلى الداخل لعدم رغبتهم في ذلك ووضع المسألة الإفريقية في المرتبة الثانية . الفكرة التي أقر بها بعض المؤرخين مثل أندري جوليان صاحب كتاب تاريخ شمال إفريقيا وغيرهم .

أن من أهم النتائج التي ترتبت عن العدوان الأسباني على الغرب الجزائري على مدى قريب هو تحالف بعض القبائل العربية مع الأسبان ، وإعلانها التبعية للاحتلال منذ دخوله إلى البلاد ، حيث كانت تزودهم بالحبوب والماشية وإمكانيات أخرى كانوا في حاجة إليها . وقد تسبب ذلك في حدوث شرخ في صفوف المجتمع الجزائري في المنطقة الغربية من البلاد . وهذا ما ساهم دون شك في تمهيد الطريق للتوغل إلى الداخل واستمرار بقاء الإسبان لفترة طويلة في هذه المنطقة .

أن تحالف بني عمار وبقية القبائل المذكورة وتحولها إلى عملاء لصالح الإسبان لعب دورا هاما في إعاقة جهود التوحيد التي قادها الإخوة بربروس فيما بعد لطرد الغزاة من البلاد ، وذلك لما أبدته تلك القبائل من مقاومة لحكام الأتراك العثمانيين المتوجهين إلى الغرب الجزائري من أمثال عروج وحسن آغا وغيرهم .

ولاشك أن ذلك قد وقع بناء على عوامل عديدة ، من أهمها خلفية الأوضاع التي كانت سائدة في البلاد قبيل الغزو الأسباني ، والمتمثلة في العلاقات التي كانت بين هذه القبائل وبين السلطة في تلمسان ، وتفطن الاسبان لذلك جعلهم يستغلون ذلك التناقض لضرب السلطة المركزية من جهة والقضاء على قوة القبائل المحلية التي أصبحت مستقلة منذ بداية القرن السادس عشر ميلادي ، ولذلك فقد لاحظنا شروع الإسبان في إقامة علاقات تحالف مع القبائل العربية بدأ منذ احتلال المرسى الكبير عام 1505م .

بالإضافة إلى أن انضمام القبائل للإسبان قد يكون راجع إلى تخوفها من التحول إلى قبائل الرعية في حالة تحالفها مع العثمانيين .

كان تخوف الإسبان من توغل الأتراك في البلاد هو الدافع الذي جعلهم يسعون إلى إقامة حواجز دفاعية تمثلت في القبائل العربية المتحالفة لصد حملات الأتراك والحفاظ على مكانتهم في المنطقة ، وذلك عن طريق الإغراءات المادية المقدمة من طرف حكام الإسبان في مدينة وهران لتلك القبائل المتحالفة مقابل المساعدات المقدمة .

أن القبائل المتحالفة مع الإسبان كانت قبل ذلك تحمي ظهر الدولة الزيانية من الحملات الحفصية والمرينية بعد أن استقدمها يغمراسن بن زيان ، وأصبحت فيما بعد تحمي ظهر الإسبان من الحملات التركية القادمة من الجزائر بعد ضم هذه الأخيرة إلى أملاك الدولة العثمانية .

أن القبائل المتحالفة لم تكن سوى وسيلة في يد الإسبان يستعملونها فقط في أثناء الحاجة إليها كإخضاع بعض القبائل المعارضة ونشر المسيحية بين المسلمين ، وغيرها من الأعمال التي كانت هدفا للاسبان منذ قدومهم إلى المنطقة .

بالرغم من الدور الذي لعبته القوى المتحالفة مع الإسبان في توسيع حدود حكمهم وترسيخ نفوذهم في الغرب الجزائري ، إلا أن الأمر الذي يفسر عدم تمكنهم من التوغل نحو الداخل بالقدر الذي كانوا يتوقعونه ، هو ظهور قوة أخرى محلية مناوئة للإسبان ، وأبدت معارضة شديدة له وساهمت في عرقلة مسار حركته في الغرب ، وقد ذكرنا بعض ملامح هذه المعارضة التي كان على رأسها العلماء وغيرهم من الزعماء المحليين .

أن علاقة العلماء بالاحتلال الاسباني كانت علاقة صراع وعداء بسبب الدور الذي لعبه هؤلاء في تحريض الطبقات الشعبية لمواجهة الاحتلال ، وحصره في المناطق الساحلية فقط دون السماح له بالتوغل إلى الداخل .

أن التباين في العلاقات بين الاسبان والقوى المحلية يرجع إلى ظروف كل قبيلة وموقعها ، فالقبائل القريبة من مركز حكم الاسبان أعلنت تبعيتها مباشرة بعد الاحتلال ، أما القبائل الأخرى فقد تباينت مواقفها .

كانت مملكة تلمسان مسرحا للتنافس بين القوى المتصارعة وظلت كذلك بسبب ضعف حكامها الذين لجؤوا إلى التحالف تارة مع الأتراك وأخرى مع الإسبان ، وكان ذلك بهدف الإبقاء على مكانتهم والحفاظ على مصالحهم ، واستمر وضعهم كذلك إلى أن انتهى حال دولتهم بالسقوط عام 1554م .

أن الموقف المتذبذب الذي أبداه حكام مملكة تلمسان وبعض القوى الأخرى مثل بني راشد سواء بمساندتهم للإسبان أو الأتراك هو الذي كشف نقاط ضعفهم التي استغلها الطرفان المتنافسان على بلادهم مما أدى إلى زوال دولتهم التي كان من الضروري اتحادها في مثل هذه الظروف ، لكن استسلام حكامها وأقاليمها إلى الاحتلال هو الذي عجل في نهايتها .

أن لظهور عروج وخير الدين الأثر الفعال في تخليص الغرب الجزائري من وطأة الاستعمار الاسباني ، بالإضافة إلى الدور الذي لعبته القوى المعارضة ، فلولا تدخلهما لدخلت جميع المناطق في الولاء للإسبان ، ولما تمكن المعارضون من طرد هؤلاء من بلادهم .

أن العلاقات استمرت بين القوى المحلية في الغرب الجزائري بالرغم من سقوط مملكة تلمسان في يد الأتراك منذ نهاية النصف الأول من القرن السادس عشر وقد تجلى ذلك في دعمها للكونت دالكوديت في احتلال مستغانم بالرغم من فشله في ذلك ،كما برز دورها كذلك بعد محاولات غزو تلمسان من طرف السعديين كما سلف . وهذا ما يفتح المجال للبحث والمقارنة بين الدور الذي لعبته القوى المحلية في بداية الغزو الاسباني وبين دورها بعد سقوط مملكة تلمسان . وعن علاقاتها مع الاسبان بعد أن تحولت موازين القوى لصالح الأتراك .

ملحق رقم 01 .

قائمة ملوك دولة بني زيان .

الملك	الولاية هـ	الولاية م
يغمراسن بن زيان	633	1236
ابنه عثمان الاول	681	1283
ابنه ابو زيان الاول	703	1304
اخوه ابو حمو الاول	707	1308
ابنه ابو تاشفين	718	1318
استيلاء مرين الاول	737	1337
عثمان الثاني	749	1348
استيلاء مرين الثاني	753	1352
ابو حمو الثاني	760	1359
ابنه ابو تاشفين الثاني	791	1389
ابنه ابو ثابت الاول	795	1393
عمه يوسف	795	1393
اخو هابو زيان الثاني	796	1394
اخوهما عبد الله الاول	801	1398
اخوهم ابو عبدالله الاول	804	1402
ابنه عبد الرحمن	813	1411
عمه السعيد	814	1411
اخوه عبد الواحد	814	1411
ابو عبد الله الثاني بن ابي تاشفين	827	1424
عود عبد الواحد	831	1428
عود ابي عبد الله	833	1430
احمد العاقل بن ابي حمو	834	1431
ابو ثابت الثاني المتوكل	866	1462
ابنه تاشفين	890	1485
اخوه ابو ثابت الثالث	890	1485
ابنه ابو عبد الله الثالث	902	1496
عمه ابو حمو الثالث	909	1503
ابن اخيه ابو زيان الثالث	923	1517
عود ابي حمو	924	1518
اخوه عبد الله الثاني	924	1518
اخوهما مسعود	925	1519
عود عبد الله	?	?
ابنه ابو عبد الله الرابع	930	1524
اخوه ابوزيان الرابع احمد	949	1542
عود ابي عبد الله	949	1543
عود احمد	950	1543
الاستيلاء التركي	957	1550

الميلي: المرجع السابق ، ج2 ، ص 465.

ملحق رقم 02 .

وثيقة استسلام مستغانم ومزغران في 26 ماي 917ه / 1511م .

ابن حلوش : المرجع السابق ، ص 45–46.

ملحق رقم 03 .

خريطة بعض القبائل المحيطة بمدينة وهران

من إنجاز الباحثة ، نقلا عن المزاري : المصدر السابق ، ص 207 ، و صالح عباد : المرجع السابق ، ص 203 .

ملحق رقم 04 .

رسالة من بعض المتحالفين مع الاسبان إلى شارلكان يطلبون فيها المكافأة على أعماللهم .

الحمد لله وحده ولا غالب الا الله

السلطان العلي القوي المرفع الكمل الجمل الاجل المشكور الاشنع الارفع طيعنا ومولانا الشنيور السلطان النبرادور نصره الله وعل قدره وشنو عل جميع سلاطن الدنيا من خدامك المقبلين الارظ تحت اقدمكم السعدة وصفتكم الشيخ محمد بن يوسف السودي وعبيد الجزاير السودي بعد السلام عل مفمك العلي مولانا نصركم الله نحنا جينا لهد البلد متع وهران لعند خدمكم القيد بدرن دغوفوي وخدمكم الفرنجد رموسلين من عند خوتنا الشيخ حميد

العبد وكافة ولاد محمد وكفة ولد بو بكر ونحنا في خيل وقوم كثر قد الاجين خيل صحيحه ونحنا خدمكم وجندكم للغرب ولشرق ونحب بالله ان نحنا جند برسم الجزايروغيرها بالله تعل وكذالك عل خدمتك الله ينصرك المربطين اولاد سي ابو عبد الله سيدي محمد اجغول وسيدي عمار ونحنا كولنا عل خدمتك نموت ونحنا ضبقنا الناس الكول لخدمتك ونحب من الله ومنك الله ينصرك تامر عل ان نوكافاو وقت ان نحنا خدمك نوصاح كما يعرفك القيد والقاظي متع وهران والشيخ ما ردهم ما كتب لمقامك العلي الا نحنا العرب ما عندنا من يستور وجهنا في الكتبه ولا زايد الا نرغبو لله سبحنه ان يكبل تحت طعتك واقدمك بقيه الدنيا والسلام عل مقمك العلي من وهران اول يوم من شهر العيد المبرك

Feraud : op. cit , p p. 316 – 317 .

ملحق رقم 05 .

رسالة ابن رضوان شيخ بني عامر إلى حاكم مدينة وهران الدون مارتين دي قرطبة .

الحمد لله وحده

الى الفارس الجيد الحسين دون موتينى ادي القربطي اعزه الله
بعد بلمنا عليك نعرفك جنا كتابك مع اتيميز والخجال الذي
عملوا تجار الله بعفيتك وبرحنا بيه وبرنا وعملنا العون ونحنا
حجين سغ واحمد ولدنا مرط مرط كبير وملى حتى للموت وشفاه
الله وهذي ليام جنا خبر عليكم انك مشت لداك البر وتوقفنا
ولا درنا اش نعملوا حتى اصحابنا العرب فلو انا انهم خرج
لسحر انطربنا لراس وكتبنا لك بلعزم تعرفنا بالخبر ان كان
انت مزلت ع وهران عرفنا وان انت عزم على المشى لذلك
البر عرفنا والسلام على دون بونتشك وعرفنا كيف هو دون
الهونس اي جكشي خبر عليه وكتب عبد الله عبد الرحمن بن
رضوان لطف الله به وسلام كتب يوم الجمع سادس شهر ربيع
لول عام ٩٤٢

Sur le dos est l'adresse en arabe : بيد الفند عزه الله

Et ensuite en espagnol : Ben Reduan. 1535

Feraud : op. cit , p p. 318 – 319.

ملحق رقم 06.

رسالة المنصور ابن بوغانم إلى السلطان الزياني أبو عبد الله الفار إلى وهران يعلن فيها التحالف مع دالكوديت حاكم مدينة وهران .

Sid Abd-Allah, ftls du Mezouar, de la part de votre frère,
El-Mansour Benbogani.

Vous aurez certainement appris ce qui est arrivé , par la permission de Dieu , entre nous et Ben Redouan et ses Arabes . ll a été battu et s'est , enfui pendant la nùit . Nous aurions bien voulu que cette chose n'arrivât pas; mais nous devons nous soumettre à la volonté de Dieu . Ben Redouan , qui a trompé ceux d'Oran , est le seul responsable de cé qui est advenu .
J'a' un grand désir de vous revoir. Je vous prie de me faire connaitre où en sont vos affaires , si le comte est disposé au bien , au nom de Dieu (s'il n'est pas irrité et si l'on peut s'entendre avec lui) . Comme dit le proverbe , « il n'y a pas de paix meilleure que celle qui se fait après la guerre . » Que Dieu nous la procure bonne Donnez-moi des nouvelles de votre situation .

السيد عبد الله بن المزوار ، من أخيه المنصور بن بوغاني .

" انك قد علمت بدون شك ماوقع بارادة الله بيننا وبين ابن رضوان ومن معه من العرب ، فإننا قد غلبناه وانهزم هاربا تحت جنح الظلام ، ولقد كنا نود لو أن هذه الحادثة لم تقع ، ولكن هي مشيئة الله وقدره ، وإن بن رضوان الذي خدع جماعة وهران (الإسبان) هو المسؤول الوحيد عن هذه الحادثة .

أود بغاية الشوق أن اجتمع بكم وبودي أن أعرف كيف تسير أموركم هناك (في وهران) وهل الكونت (حاكم وهران) مستعد للخير باسم الله ، وهل هو مترعج مما حدث ، وهل يمكن التفاهم معه ، والمثل يقول : إن خير الصلح هو ما يقع بعد المعركة ، ونسأل الله أن يكتب خير السلام ".

Elie De La Primaudaie :″ ***Document … , Lettre écrite , au Nom du Kaid El – Mansour , des Beni-Rachid a son frère*** , op.cit , p. 490 .

ملحق رقم 07

رسالة من الأمير الزياني أبو عبد الله إلى دالكوديت حاكم وهران

الحمد لله وحده   وعلى نعبد غيره

من عبد الله محمد بن طراد واحمد بن طراد لطف الله بهم ال
الفارس المكرم السيد الفند دون مرتين اعزه الله تعال امنا بعد
سلامنا عليكم جان كتابكم وعرفن منه حبكم الله يبارك لنا
فيك ويطول عمرك واحنا خدامك وخدام السلطان ادي
فشطيل الله ينصر ونعرفوك عرفك الله خير وعافية بانحن صرنا
نقدم على داركم العلي سع واحمد بن رضوان وقع في الهرط وشفاه
الله وصلنا خبرك بانكم قطعت لذاك البر وتوقفنا نرجاو خبرك
وتعريفك نعملوا به والسلام عليكم ورحمة الله

Adresse :

بيد السيد الفند اعزه الله تعالى

Feraud : op . cit , p . 320 .

أ – المصادر :

1 – باللغة العربية والمعربة :

1 - ابن خلدون (عبد الرحمان) : **ديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر (432-808ه)51332-1406م)** ،ج6 ، تح: خليل شحادة ، سهيل زكار ، دار الفكر ، لبنان ، 2000 .

2 - ابن سحنون (احمد بن محمد بن علي الراشدي): **الثغر الجماني في ابتسام الثغر الوهراني** ، تح : المهدي البوعبدلي ، مطبعة البعث ، الجزائر ، 1973 .

3 - ابن شهرة (المهدي): **تاريخ وبرهان بمن حل بمدينة وهران** ، دار الرّيحانة للكتاب ، الجزائر ، 2007 .

4 - ابن مريم (أبو عبد الله محمد بن أحمد الملقب الشريف المليتي المديوني التلمساني) : **البستان في ذكر الأولياء والعلماء بتلمسان** ، تح : محمد بن أبي شنب، المطبعة الثعالبية ، الجزائر ، 1908 .

5 - المزاري (بن عودة الآغا) : **طلوع سعد السعود في أخبار وهران والجزائر واسبانيا وفرنسا إلى أواخر القرن التاسع عشر**، تح : يحي بوعزيز، دار البصائر ، الجزائر، 2007 .

6 - المشرفي (عبد القادر الجزائري) : **بهجة الناظر في أخبار الداخليين تحت ولاية الإسبان بوهران من الأعراب كبني عامر** ، تح: محمد بن عبد الكريم ، دار مكتبة الحياة ، بيروت، د . ت .

7 - المقري (احمد بن محمد التلمساني) : **نفح الطيب في غصن الأندلس الرطيب** ، تح: إحسان عباس ، مج4 ، دار صادر، بيروت ، 1988 .

8 - الوزان (حسن بن محمد الفاسي المعروف بليون الإفريقي) : **وصف إفريقيا** تر: محمد حجي ومحمد الأخضر ، ج2 ، ط2 ، دار الغرب الإسلامي ، لبنان ، 1983 .

9 - **تاريخ تحرير مدينة وهران من الاحتلال الاسباني خلال القرن الثامن عشر الميلاديين،** من خلال مخطوطتين : فتح مدينة وهران للجامعي ، والرحلة القمرية لابن زرفة ،تح : مختار حساني ، جامعة الجزائر ، مخبر المخطوطات ، 2003 .

10 -الزياني (محمد بن يوسف) : **دليل الحيران وأنيس السهران في أخبار مدينة وهران** ، تح: المهدي البوعبدلي ، دار الثقافة العربية ، الجزائر ،2007 .

11 -كربخال (مارمول) : **إفريقيا** ، ج 2 ، تر: محمد حجي وآخرون ، دار المعرفة ، مصر، 1989.

12 -مجهول : **غزوات عروج وخير الدين** ، تصحيح وتعليق : نور الدين عبد القادر، المطبعة الثعالبية ، الجزائر ، 1934 .

13 - مجهول : **نبذة العصر في أخبار ملوك بني نصر (تسليم غرناطة ونزوح الأندلسيين إلى المغرب)** ، تح : الفريد البستاني ، مكتبة الثقافة الدينية ، مصر ، 2002 .

14 -**مذكرات خير الدين بربروس** ، تر: محمد دراج ، شركة الأصالة للنشر والتوزيع ، الجزائر ، 2010 .

2 – باللغة الأجنبية :

1- De Haedo (Diego) : **Histoire des rois d’Alger** , tr : De Grammont , Adolphe Jourdan libraire éditeur , Alger , 1881 .

2- De La Primaudaie (Elie) : ***" Document , inédits sur l’histoire de l’occupation espagnole en Afrique (1506-1575) " ,*** R . A , T19, 1875 .

3- De Sandoval , (G. X). **: *"les inscriptions d’Oran et de Mers-El Kebir (notice historique sur ces deux place depuis la conquête jusqu'à leur abandon en 1792 "***, tr : Monnereau , R . A , T15 , 1871.

4- Féraud (Charles) : " ***Lettre arabes de l'époque de l'occupation espagnole en Algérie*** " , R . A , t17, 1873 .

5- Montanes ، Diego Suarez : "***Mers-El Kebir*** ", tr : Berbruger , R . A , T09 , 1865 .

ب – المراجع :

1 – بالغة العربية والمعربة :

1 - أرسلان (شكيب): **خلاصة تاريخ الأندلس** ، دار مكتبة الحياة ، لبنان ، د ت .

2 - إلتر عزيز (سامح) : **الأتراك العثمانيون في إفريقيا الشمالية** ، دار النهضة العربية ، لبنان ، 1989 .

3 - إيرفنغ (واشنطن) : **سقوط غرناطة آخر المملك الإسلامية بالأندلس** ، تر : اسماعيل العربي ، المؤسسة الوطنية للكتاب ، الجزائر ، 1988 .

4 - إيرفنغ (واشنطن): **أخبار سقوط غرناطة** ، تر : هاني يحي نصري مؤسسة الانتشار العربي ، 2000 .

5 - بوعزيز (يحي): **تلمسان عاصمة المغرب الأوسط** ، م و ف م ج ، الجزائر ، 1985.

6 - بوعزيز (يحي): **وهران** ، س ط ش ج ، الجزائر ،2007 .

7 - بوعزيز (يحي) : **موضوعات وقضايا من تاريخ الجزائر والعرب** ، ج1 ، دار الهدى ، الجزائر ، 2009 .

8 - الجمل (شوقي عطا الله) : **المغرب الكبير في العصر الحديث (ليبيا ، تونس ، الجزائر، المغرب)** ، مكتبة الأنجلو المصرية ، مصر ،1977 .

9 - الحجي (علي عبد الرحمان) : **التاريخ الأندلسي من الفتح الإسلامي حتى سقوط غرناطة 92 ه–897ه (711م–1492م)** ، دار القلم ، لبنان ، 1976 .

10 -حساني (مختار) : **تاريخ الدولة الزيانية (الأحوال الاقتصادية والثقافية والاجتماعية** ، ج2 ،ج3 ، دار الحضارة ، 2007 .

11 -ابن حلوش (مختار) : **مدينة مزغران حديث عبر الأزمان** ، دار الغرب ، الجزائر ، 2009.

12 -حومد (أسعد) : **محنة العرب في الأندلس** ، المؤسسة الوطنية للدراسات والنشر، لبنان ، 1980 .

13 -دراج (محمد) : **الدخول العثماني إلى الجزائر ودور الإخوة بربروس (152-1543)** ، تص : ناصر الدين سعيدوني ، دار الأصالة ، الجزائر، 2012 .

14 -ابن خروف (عمار) : **العلاقات السياسية بين الجزائر والمغرب في القرن العاشر الهجري / السادس عشر الميلادي** ، ج1 ، دار الأمل ، الجزائر ، 2006 .

15 -الذنون (عبد الواحد و السامرائي خليل إبراهيم) : **تاريخ المغرب العربي** ، دار المدار الإسلامي ، لبنان ، 2004 .

16 -زروق (محمد) : **الأندلسيون وهجراتهم إلى المغرب خلال القرنين16-17م** ، الدار البيضاء ، المغرب ،1987 .

17 -سعد الله (أبو القاسم) : **تاريخ الجزائر الثقافي من القرن العاشر إلى الرابع عشر ه / السادس عشر إلى العشرين م** ، ج1 ، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع ، الجزائر ، 1980 .

18 -سعدون (نصر الدين) : **تاريخ العرب السياسي في المغرب العربي من الفتح العربي حتى سقوط غرناطة (798ه-1492م)** ، د ن ع ، بيروت ، 2003 .

19 -سعيدوني (ناصر الدين) : **دراسات وأبحاث في تاريخ الجزائر في العهد العثماني** ، المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية ، الجزائر ، 1985

20 –سليماني (أحمد) : **تاريخ مدينة الجزائر** ، ديوان المطبوعات الجامعية ، الجزائر ، 1989.

21 –سي يوسف (محمد) : **أمير أمراء الجزائر علج علي باشا** ، دار الأمل ، الجزائر ، 2009 .

22 –شويتام (أرزقي) : **المجتمع الجزائري وفعالياته في العهد العثماني (926– 1246ه / 1519– 1830م)** ،ط1 ، دار الكتاب العربي ، الجزائر ، 2009 .

23 –شويتام (أرزقي) : **دراسات ووثائق في تاريخ الجزائر العسكري والسياسي الفترة العثمانية (1519– 1830)** ، دار الكتاب العربي ، الجزائر ، 2010 .

24 –ضيف (شوقي) : **عصر الدول والمارات (الجزائر، المغرب الاقصى ، موريطانيا ، السودان)** ، دار المعارف ، القاهرة ، 1995 .

25 –الطمار (محمد) : **تلمسان عبر العصور ودورها في سياسة وحضارة الجزائر** ، ديوان المطبوعات الجامعية ، الجزائر ، 2007 .

26 –عباد (صالح) : **الجزائر خلال الحكم التركي(1514–1830م)** ، دار هومة ، الجزائر ، د ت .

27 –عبد القادر (نور الدين) : **صفحات من تاريخ مدينة الجزائر من أقدم عصورها إلى انتهاء العهد التركي** ، دار الحضارة ، الجزائر ، د ت .

28 –عبدلي (لخضر) : **تاريخ مملكة تلمسان في عهد بني زيان** ، دار الأوطان ، الجزائر، د.ت .

29 –عنان (محمد عبد الله) : **نهاية الأندلس وتاريخ العرب المتنصرين** ، ط3 ، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ، مصر ، 1966 .

30 -فكاير (عبد القادر) : **الغزو الاسباني للسواحل الجزائرية وآثاره (910- 1206ه / 1505- 1792 م)** ، دار هومة ، الجزائر ، 2012 .

31 -قنان (جمال) : **نصوص ووثائق في تاريخ الجزائر الحديث (1500-1830م)** ، ط1 ، دار هومة ، الجزائر، 1987 .

32 -المدني (أحمد توفيق) :**حرب الثلاثمائة سنة بين اسبانيا والجزائر (1492-1792)** ، دار البعث ، الجزائر ، 1968.

33 -الميلي (مبارك بن محمد) : **تاريخ الجزائر في القديم والحديث** ، ج2، ج3 ، دار الغرب الإسلامي ، بيروت ، دت .

2 - بالغة الأجنبية :

1- Amoura (Amar) : **Résumé de l'histoire de l'Algérie** , édition Dar Raihana , Alger , 2002 .
2- Belhamissi (Moulay) **: Histoire de Mostaganem (des origines et l' occupation française) ,** centre national d'etu des historique , Alger , 1976.
3- Caporal (Bernard) : **Oran capitale de beylik de l'ouest (1792-1831)** , édition Alpha , Alger , 2012 .
4- De Grammont (H . D).: **Histoire D'Alger sous la domination Turque (1515- 1830)** , Ernest leroux éditeur , Paris , 1887 .
5- Fey (Leon) : **histoire d'Oran , pendant et après la domination espagnole** , typographie Adolphe Ferrier éditeur , Oran , 1858 .
6- Malki (Nordine) **: Razzia , butin et esclavage dans l'Oran du 16 éme siècle (D' après le manuscrit de Diego Suarez)** , édition Dar El Gharb , Oran , 2003 .
7- Mercier (Ernest) **: Histoire de l'Afrique septentrional (depuis les plus reculés jusqu'à la conquête française 1830)** , t 02 , Ernest Leroux éditeur , paris , 1868 .
8- Ruff (Paul) : **la domination espagnole a Oran sous le gouvernement du comt D'Alcadete (1534- 1558)** , éditions Bouchene , 1998 .
9- Sahri (Fadela) : **Oran mémoire vive** , édition dar El Gharb , Oran , 2006 .

ج- المجلات والدوريات :

1 - بالغة العربية :

1 - بحري (آمنة) : " ***الموروث الأندلسي في شرشال*** " ، مجلة الدراسات التاريخية ، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية ، الجزائر ، 2013 .

2 - بلحميسي (مولاي) : " ***نهاية دولة بني زيان*** " ، الأصالة ، ع26 ، 1975 .

3 - البوعبدلي (المهدي) : " ***الرباط والفداء في وهران والقبائل الكبرى*** " ، الأصالة ، ع 13 ، 1970 .

4 - بوعزيز (يحي) :" ***المراحل والأدوار التاريخية لدولة بني عبد الواد الزيانية (1236-1554م)*** ، الأصالة ، ع26 ، 1975 .

5 - بونار (رابح) : " ***عبد الحق الاشبيلي البجائي محدث القرن السادس الهجري*** " ، الأصالة ، ع19 ، مطبعة البعث ، الجزائر ، 1974 .

6 - التميمي (عبد الجليل) : " ***الخلفية الدينية للصراع الاسباني العثماني على الايالات المغربية في القرن 16م*** " ، المجلة المغربية ، ع10-11 .

7 - التميمي (عبد الجليل) : " ***الدولة العثمانية وقضية المورسكين*** " ، المجلة التاريخية المغربية ، ع23-24 ، تونس ، 1981 .

8 - حجي (محمد) : " ***المورسكيون والجهاد البحري في المغرب الكبير*** " ، سلسلة الندوات ، الندوة الثالثة ، مطبعة دار المعارف الجديدة ، المملكة المغربية ، 2001 .

9 - خليفي (رفيق) : " ***تطور استقرار الجالية الأندلسية بالمغرب الأوسط القرن 10ه / 16م*** " ، مغرب أوسطيات دراسات في تاريخ وحضارة الجزائر في العصر الاسلامي الوسيط ، منشورات مكتبة اقرأ ، جامعة عباس لعزور ، خنشلة ، 2013 .

10 -شقرون (الجيلالي) : " تلمسان مركز إشعاع حضاري في المغرب الأوسط " ، مجلة الفقه والقانون ، جامعة الجيلالي الياس ، سيدي بلعباس ، د.ت .

11 -شنهو (عبد الحميد بن أبي زيان) : " **أبو عبد الله آخر ملوك غرناطة دفين تلمسان أم فاس ؟** " ، الأصالة ، ع 26 ، 1975 .

12 -المدني (أحمد توفيق) : " **انهيار الأندلس وموقف دول الإسلام واسطنبول من ذلك** "، الأصالة ، ع27 ، 1975 .

13 -المدني (أحمد توفيق) : " **تلمسان بين الزيانيين والعثمانيين 1530-1554** . " ، الأصالة ، ع 26 ، 1975 .

14 -ياسين (حكمت) : " **الغزو الاسباني للجزائر في القرن السادس عشر (أسبابه ، مراحله ، ونتائجه)** " ، الاصالة ، ع14 ، 1973 .

15 -الطيب (محمد سليمان) : " **موسوعة القبائل العربية (بحوث ميدانية وتاريخية)** " ، مج 1 ، ج1 ، ط2 ، دار الفكر العربي ، لبنان ، 1997 .

2- بالغة الأجنبية :

1- Braudel (Fernando) **:** ***" les espagnoles et l’Afrique du Nord "***, R . A , T69 , 1929 .
2- Cazenave (Jean) *:* ***" Les gouverneurs d’Oran pendant l’occupation espagnole de cette ville (1505- 1792) "***, R . A , T71 , 1930
3- Djoglom (A .Pestemal) : ***" Mers –El Kebir historique et décrispation de la forteresse "***, R . A , T84 , 1940 .

د – الرسائل والأطروحات الجامعية :

1 - بوبكر (محمد السعيد) : " **العلاقات السياسية الجزائرية الاسبانية خلال القرن 12ه / 18م ، (1119- 1206ه / 1708- 1792م)** " ، مذكرة ماجستير تاريخ حديث ، جامعة الجزائر ، بوزريعة ، 2011 .

2 - حيمر (صالح) : " ***التحالف الأوروبي ضد الجزائر عام 1541 وتأثيراته الإقليمية والدولية*** " ، مذكرة ماجستير في التاريخ الحديث والمعاصر ، جامعة الحاج لخضر ، باتنة ، 2007 .

3 - رضوان (نبيل عبد الحي) : " ***جهود العثمانيين لإنقاذ الأندلس وأسراره في مطلع العصر الحديث*** " ، رسالة دكتوراه في التاريخ الإسلامي الحديث ، جامعة أم القرى ، المملكة العربية السعودية ، 1987 .

4 - كليل (صالح) : " ***سياسة خير الدين في مواجهة المشروع الاسباني لاحتلال المغرب الأوسط*** " ، مذكرة ماجستير تاريخ حديث ومعاصر ، جامعة العقيد الحاج لخضر ، قسم التاريخ ، باتنة ، 2007 .

فهرس الأعلام والشخصيات

ملاحظة :

اعتمدنا في ترتيب الفهارس على الترتيب الأبجدي ، مع استثناء (ال) القمرية و الشمسية ، وأبو ، وإبن من الترتيب .

(أ)

(ب)

(خ)

(ز)

(س)

(ي)

فهرس الأماكن والبلدان

(أ)

(ت)

(ج)

(د)

(ف)

(ق)

(ك)

(م)

فهرس القبائل والشعوب

(أ)

(ب)

(ت)

(ث)

(ج)

(ح)

(د)

(ر)

(ز)

فهرس المحتويات